Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

المرأة المصرية

من الفراعنة إلى اليوم

بقلم

درية شفيق

درّية شفيق

المرأة المصرية

١٩٥٥

893.797
R126

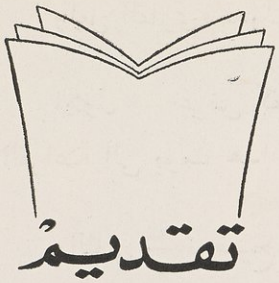

تقديم

هـذا الكتاب :

قد يتساءل القارىء ما هو هدفى ، وما هى غايتى من اصدارى هذا الكتاب ،

وأنا أبادر بدورى فأرد على هذا السؤال أو التساؤل بأنى أهدف فى هذا الكتاب الى أن يكون سجلا لكفاح المرأة وعرضا شاملا لأدوار الحركة النسائية فى مصر منذ أيام الفراعنة الأولى حتى يومنا الراهن .

وأهدف أيضا من هذا الكتاب الى توضيح رعاية الاسلام للمرأة وعنايته بحقوقها وتوضيح هذه الحقوق للمرأة بما ترنو وتسعى اليه من التمتع بهذه الحقوق وجناء ثمرها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو غير هذين .

وأبادر فى هذه المقدمة فأسجل حقيقة حاول البعض طمسها واخفاء نورها حتى لا تصل المرأة اليها وتتمسك بها .

هذه الحقيقة فى جوهرها تتلخص فى ان الاسلام لم يحارب المرأة ولم يحل دون تمتعها بحقوقها كما يزعم هذا بعض من ينتسبون الى الاسلام .

ولعل القارىء يدرك الآن انى قصدت بهذا الكتاب تحقيق هدفين :

الأول — عرض كفاح المرأة المصرية والحركة النسائية منذ عهد الفراعنة الى يومنا هذا .

والثانى — توضيح موقف الاسلام السمح من مطالب المرأة وحقوقها وأنه لا يعارض فى أن تتمتع المرأة بحقوقها السياسية والاجتماعية ولا يقف حجر عثرة فى سبيل تقدمها .

ومن أجل تحقيق هذين الهدفين وغيرهما مضيت أجوس بين صفحات تاريخ مصر قديمها وحديثها ، استنطقها جميعا حقيقة رأيها فى المرأة المصرية .. وأستوحى تجاربها وأحداثها لانارة طريق كفاحنا النسائى المرير !

وما كنت لأسلك هذا الطريق الطويل فى تقديم هذه الدراسة عن « المرأة المصرية » لولا أننى أؤمن بأننا نحن النساء أحوج ما نكون اليوم الى التسلح بوعى نسائى جديد يقوم على أساس قوى من الدرس والعلم والتجربة .. فلا يكفى أن ترفع المرأة صوتها بطلب حقوقها بل عليها أن تعرف أولا ما هى هذه الحقوق وما مدى حيويتها بالنسبة لكيانها ووجودها ، وعليها أن تعرف ثانيا ما هو السبيل الايجابى لاستخلاص هذه الحقوق .. وهى لن تستطيع ولا شك التعمق فى تفهم ذلك كله الا اذا عرفت كيف بدأت المصرية حياتها حرة مستوفية الحقوق .. وفى أية ظروف خسرت حقوقها وحرياتها . لتدرك بعد ذلك أى مجتمع هو الذى يعترف بحقوقها وأى مجتمع ينكرها . ومتى أدركت ذلك لم تجد كبير عناء فى فهم الحقيقة الكاملة .. وهى أنه لا وطنها ولا مواطنوها هما اللذان يسلبان حريتها بل ان حريتها ليست الا حلقة فى مجموعة الحريات التى خسرها الوطن يوم فقد استقلاله ونكب بتآمر المستعمرين على حضارته وحقوقه وحرياته جميعا ..

أما كيف بدأت المرأة المصرية المنـاداة بهذه الحقوق التى يكلفها استردادها اليوم الكثير الغالى من الجهد والعرق ، بل الدم الذى لن تتردد فى سفكه لحسم المعركة .. فذلك ما سأوضحه بالتفصيل فى مكانه من هذا الكتاب .

أما فى هذه اللمحة السريعة فيكفى أن أقول ان شهادة التاريخ عن تحرر المرأة الفرعونية صريحة مؤيدة بعشرات الأدلة المادية الرابضة فى بطن الوادى الحبيب لملكات الفراعنة والتماثيل المقامة لهن رمزا لاجلال المصريين القدماء للمرأة ، وصور الحضارة المصرية التى نسجتها أيدى الفرعونيات وعقولهن وحكمتهن .. وقد كان الفراعنة هم أول من اعترف بحقوق المرأة كاملة ومساواتها للرجال فى مجالات السياسة والعمـل والالتزام ...

نعم كان الفراعنة هم أول من رفع المرأة الى مقاعد الحكم ، وارتضى رجالهم فى فخر واعتزاز أن تحكمهم ملكات كانت عهودهن رمز العدالة والتقدم والاستقرار ... ولقد وصلت المرأة الفرعونية الى هذه المكانة العالية فى قومها بغير معارك وبدون اعتراض .. وما كان ذلك الا لأن المجتمع الفرعونى كان هو المجتمع المتحضر الذى رسم للبشرية بأجمعها طريق الحضارة والعلم والحكمة .. فكانت حضارته هى وحدها سر احترامه لنسائه والاعتراف بحقوقهن كاملة غير منقوصة . فاستطاع بذلك أن يبنى مجده من تمجيد المرأة فيه الى حد وصل الى تقديسها واعتبارها منبع الخير والرحمة والقوة والعدالة ..

* * *

هكذا عاشت المرأة الفرعونية بحقوقها وتمتعت بحريتها ...

أما كيف خسرت بعد ذلك حقوقها وحريتها وصارت الى حـالة العبودية والتأخر فقد كان ذلك فى عهود الاحتلال اليونانى لمصر وعهود الاحتلال الرومانى من بعده .. فان هذه المرحلة من تطور الحركة النسائية

هى حجر الزاوية التى يجب أن تقوم عليها دراستنا للقضية النسائية لنعرف جميعا — نساء ورجالا — ان المساواة التى تمتعت بها المرأة آلاف السنين فى مصر الحرة المستقلة المتحضرة قد أهدرت لأول مرة برماح جنود الاحتلال الغاصبين وديست تحت أقدام الغزاة المعتدين على كل مقدسات شعبنا المصرى أعرق شعب عرف الحرية . وهذا ما يضاعف اهتمامى بهذه المرحلة القاسية فى تاريخ المرأة العصرية واعتبارها نقطة هامة فى دراستنا لقضيتها .. لأنها تبرز مدى هذا الارتباط الحقيقى بين حرية المرأة وحرية الشعب كله . وبالتالى بين القضية النسائية والقضية الوطنية ..

والاحاطة بهذه الحقائق المرة يجب أن يكون أساس كفاح المرأة المصرية فى هذه الفترة الحاسمة فى استقلال الوطن وتحرره . فان ادراكها لأسباب ضياع حريتها هو الذى يوجهها ويرشدها الى وسائل استعادة هذه الحرية .. وبمعنى أدق أن على المرأة المصرية التى تجاهد اليوم فى سبيل حريتها أن تؤمن بأن هذه الحرية التى خسرتها ضمن خسارة الوطن لحريته واستقلاله لا سبيل الى استردادها الا باسترداد الوطن لحريته واستقلاله ، ومن هنا تبرز أهمية ربط حالة المرأة فى أى مجتمع بحالة بلادها من ناحية تحررها أو استعبادها .

وهذا هو الشعار الذى أنادى دائما بأن يكون أساس كفاحنا النسائى الحديث . وهو ان لا حرية للمرأة فى وطن مستعمر ولا عبودية للمرأة فى وطن متحرر .

***

ولقد اقتضت متابعتى لتطور حالة المرأة المصرية تركيز جهد أكبر لعرض مرحلة الفتح الاسلامى لمصر . فقد كانت هذه المرحلة هى نقط التحول فى حياة مصر عامة والمرأة فيها خاصة . لأن دخول الاسلام مصر لم يكن مجرد فتح أو احتلال على مضض من أهل البلاد حتى يستهدف

مناوأتهم وينتهى الى الجلاء عن ديارهم ليتولى الزمن اعادة ما قوضه من قوانين البلاد الأصلية وطبيعة حياتها ..

لم يكن فى طبيعته شىء من ذلك ولكنه كان غزوا روحيا بل كان مرحلة من مراحل التطور . فلم يدخل الاسلام ليقيم احتلالا زمنيا ولكن ليشعل قوة فكرية تفرض ما يتفق مع ارادة الزمن من القوانين والتقاليد وفقا لرسالة الاسلام وتشريعاته وأحكامه .. وهكذا امتزجت الدماء المصرية بالدماء العربية وتوحدت حضارتاهما لترسيا أساس الدولة المصرية ذات المبادىء والقيم الاسلامية الجديدة . الجديدة فى حياة أبناء الفراعنة ، العريقة فى ضمير الانسانية بأهدافها السامية لتحرير البشرية ، وتحقيق العدالة ونصرة المستضعفين من بنات وأبناء آدم على السواء .

واذا كنت قد حرصت على بيان موقف الاسلام الصريح من تحرير المرأة وتثبيت حقوقها وحفظ آدميتها . فما ألجأنى لهذا الحرص الا ما لمسته فى خلال اشتغالى بالحركة النسائية من التجنى على حقوق المرأة ومحاولة النيل من مكانتها باسم الاسلام . والاسلام برىء مما يفترونه عليه .. لأنه وهو دين الانسانية والحرية والعدالة ، ما كان له أن يستعبد المرأة نصف الأمة وهو الذى جاء ليحرر أمة الاسلام جميعا من العبودية والظلم والاستبداد ..

لذلك لم يكن غريبا أن تنتعش معنوية المرأة المصرية بعد رسوخ قواعد الدولة الاسلامية فتعود تسعى الى استرداد ما سلبتها عهود الاحتلال والطغيان من الحقوق والحريات .. وتمضى قدما فى سبيل غايتها المقدسة حتى تصل حالتها الى أوج الازدهار .

* * *

وتنتهى هذه المرحلة من حياة المرأة المصرية بقيام الحكم التركى فى مصر والعصور التى تلته وقيام أسرة محمد على فتدخل المرأة فى طور آخر من أطوار استغلالها لحساب الاقطاعية المصرية والاحتكارية الاستعمارية .

ولكن عجلة التطور تعود لتدفع بها من جديد فى طريق التقدم المرموق.. حين يبلغ استغلال أسرة محمد على والاستعمار ذروتيهما ضد الشعب المصرى الأبى فتتفجر براكين سخطه وحقده فى ثورة وطنية عارمة هى ثورة سنة ١٩١٩ ..

وهنا يقف التاريخ دهشة واكبارا .. حين يرى المصرية المحجبة قعيدة الدار تندفع بقوة الى الشارع لتنظم المظاهرات وتحمل راية الجهاد ، وتنادى بالاستقلال والحرية لبلادها غير آبهة بما ينالها بسبب هـذا الكفاح . كانت بنات المدارس لابسات « التزييرة » و « اليشمك » يسقطن صرعى فى المظاهرات وهن يهتفن بحق وطنهن فى الحرية والاستقلال

.. وأخيرا تتدخل الرجعية المصرية لتخميد نيران الثورة الوطنية ولكن بعد أن تكون المصرية قد اشترت جزءا من حريتها بقطرات حمراء غالية من دمائها الزكية التى روت بها أرض الوطن فى معركته المقدسة . التى طال بها عهد الضيم والاستبداد — فلم تلبث القيود ان بدأت تتحطم من حول أقدامها المغللة ..

هذه هى الحقيقة التى أود أن ألفت اليها الأنظار مع ملاحظة أن المرأة المصرية لم تصل الى ما وصلت اليه من نجاح وفوز فى أكثر الميادين الا بفضل جهادها وبعد معارك حامية كانت تنتهى كلها بنصرها وفوزها .. وهذا فى اعتقادى هو سر اعتزاز المرأة المصرية بنجاحها الذى استخلصته بالجهد والعمل ولم تنله على سبيل الهبة أو الصدقة .

ومن أجل ذلك ومن أجل ابراز هذه الحقائق واضحة خصصت أكثر من باب فى هذا الكتاب لتسجيل بعض نواحى النشاط النسائى فى مصر فى الميادين العامة من اجتماعية وانسانية وسياسية ..

وعندما أشرق عهد التحرير وقام الشعب ، جيشه وعماله وشبابه ، يدك صرح الطغيان والظلم والاستبداد كانت المرأة فى مقدمة من استبشر ببزوغ هذا الفجر الجديد ، فأملت أن يكون فيه نهاية لذلك الليل الطويل للمرأة التى هى نصف الأمة ومنشئة الجيل الجديد والتى لن تتمكن من تأدية رسالتها فى المجتمع الجديد الا اذا كانت متحررة مستوفية الحقوق كما هى ملزمة بتأدية الواجبات .

وها أنذا أعد أصول هذا الكتاب فى الوقت الذى تجهز فيه المرأة المصرية على البقية المثقلة من أغلال الرجعية ، بما تسجله كل يوم من انتصارات فى مختلف ميادين العلم والعمل والكفاح !! . بل فى الوقت الذى ترفض فيه الاستسلام لأية مؤامرة على حقوقها الدستورية وتقف فى صلابة وعناد لتناضل من أجل حقوق كاملة وحريات شاملة بلا قيود ولا شروط ولا تحفظات !

دريه شفيق

المرأة الفرعونية

كانت لها حقوق الرجل

عندما تتحدث المرأة المصرية اليوم .. امرأة القرن العشرين .. فتقول انها تطلب استرداد ما كانت تتمتع به جداتها الفرعونيات من حقوق فهى لا تتجاوز الحقيقة أبدا ، ذلك ان المصرية بدأت تزاول حياتها منذ القدم بهذه الحقوق التى تحرم منها الآن فى القرن العشرين !

فقد شهدت مصر القديمة بزوغ فجر نهضتها يشرق ويزدهر وتشع حضارته على العالمين فى مجتمع متحضر ، كان تحرر المرأة فيه هو أساس حضارته وانعكاس صور تقدمه .. مجتمع عرف قدر المرأة ورفعها الى أسمى مكان واعترف بحقوقها كاملة فى مساواة تامة مع الرجل .. فكانت عهود الفراعنة الأولى تعطى المرأة حق اختيار زوجها .. وحق الاحتفاظ بما تمتلك بعد الزواج وحق اقتسام الميراث فى مساواة مع رجل أسرتها الى آخر هذه الحقوق المدنية والاجتماعية ، بل لقد تميزت المرأة على الرجل فى هذه العهود .. فكانت تملك حق تطليق زوجها بعد أن تدفع له تعويضا .. وكانت تسمى أولادها باسمها !

كان المجتمع المصرى فى ذلك الحين يتمتع بظروف طبيعية تؤهله للاستقرار الذى لم تكن سائر مجتمعات العالم قد عرفته بعد .. هنا ، كان النيل — أهم انهار العالم — قد أوحى للقبائل الهائمة على وجهها أن تستوطن شطآنه ووديانه لتزرع الأرض ، وترعى الماشية .. وفى خلال ذلك تكتب سطور تاريخ المدنية وتشيد صرح الحضارة حجرا فوق حجر.

ولم يشأ ذلك المجتمع الذى كان يستشعر حاجة الى البناء والتعمير ، أن يحرم نفسه من جهد المرأة ، فلا يبقى نصفه معطلا ومشلولا عن الحركة .. ولم يكن الانتاج بعد يسمح بأن يعيش نصف المجتمع عيالا

على النصف الآخر ، ومن هنا كانت المرأة تعمل وتنتج ، سواء كانت فى صفوف السادة أو فى صفوف العبيد ، فكان لها أن تنعم بذات الحقوق التى ينعم بها الرجل من نفس الطبقة .. وكانت تتميز على الرجل أحيانا ، لأنها كانت تنجب الأبناء الذين يعملون فى مجتمع كانت ظروفه تجعله دائما فى حاجة الى مزيد من الأيدى العاملة ، ولعل ذلك هو سر المبالغة فى احترام المرأة اذ ذاك الى حد التقديس !

ويقول هيرودوت فى معرض الحديث عن تميز المرأة على الرجل عند الفراعنة .. « ان المرأة فى مصر القديمة أكثر نشاطا من رجلها فالنساء يذهبن الى السوق يبعن ويشترين فى حين أن الرجال يلازمون بيوتهم حيث يقومون بنسج الأقمشة » !

وكانت الحقوق السياسية للمرأة فى مقدمة ما تتمتع به نساء الفراعنة فى عهود الحضارة التى خلدها التاريخ .. فكانت النساء ترتقى العرش لتحكم بلادها حكما مباشرا سواء بمفردها أو بمشاركة زوجها أو أخيها .. وهذا لعمرى أخطر وسائل استعمال الحق السياسى !!

ولقد سجل التاريخ .. وصدقت عليه آثار الفراعنة الخالدة فى بطن الوادى الحبيب صـــورا متعددة لهذه الفرعونية الحاكمة والمتحـــررة والمقدسة فى شخص بعض ملكات مصر القديمة أمثال « تى » زوجة امينوفيس وأم « اخناتون » و « نفرتيتى » زوجة « اخناتون » التى حملت لواء حركة الانقلاب الدينى .. وهى الحركة التى قامت فى عهد حكم زوجها واشتركت نفرتيتى معه فى وضع أسس الدين الجديد الذى توحدت فيه لأول مرة فى تاريخ الأديان جميع الآلهة فى اله واحد هو « أتون » أى الشمس .

وهذا العمل الخطير الذى تولته هذه الملكة يدل دلالة قاطعة على مدى تقدير المجتمع الفرعونى المتحضر لنسائه بائتمانه « نفرتيتى » على أن تضع له دينه وتقيم له عبادته ! .

واذا مضينا فى تعقب نساء السياسة فى عهود مصر القديمة ، التقينا بالكثيرات اللوائى سجلن أسماءهن فى تاريخ مصر المجيد .

وهكذا سارت المرأة الفرعونية المتحررة تنتقل من مجد الى مجد ، تشارك الرجل المسئوليات وتتبادل معه مقاليد الأمور وتقدير سياسة بلدها فى دقة ومهارة وقوة كانت تضاعف من تقدير الرجال لها وافساحهم المجال أمامها لترقى أعلى مناصب الحكم وأسمى مراتب القداسة .

وكانت أبرز النساء اللائى حكمن البلاد كليوباترة التى لعبت أخطر الأدوار فى حياة شعبها ووطنها ..

كليوباترة

ويجدر بنا هنا أن نقول من هى كليوباترة ؟

انها سيدة جبارة من سلالة الفراعنة نفاها أخوها ليبعدها عن العرش.. ولكنها لم ترتض حياة المنفى وهوانها .. فغامرت بالعودة للوطن وتمكنت من العودة الى مصر واسترداد حقها على العرش .

وكليوباترة هى المرأة والملكة التى طارت باسمها القصص والأساطير فى جهات العالم الأربع وبكل اللغات .. ولكن تضارب الأقوال حول شخصيتها وتطاول المؤرخين والقصاصين على حياتها الخاصة وسيرتها كل ذلك لم يستطع طمس الحقيقة الساطعة فى تاريخها وهى انها عرفت بدهائها وقوة شخصيتها كيف تقاوم أطماع قياصرة الرومان فى وطنها .. الى حد انها تمكنت بسحرها وشخصيتها من اخضاع القادة الغزاة لتنقذ مصر من أطماعهم الاستعمارية .. بل كانت ترسم الخطط ، وتضع الوسائل لتجعل من روما التى فتحت العالم ولاية تابعة لمصر بدلا من أن تكون هى احدى ولايات روما .. !

وهكذا سجلت هذه الملكة الداهية كيف تلجأ المرأة الى كل الأساليب والوسائل من أجل وطنها وحياة شعبها ..

بل يكفينا دليلا على قوة « كليوباترة » فى الدفاع عن وطنها ان موتها كان نهاية عهد الحرية والاستقلال لمصر .. اذ ما كاد الميدان يخلو منها حتى تمكن الاحتـــلال الرومانى من السيطرة على بلد الفراعنة الذى كانت كليوباترة تحميه فلم يجد بعدها من يحميه .

تقديس المـــرأة

لم يقف تقدير الفراعنة للمرأة والاعتراف بكامل حقوقها عند حد رفعها الى العرش وتسليمها مقاليد الحكم وادارتها سياسة البلاد . بل لقد رفعوها الى مرتبة الالهية فى أساطيرهم وعبادتهم .. فقـــد سووها فى شخص الاله « مات » اله العدل .. وايزيس وهاتور .. ولايزيس أسطورة مشهورة تصور شخصية المرأة فى هذا العهد القديم ومكانتها فى قومها .. اذ يحكى عنها انها كانت زوجة الملك أوزيريس وكانت تشاركه فى حكم مصر وتحضير وتمدين البلاد .. ولكن أخاه (ست) يقتله غدرا ويستولى على العرش وينفى ايزيس وطفلها .. وهنا تبرز عزيمة هذه المرأة اذ تلجأ الى مستنقعات الدلتا وتعكف على تربية ابنها تربية عالية وتلقنه العـــلم ، والحكمة ، وأصول الحكم حتى يشتد ويكبر فيعود الى العاصمة ويسترد عرش أبيه الذى اغتصبه عمه ، وأما ايزيس فانها تمضى فى ذرف الدمع على زوجها وحبيبها الراحل الذى لم تجف دموعها عليه منذ غدر به أخوه وقتله .. وتظل ايزيس تبكى .. وتبكى حتى تحفر دموعها المنسابة مجرى تتدفق فيه المياه وتجرى نهرا عذبا يفيض بالخير على الوادى وهو نهر النيل الذى نسبه قوم ايزيس الى دموع وفائها على زوجها فضربوا بذلك أروع الأمثلة على تمجيدهم للمرأة واعتبارها مصدر الحياة والخير!

الإسلام محرر المرأة
من عبودية الرجل

« ستدخلون مصر ان شاء الله . فأوصيكم بقبطها خيرا فسيكون لكم منهم ذمة ونسب » بهذه العبارة الكريمة والتوجيه الانسانى السامى بشر الرسول عليه السلام العرب بدخول أرض الفراعنة وأوصاهم بأهلها ، وبارك اندماج العنصرين العربى والفرعونى لاستحداث نسل جديد تمتزج فيه الدماء العربية بالمصرية وتتمثل فيه أمجاد العرب وحضارة المصريين .. وهكذا كان النسب الذى تحدث عنه الرسول ولا يزال .. وصرنا نحن المصريين سلالة خليط أجناس أشرفها وأمجدها الفرعونية والعربية .. ومن هنا أصبح التعرض لتاريخ المرأة العربية أمرا لابد منه .

وتاريخ المرأة العربية يمر بمرحلتين هامتين حتى يتصل بتاريخ المرأة المصرية ويندمج فى حياتها على أرض النيل .. أما هاتان المرحلتان فهما يمثلان عصر الجاهلية وعصر الاسلام ..

المرأة العربيّة فى الجاهلية

قال أحد المؤرخين العالميين ان المرأة العربية كانت منذ قديم الزمان تتداول مع الرجل سياسة الأمة وولاية الأمر وتنظيم العمل وشئون الحياة، فى الوقت الذى كانت المرأة الرومانية فيه تدين بالعبادة للرجل وكانت تعبده من دون الله إلهاً قهارا ! !

ويصدق التاريخ على قول هذا المؤرخ الى حد كبير فى عديد من القصص التاريخية الشهيرة عن نساء عصر «ماقبل الاسلام» .. وقد تولت الكتب السماوية تقديم نساء ذلك العصر وقوة شخصياتهن التى تركت أعمق

الأثر فى حياة مجتمعهن وتاريخه .. ويضرب القرآن الكريم لنا أروع الأمثال فى هذا السبيل بقصة بلقيس ملكة اليمن العربية .. التى وصفت آياته الكريمة عرشها بقولها « وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم » .

وكانت بلقيس تحكم اليمن حكما ديمقراطيا قائما على الشورى برغم الثقة المطلقة التى كان قومها يضعونها فيها لما كانت تتحلى به من الحكمة والعدل والذكاء ، وقد تجلت حكمتها وديمقراطيتها عندما جمعت شعبها لتستفتيه رأيه ، وتطلب مشورته فى ردها على رسالة سليمان عليه السلام التى بعثها اليها يدعوها « ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » . فقد وقفت تخطب فى قومها قائلة « يا أيها الملأ افتونى فى أمرى — ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » فجاءها صوت أفراد شعبها يجمع على تفويضها للتصرف باسمهم واضعين أرواحهم رهن اشارتها قائلين: « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين » وكانوا رجالا أقوياء متحضرين أولئك الذين دعوها أن تأمرهم ليصدعوا فلم يرتفع من بين صفوفهم صوت رجل واحد يعترض على تفويض هذه المرأة للتصرف فى هـذا الأمر السياسى الخطير ولم يوجد بينهم من يعترض بأن تقاليد العرب تقف بين المرأة وسياسة بلادها ، فقد كان رجال العرب هم الذين رفعوها فى اعتزاز الى مقعد الحكم لأنهم كانوا على درجة كبيرة من الحضارة وارتفاع المستوى بالنسبة الى العصر الذى كانوا يعيشون فيه .. ونستطيع أن ندرك الأثر الذى تتركه ثقة الرجل فى نفس المرأة عندما نتابع قصة بلقيس لنرى كيف تصرفت فى هذا الموقف الدقيق وكيف كان اتجاهها .

لقد كان أول ما عناها هو التفكير فى تجنيب شعبها شر الحروب وهو الذى حملها أمانة حمايته والذود عن رفاهيته واستقراره . فعمدت الى اختبار نوايا سليمان أولا بأن أرسلت اليه رسلها بهدية ثمينة غالية ردا على رسالته لترى اذا كانت أغراضه فى بلادها مادية تهدف الى الربح وتقوم على الطمع .. أم أنها مجرد دعوة دينية تبشر برسالة روحية خالصة من الشر ، وكان هذا التصرف منها عين الحكمة ولا شك ، لأنها تمكنت بعد ذلك من أن تأمن جانب سليمان وتهتدى بالحق .فكانت بلقيس بذلك

تمثل أهم خواص المرأة السياسية عندما تضطلع بالخطير من المسئوليات، وتواجه الدقيق من المواقف التى تمكنها من اكتساح أشد العقبات فى تعقل وبصيرة فطرية سليمة ، واذا تركنا بلقيس ملكة اليمن التى اختبرت الأنبياء وخلدتها آيات القرآن ورفعت قدرها .. فاننا نجد أن بلقيس لم تكن أول سيدة تحكم فى الوطن العربى أيام الجاهلية .. فهناك أيضا زينب ملكة تدمر العربية التى نهضت بأعباء بلدها وأدارت سياسته وقادت حروبه ونجحت فى توسيع رقعته حتى امتد ما بين مجاهل أفريقيا ومعالم أنقرة أو قفز بفضل رعايتها وادارتها الى مصاف الدول القوية . وكانت تمتاز بشخصية قوية صلدة أهلتها للزعامة بين قومها وانتزاع التقدير من خصومها . ويحكى عنها أنها كانت تقود بنفسها المعارك الحربية التى يخوضها جيشها فتنزل الى الميدان كاملة الزينة باهرة الجمال ، ممتطية جوادها شارعة سيفها تتقدم الصفوف تستثير الهمم وتدير المعركة . فلا تعود الى بيتها حتى تطمئن الى سلامة رجالها وانتصار وطنها .. وزينب هذه كانت تسمى « بالزباء » نظرا لغزارة شعر حاجبيها وسعة عينيها وهما من علامات الجمال عند العرب . وهى أيضا صاحبة القول المأثور « بيدى لا بيد عمرو » عندما أيقنت من تآمر عمرو بن عدى على قتلها فى أخريات أيامها انتقاما منها لأسرها خاله ملك الحيرة فى احدى المواقع الحربية .

وهكذا أبت شجاعتها وكبرياؤها أن تعطى عدوها فخر قتلها بيده فآثرت قتل نفسها بيدها وهو ضرب من الأباء والشجاعة التى تميزت بها المرأة العربية ، وكانت من صميم تقاليدها !

واذا كانت هذه هى أمثلة تغلغل المرأة العربية فى حياة بلادها السياسية وممارستها حقوقها السياسية فى أوسع نطاق .. فان نشاطها فى مختلف مجالات الحياة العامة لم يكن يقل عن ذلك خلودا ومجدا .

وكانت البلاغة هى الظاهرة التى تميزت بها المرأة العربية عن نساء العالم جميعا وهى بلاغة فطرية أصيلة فى نفسها بسبب ظروف البيئة العربيه وطبيعة انطلاق الحياة البدوية .

والرواية التالية تبرز مدى بلاغة المرأة العربية واتساع أفقها الفكرى .

اختصم امرؤ القيس أمير شعراء العرب يوما مع منافسه فى دولة الأدب « علقمة الفحل » . واحتدمت بينهما المساجلة الشعرية ففكرا فى الاحتكام لعلامة أديب وقال علقمة انه يرتضى تحكيم أم جندب زوجة امرىء القيس فجلسا اليها حيث بدأ زوجها امرؤ القيس ينشد قصيدته التى مطلعها :

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

ورغم هذه الرشوة الغزلية التى حاول زوجها أن يستميل بها قلبها لتنصفه على غريمه فقد وجدت أم جندب فى نفسها الشجاعة الأدبية التى قضت بها بتغليب شعر علقمة على شعر زوجها .. ولم تكتف باصدار حكمها بذلك بل أيدته بحيثيات وتدليلات شعرية أدبية كانت فى ذاتها مثلا للبلاغة والتعمق وارهاف الحس . الى جانب ما سجلته بموقفها الصريح من شعر زوجها عن قوة الشخصية واستقلالها .

وبرغم اقتحام المرأة العربية لميادين السياسة والأدب وارتيادها الأسواق والخروج الى الحروب واعتلاء العروش فان أحدا فى قومها لم يتهمها بالانصراف عن تأدية رسالتها كاملة كأم وكزوجة . بل كان ينسب اليها فضل صنع أبطال العرب بتنشئتهم وتوجيههم وهذه نصيحة أم عربية لابنتها فى ليلة زفافها تدلنا على بلاغتها وحكمتها وتعمقها فى فهم الطبائع البشرية .. فاسمع وصية امرأة عوف الشيبانى الى ابنتها : —

أى بنية — ان الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو ان امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما اليها . كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال ..

« أى بنية » انك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى فيه درجت ، الى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه . فكونى له أمة يكن لك

عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع والطاعة. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك الا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه فان تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ورعاية حشمه وعياله .. الخ .

« واعلمى انك لا تبلغين ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت والله يخير لك » .

ولكن هل يعنى تفوق المرأة العربية فى كثير من الأحوال قبل الاسلام انها كانت تتمتع بحقوق شرعية تمارسها فى شكل قانونى معترف به ؟ كلا لم تكن للمرأة قبل الاسلام صفة قانونية لذلك فقد كانت تلجأ لاكتساب بعض حقوقها بفرض شخصيتها فرضا عن طريق النبوغ الذاتى وقوة العزيمة وفى بعض مجتمعات معينة . هى المجتمعات التى تكون قد بلغت حدا من التمدين ، يستسيغ ظهور المرأة وافساح المجال أمامها لاثبات جدارتها فى الميادين العامة دون التقيد بحدود تقاليد الجاهلية الرجعية التى كانت تطبق فى أضيق الحدود وفى المجتمعات العربية البدائية كما كان الى حد ما فى شبه جزيرة العرب قبل البعث الاسلامى . فقد كانت المرأة فيها تلعب دورها فى أهم وأدق شئون المجتمع ولكن من وراء ستار وبدون صفة شرعية . لذلك فقد كان مركزها الظاهر هو العبودية التى كانت تتخذ أشكالا متعددة ومتباينة تبعا للظروف والبيئة .

فى ذلك الزمن ، كان العالم يتطور من عصر العبودية الى عصر الاقطاع فكنوز العالم وخيراته لا تزال اذ ذاك بكرا لم تكتشف بعد ، وظروف الانتاج محدودة وشاقة ، لعل أيسرها الزرع والرعى والصيد ، وكلها أعباء يستطيع الرجل — بحكم قوته البدنية — أن يتولاها خيرا من المرأة ومعنى هذا أن يشترك الرجل فى الانتاج والاستهلاك ، بينما المرأة تستهلك فقط ولا تنتج .. الا أحيانا ، وفى أضيق الحدود .

ومعنى هذا ، ان الرجل كان يشعر بأن المرأة تعيش عيالا عليه ، وكان طبيعيا أن يؤدى خوفه من الفقر الى الاكتئاب كلما ولدت له زوجته أنثى .. أنثى تستهلك ولا تنتج !

فاذا أضفنا الى ذلك ، ان جمال ابنته قد يكون سببا فى غارة احدى القبائل الأقوى على أرضه ، ليتمكن سيد تلك القبيلة من ضم هذه الحسناء الجميلة الى نسائه أو جواريه .. اذا أضفنا هذا السبب الى السبب السابق ، أدركنا سر ما كانت تعانيه المرأة اذ ذاك من اضطهاد وما كانت تلقاه منذ طفولتها من الأب أو الأخ أو العم .. الخ . الذى يضيق ذرعا بنفقات طعامها .. انها فى نظره « متطفلة » لا حق لها — على الأقل — فى أن ترث من ماله شيئا !

وعبارة « على الأقل » لا نطلقها هنا جزافا ، فقد كان البعض من أولئك الآباء يتخلصون من بناتهم ، بمجرد ولادتهن ، بوأدهن أحياء !!

وبديهى ان مركز المرأة كان يختلف دائما باختلاف الظروف الاقتصادية حتى لقد كان للبعض منهن مكان الصدارة فى قبيلتها لما تمتاز به من قوة الشخصية وذكاء فطرى .

ومع ذلك فانها على وجه الاطلاق ، لم تظفر بحقوق قانونية يعترف بها المجتمع ، وهكذا ظلت بين عوامل التقدم والتأخر . تبعا لظروف البيئة واختلاف الفرص وهو ما لا يمكن معه وضع قاعدة ثابتة لتحديد مكانة المرأة قبل الاسلام سوى انها كانت قوية بالفطرة مستعبدة بتقاليد الجاهلية الوثنية . حتى جاء الاسلام . وكان أن استهدفت ثورته الاصلاحية انقاذ المرأة من هذا الوضع الشاذ المتناقض المهدر لآدميتها المجحف بحقها الطبيعى فى التساوى مع الرجال . لأنه وهو دين الحق والعدل والمساواة ماكان له أن يظلم المرأة — نصف الأمة — أو يتجاهل حقها الطبيعى فى أن يكون لها كل ما للرجل وهما من فصيلة بشرية واحدة كما أنهما على قدم المساواة أمام الله فى تأدية الفروض الدينية ، وأمام الوطن فى تأدية الالتزامات المالية والقضائية . فجاءت أحكام القرآن ونواهيه صريحة فى تأكيد حقوق المرأة

وفصلت السنة من أمر ذلك مالم يأت مفصلا فى القرآن الكريم. وبذلك رد الاسلام للمرأة حقوقها ، وسجل لها هذه الحقوق فى أول قوانين شرعية صريحة .

وكان انصاف الاسلام للمرأة بتقدير حقوقها والدفاع عن آدميتها وأهليتها يهدف الى غايتين ساميتين هما احقاق الحق الذى يقوم عليه منح هذه الحقوق لها من ناحية .. والعمل على رفع مستوى الأمة الاسلامية وحمايتها وتأكيد تحضرها عن طريق رفع مستوى المرأة المعنوى والقانون والأدبى من ناحية أخرى . فلم يكن غريبا أن يبادر الاسلام الى انقاذها من الهوان والاضطهاد فقضى بتحريم وأد البنات تحريما باتا كما جاء فى القرآن الكريم « واذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت » فحفظ لها بذلك انسانيتها ، ولم يكتف الاسلام بحماية آدميتها بل رفعها فورا الى مستوى الرجل اذ سوى بينهما فقال الرسول عنها فى حديث شريف « ان النساء شقائق الرجال » ونزلت آيات الله الكريمة فى تسجيل هذه المساواة وردها الى مصدرها الحقيقى الواقعى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » وهذه الآية كما هو واضح تضع لنا أساس هذه المساواة بين المرأة والرجل باعتبار ان انفصالهما من رحم واحد يؤكد تساويهما فى حمل نفس الخصائص الطبيعية التى تكون ذات كل منهما . ويعود القرآن الكريم فيدعو الى فرض احترام علاقة أخوية الرحم بينهما فى آية كريمة أخرى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » . وحكم الشريعة الاسلامية فى استقلال شخصية المرأة وتحررها من عبودية الرجل يقضى على فرية تبعيتها له وهو ما تقطع به الآية الكريمة « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . وهذا ولا شك هو المنطق السليم المتمشى مع طبيعة الأشياء . فكل نفس مسئولة عن ذاتها فى عملها ، متحكمة فى مصيرها ، متصرفة بارادتها ما دامت هى التى ستختص بالجزاء عما قدمت من أعمال . ولن يحمل غيرها وزرها ..

حقوق المرأة
في الإسلام

وأتحدث الآن بشيء من التفصيل عن حقوق المرأة فى الاسلام ووضوح هذا الحق غاية الوضوح ، وأنبه الى أن الضجة القائمة التى يصطنعها البعض والتى يزعمون معها أن الاسلام يقف من حقوق المرأة موقفا سلبيا ، لا صلة بينها وبين الاسلام وانما هى ضجة مفتعلة يتزعمها البعض باسم الدين وباسم الشريعة الاسلامية . والدين فى أصوله وفروعه ينصف المرأة ولا ينقصها حقا من حقوقها .

نعم . ليس عجيبا من الاسلام وهو دين العدالة والانصاف أن ينصف المرأة ويعترف بمكانتها ومنزلتها ويوفر لها ما تنشده من حياة كريمة عزيزة .

وهذا كلام لا ألقيه على عواهنه . وانما أسوقه مؤيدا بالأسانيد الشرعية القوية التى تنطق فى وضوح وصراحة بما كفله الاسلام للمرأة من حقوق.

تحديد الزواج وتقييد الطلاق

ونحن ننادى بالتزام ما جاء فى كتاب الله تعالى وشريعة الاسلام الزاهرة من تحديد الزواج وتقييد الطلاق . ونحن حينما ننادى بهذا ننادى به لأنه دين الله وشرعه أولا . وننادى به وقاية للمجتمعات الاسلامية من الانهيار ثانيا . وننادى به على أنه حق للمرأة ثالثا . وننادى به لأنه دفاع عن الاسلام وتعاليمه فى نظر من لم يدرسوه من الغربيين رابعا .

ولكن خصوم المرأة الذين دأبوا على محاربتها أبوا أن يسلموا بأن الاسلام يوجه الى تحديد الزواج ويحسنه والى تقييد الطلاق ويزينه وقالوا ان الاسلام لا يوجه الى هذا أو ذاك .

والفيصل بيننا وبينهم فيما يزعمون . هو كتاب الله الكريم وسنة نبيه الكريم . وهما أساس الدين ومصدر التشريع .

فالقرآن الكريم فيما يتعلق بأمر تعدد الزوجات يقول « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » (١) ويقول فى آية أخرى من هذه السورة أيضا « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » (٢) .

* * *

والناظر فى هاتين الآيتين من ناحية ظاهرهما يفهم أنهما تهدفان الى الآتى : —

١ — أن تعدد الزوجات ليس فرضا ولا واجبا فى الدين .

٢ — أن التعدد لا يكون الا عند أمن الخوف من عدم العدل .

٣ — للتعدد تبعات جسيمة أقلها ما أشار اليه القرآن من ثقل تكاليف الحياة والأعباء بكثرة العيال .

٤ — أن العدل غير مستطاع « وان كان بعض الفقهاء والمفسرين يذهبون الى أن المراد بالعدل غير المستطاع هنا هو العدل فى المحبة والمنزلة القلبية . أما العدل فى الحقوق والواجبات بين الزوجات فانه ممكن ومستطاع » .

* * *

هذا ما يستفاد من ظاهر النص فى الآيتين ومع وضوحه فى التضييق فى أمر التعدد والحث على تركه الا أن بعض الفقهاء يرون أن التعدد مباح الى أربع بشرط أمن الخوف من الجور أو عدم العدل . ولا يعلقون كبير أهمية على تحقق هذا الشرط ولا يسألون كيف يتحقق ، ولم يقولوا بصراحة رأيهم ، ما هو الحكم فى التعدد عند عدم تحقق هذا الشرط الذى

---

(١) الآية الثانية فى سورة النساء .

(٢) الآية ١٢٩ فى سورة النساء .

ربط القرآن اباحة التعدد . مع أنهم فى غير هذا الموضع يكثرون من القول فى التفصيل ويبحثون عن الحكم اذا لم يتحقق الشرط الذى اقترن بأمر ما من المباحات .

ولندع هذا الفريق من الفقهاء عند موقفهم الذى ارتضوه لأنفسهم وظلّوا عنده لنرى موقف غيرهم من المدركين لأسرار التشريع والباحثين فيما وراء النص .

وهؤلاء يفهمون من الآيتين أن التعدد محرم عند احتمال الظلم والظلم فى التعدد لا مفر من وقوعه خصوصا فى عصرنا الحاضر ووقتنا الراهن الذى كثرت فيه مشاغل الناس بحياتهم وضعف سلطان الدين على الناس جملة من الأسباب لا مجال هنا لتفصيلها .

ومن هنا نظر هؤلاء الفقهاء الى التعدد كأنه ضرورة من الضرورات التى تباح للمضطر ويغتفر فى هذه الحالة ما فيه من ظلم محقق ما لا يغتفر فى غيرها من الحالات التى لم تدع اليها ضرورة ولم تلجىء اليها الظروف.

وهذا الرأى نادى به كثير من المجتهدين والفقهاء والعلماء الأعلام فالامام محمد عبده يقول فى تفسير هاتين الآيتين[1] :

« ان من تأمل الآيتين علم ان اباحة تعدد الزوجات فى الاسلام أمر مضيق فيه أشد الضيق كأنه ضرورة من الضرورات التى تباح لمحتاجها بشرط الثقة باقامة العدل والأمن من الجور ، واذا تأمل المتأمل مع هذا التضيق ما يترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربى أمة نشأ فيها تعدد الزوجات فان البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد لا يستقيم له حال ، ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على افساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر يجىء الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد الى البيوت ومن البيوت الى الأمة » .

---

(١) الجزء الرابع من تفسير المنار .. تفسير سورة النساء .

ويمضى الامام محمد عبده الى أن يقول : « أما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل الى تربية الأمة مع نشر تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة — خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم — فهم لا ينكرون ان الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وان من أصوله منع الضرر والضرار فاذا ترتب على شىء مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة . وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل ».

وما ذهب اليه الامام محمد عبده نادى به المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر الأسبق بل أكثر من ذلك أعد مشروع قانون فى هذا الشأن نادى به لوضع حد لتعدد الزوجات .

وذهب الى هذا الرأى أيضا المغفور له فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر الأسبق . وفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر الأسبق وفضيلة الشيخ علام نصار وأيدهم فى هذا الاتجاه جمهرة كبيرة من رجال الدين والفقه والاجتماع . وتجد آراءهم مبسوطة فى ملف الأسرة المودع بوزارة الشئون الاجتماعية .

* * *

ومع سلامة موقفهم واتفاق ما ذهبوا اليه مع روح الاسلام وأسراره فلنفترض مع المفترضين أن الدين يأبى التحديد فى الزواج ويبيح التعدد الى أربع كما يرون .

نفترض هذا ونتساءل : أليس من حق ولى الأمر أن يقيد مباحا من المباحات أو يمنع منه اذا اقتضت المصلحة ذلك ودعت الحاجة اليه . أو أن هذا يكون بدعا فى الدين وخروجا على أحكامه ؟

الواقع أن هذا لا يكون بدعا فى الدين ولا منافيا لشىء من أحكامه بل هذا هو ما جرى عليه العمل فى عصر الخلفاء الراشدين وعصور الاسلام الزاهية . ونجد هذا واضحا فى أعمالهم .

والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر حذيفة بن اليمان أن يطلق زوجته اليهودية وكان قد تزوج بها فى المدائن .

ومع أن الزواج بالكتابيات مباح وجائز بنص القرآن الا أن عمر رضى الله عنه رأى أن المصلحة لا تتفق مع هذا الزواج فأمر بفصم عراه . وذلك لأن حذيفة كان أميرا يقود الجيوش وخشى عمر عليه أن تقاسمه حياته امرأة غير مسلمة قد تنقل أسراره وأسرار المسلمين الى الأعداء فأمره بتسريح هذه الزوجة .

أليس عمر فى هذا قد قيد مباحا من المباحات التى أباحها الاسلام وهل بتصرفه هذا يقال عنه أنه خالف تعاليم الدين أو أنه استعمل حقا له كولى للمسلمين فى تقييد مباح دعت المصلحة اليه .

ومثل آخر غير بعيد عنا وهو عدم سماع دعوى الزوجية أمام المحاكم بدون وثيقة الزواج الشرعية .

فهذا أمر لم يكن منصوصا عليه فى الدين فالزواج فى العصور الأولى كان يكفى فيه مجرد العقد الشفوى وشهادة الشاهدين لكن لما كثرت دعاوى الزوجية أمام المحاكم وحار القضاء فى أمرها قيد ولى الأمر الزواج بضرورة اثباته فى وثيقة رسمية على يد مأذون ولا تسمع دعوى الزوجية أمام المحاكم بدون هذه الوثيقة .

أفليس هذا تقييدا لمباح من المباحات دعت اليه المصلحة وألجأت اليه الضرورة وكان ذلك لمصلحة عامة للمسلمين .

ان الأمثلة كثيرة على اعطاء الحق لولى الأمر فى تقييد المباحات أو منعها لمصلحة الأمة الاسلامية .

وهل ينكر أحد اليوم مساوىء تعدد الزوجات لغير ما حاجة ملجئة وهل ينكر أحد اليوم ما ينجم عن هذا التعدد من آثار سيئة لا تعود على الزوج وزوجاته وحدهم وانما يعود شرها على الأسرة والمجتمع كله .

أعتقد أنه لاينكر هذا الا جاحد أو معاند فكم من أسرة كانت سعيدة تحطمت بسبب تعدد الزوجات وتشتت أفرادها واضطربت أمورها .

أفلا تجيز هذه الحالة لولى الأمر أن يقيد الزواج اذا كانت مصلحة الأمـة فى هذا التقييد على فرض أنه مبـاح بلا قيد ولا شرط كما يزعم البعض .

وأظن أنه هنا أولى وألف أولى أن يكون ذلك التقييد أمرا لا بد منه ومصلحة لابد منها لأن التعدد اقترن به من الشروط ما يجعله كالمحظور أو كالمحرم فيما سبق أن فصلناه .

***

والحق الذى لا مراء فيه أن الشريعة الاسلامية شريعة سمحة قائمة على رعاية المصلحة ومن أهـم قواعدها فى التشريع قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » ومن أجل ذلك ننادى ولاة الأمور بسرعة انجاز تشريع تحديد الزواج — حتى على فرض أن التعدد مباح — اقامة لحدود الله وحفظا لكيان المجتمعات الاسلامية ورحمة بالأبناء الذين يحرمون رعاية الآباء بانصرافهم عن تربيتهم والعناية بهم . واعدادهم للحياة ، الى ملذاتهم واشباع رغباتهم فى الزواج والتنقل بين النساء . فالزواج ليس متعـة فقط كما يظن البعض وانما هو شركة فى الحياة وتعاون وتضافر لانشاء أسرة سليمة بالمعنى الذى أشار اليه القرآن الكريم اذ قال جل شأنه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

***

هذا هو ما يوجه اليه الدين وما يدعو اليه الاسلام فى أمر تعدد الزوجات . وفى أثناء رحلتى الأخيرة دعوت الى هذا وطالبت الحكومات الاسلامية بالعمل على تحقيق هذا الاتجاه وألقيت محاضرات وعقدت ندوات صحفية فى هذا الشأن لقيت كل تأييد واقتناع بضرورة تنفيذ التشريعات التى تستمد أحكامها من سماحة الاسلام وتعاليمه الحيـة

ووعدت سيدات الاسلام فى كل من هاتيك البلاد بمواصلة السعى لدى الحكومات حتى تتحقق هذه التشريعات التى تصون كرامة المرأة الاسلامية أمام المجتمعات الأجنبية وتنفى عن الاسلام ما يلصق به ظلما من تهم لا صلة لها من قريب أو بعيد بتعاليمه السمحة ودعوته الكريمة لخير الانسانية .

وفى باكستان بالذات قامت ضجة حول آرائى فى حظر تعدد الزوجات اذ ما كدت أعلن هذه الآراء وأنادى بها حتى حظيت بالتأييد التام من سيدات هذا المجتمع ومن الطبقات المفكرة فيه ومن الرأى العام هناك بصورة واضحة عدا طبقة واحدة عارضت آرائى لغرض فى نفسها أسفرت عنه الأيام فيما بعد ، وهذه الطبقة هى طبقة العلماء وكان هدفها من معارضتى الانتصار لرئيس الوزراء هناك السيد محمد على فيما يهدف اليه من الاقتران بسكرتيرته على زوجته وقد تم هذا الزواج وباركه هؤلاء السادة الأعلام فى الوقت الذى استنكرته طوائف باكستان وقابلته بعاصفة قوية من الاحتجاج العنيف .

***

وقد أمعن السادة علماء باكستان فى تبرير تصرف رئيس وزرائهم فأصدر رئيسهم السيد محمد عبد الحامد البدايونى فتوى طبعها فى كتاب يرد فيها على وتفضل فحبانى بكثير من الأوصاف والنعوت كانت هى كل أسانيده — مع الأسف الشديد — فى الرد .

وفى أثناء زيارته لمصر فى نهاية هذا الشتاء قام بتوزيع هذه الفتوى وتيسر لى بطريق الصدفة المحض الاطلاع على فحواها وفى الحال كتبت ردا عليه وزعته على جميع أنحاء العالم الاسلامى وفيما يلى نص هذا الرد :

الرد على رئيس علماء باكستان

فى مشكلة تعدّد الزوجات

وزع وفد علماء الباكستان أثناء زيارته لمصر أخيرا رسالة صغيرة كتبها سماحة السيد محمد عبد الحامد القادرى البدايونى رئيس جمعية علماء باكستان ورئيس وفد علمائها الى مصر ، والرسالة عنوانها (درية شفيق وتعدد الزوجات) وقد تيسر لى الاطلاع على هذه الرسالة بطريق الصدفة المحض فوجدتها تضم بحثين هما فتوى من رئيس جمعية العلماء ومقال للسيد عبد الحميد الخطيب السفير السعودى هناك والفتوى والمقال كانا للرد على محاضراتى فى باكستان التى طالبت فيها باصدار تشريعات فى البلاد الاسلامية تتفق مع شريعة الاسلام ومقاصدها فى عدم اباحة تعدد الزوجات الا لضرورة ملحة لا لمجرد الزواج فى ذاته رعاية للأسر واقامة لصرح مجتمع قوى سليم .

وانى حينما قلت هذا وناديت وأنادى به — لم أخرج عما يتفق وسماحة الشريعة الاسلامية وروح التشريع الاسلامى فى شىء بل ان ما ناديت به سبقنى اليه كثير من الفقهاء والمجتهدين من المتقدمين والمتأخرين وفى القرآن الكريم آيتان خاصتان بتعدد الزوجات هما قوله تعالى « وان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » . والآية الثانية هى قوله تعالى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

قال الامام محمد عبده فى تفسير المنار « ان من تأمل الآيتين علم ان اباحة تعدد الزوجات فى الاسلام أمر مضيق فيه أشد الضيق كأنه ضرورة

من الضرورات التى تباح لمحتاجها بشرط الثقة باقامة العدل والأمن من الجور ، واذا تأمل المتأمل مع هذا التضييق ما يترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربى أمة نشأ فيها تعدد الزوجات فان البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد لا يستقيم له حال ، ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على افساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ، يجىء الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد الى البيوت ومن البيوت الى الأمة » .

ويمضى الامام محمد عبده الى أن يقول : « أما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل الى تربية الأمة مع نشر تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة — خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم — فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وان من أصوله منع الضرر والضرار فاذا ترتب على شىء مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة . وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل » .

هذا ما قاله الامام محمد عبــده فى تعدد الزوجات ومتى يكون ومتى لا يكون ..

ويضيق بى المقام فى هذه العجالة لو ذكرت رأى غيره من العلماء الذين نهجوا هذا النهج وسلكوا هذا السبيل ولكنى أوجه النظر الى ما استقر عليه رأى كثير من نوابغ العلماء والفقهاء اذ قالوا « ان المصلحة هى أساس التشريع والوقوف عند ظواهر النصوص ليس الا نوعا من الجمود يمقته الاسلام ولا يرضاه » وامتدحوا مسلك الخليفة عمر بن الخطاب فى تقدير المصلحة وحدها دون التمسك بظواهر النصوص حتى انه منع صرف شىء للمؤلفة قلوبهم من الزكاة وان كان القرآن قد جعل لهم نصيبا فيها لأن الحكمة من اعطائهم هذا النصيب قد انتهت بعــز الاسلام ومنعته ولم يعد فى حاجة الى هذا النوع من الناس .

على هذا النحو وهذا المسلك الواضح فى التشريع جرى عمل الصحابة وكبار المجتهدين حتى ابتلى الفقه الاسلامى بعصور التأخر فقعدت الهمم عن البحث والتزم العلماء التقليد والوقوف عند ظواهر النصوص واهمال روح التشريع والصالح العام .

ومما لا شك فيه أن التعدد قد أصبح الآن فاشيا لغير ضرورة ملحة والضرر المترتب على هذا التعدد الآن لا تلحق آثاره بالزوجين وحدهما ولكنه يتعداهما الى الأولاد والبيئة والمجتمع ومشكلة الأطفال المشردين التى يضيق بها المصلحون ليست الا أحد الآثار السيئة لتعدد الزوجات وما مشكلات الأسرة فى غالبها الا أحد الآثار السيئة لتعدد الزوجات . أليس فى كل ذلك ضرر محقق وضربة قاصمة للمجتمعات الاسلامية التى تسعى للنهوض مما أصابها ؟!.

ان ما أنادى به اليوم وأسعى لتحقيقه ليس من ابتكارى وانما هو روح التشريع وحكمته نادى به من قبلى جلة العلماء والفقهاء وانه من الظلم لهذا الدين السمح وشريعة الاسلام الغراء التى حبت المرأة بكل توقير وتكريم أقول انه من الظلم بقاء هذه الأوضاع على ما هى عليه دون اصلاح وتنظيم .

وحرصا على سمعة الاسلام أمام خصومه وأعدائه ومنعا للفساد المتفشى المترتب على تعدد الزوجات ناديت وما زالت أنادى المسئولين فى كل بلد اسلامى باصدار تشريع عاجل بمنع تعدد الزوجات لغير ضرورة ملحة يقدرها المختصون بتنفيذ هذا التشريع من رجال الفقه والاجتماع تمشيا مع روح الشريعة الغراء ومحافظة على كرامة المرأة الاسلامية وحفظا لكيان الأسر المسلمة من هذا الانهيار وبقاء على وحدة المجتمعات الاسلامية قوية سليمة من كل ما يهدم كيانها ويقوض بنيانها .

درية شفيق

تأييد من مولانا أبى الكلام آزاد
فى مشكلة تعدّد الزوجات

وقد تلقيت من جميع البلاد الاسلامية كتبا لتأييد ردى على حملة جمعية علماء باكستان التى ظهر فيما بعد انها لم تكن حملة بريئة لصالح الاسلام أو دفاعا عن دعوته وانما كانت مجاملة لرئيس الوزراء وستر موقفه .

ويضيق بى المقام لو نشرت هذه الرسائل ويكفينى فى هذا المقام أن أنشر هذا الكتاب الذى تلقيته من مولانا « أبو الكلام آزاد » أحد علماء الاسلام الأعلام ووزير المعارف بالهند وصاحب ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الأردية قال حفظه الله : —

« لقد اتفقت كل الاتفاق أراؤك ضد تعدد الزوجات مع روح الاسلام السمحة .. ان هؤلاء الذين يبيحون تعدد الزوجات بلا قيد ولا شرط اما انهم جهلاء بتعاليم الاسلام ، واما انهم يريدون عمدا من وراء ذلك تحريف هذه التعاليم » .

***

وان موقف هذا الرجل الفاضل وأمثاله من رجالات الاسلام فى كل بلد ليحفزنى على مواصلة سعيى وكفاحى لتحقيق مطالب المرأة العادلة التى كفلها الاسلام وحاولت تشويهها وطمس معالمها الغايات الشخصية وجمود المتزمتين .

***

الطلاق :

اذا وضح الرأى بالنسبة لتحديد الزواج فان الأمر بالنسبة لتقييد الطلاق أشد وضوحا وأكثر بيانا .

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يخرج منهما بأن الطلاق لم يشرع ليعبث الأزواج به كما يفهم بعض العامة ويذهب اليه بعض الفقهاء ولكنه شرع مبغضا فيه ليكون وسيلة لفصم عرى الحياة الزوجية عن استنفاد كل الوسائل فى اصلاح ما بين الزوجين وانهاء ما بينهما من شقاق .

يؤكد هذا كل التأكيد ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب من الذين لم يحسنوا فهم ما شرع الطلاق من أجله فقد روى أبو موسى الأشعرى أنه عليه الصلاة والسلام قال « ما بال أحدكم يلعب بحدود الله . يقول قد طلقت قد راجعت » . وانه عليه الصلاة والسلام سمع أن رجلا طلق زوجته بغير ما أحل الله فقام مغضبا وقال « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » وقال عليه الصلاة والسلام أيضا « تزوجوا ولا تطلقوا فان الله لا يحب الذواقين والذواقات » .

***

أظن بعد هذا البيان من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضيح الحكمة فى شرعة الطلاق لا يحق لأحد أن يعارض فى ضرورة تقييد الطلاق والقضاء على الفوضى المتفشية الآن من اساءة استعمال هذا المباح « الطلاق » حتى أصبح خطرا على المجتمع وآفة من الآفات الفتاكة فى تقويض دعائمه وهدم كيانه .

وأليس من صالح الاسلام نفسه اليوم العمل على العود بالطلاق الى ما شرع من أجله وألا يقبل وقوع الطلاق من الزوج حتى يبدى عن الأسباب ما يقنع القاضى فيوافقه على ايقاعه أو لا يقتنع بما قدمه الزوج

من أسباب فيعظه بامساك زوجه عليه كما فعل الرسول مع زيد بن حارثة حينما جاءه يعرض عليه طلاق زينب بنت جحش فيقول له أمسك عليك زوجك واتق الله .

* * *

ان الطلاق فى الأمم المتحضرة الآن مأخوذ فى أصله من الشريعة الاسلامية لأن دياناتهم لا تبيح الطلاق ومع ذلك فان الزوج لا يوقعه بنفسه بل لابد أن يرفع الأمر الى القضاء ويثبت أمامه البواعث التى يقتنع بها القاضى حتى يوافقه على ايقاعه .

* * *

ونحن اذ نطالب بتقييد الطلاق وعدم قبوله الا أمام القاضى لا نخالف فى هذا تعاليم الاسلام ولا نحدث حدثا فى الدين وانما نطالب بتطبيق تعاليم الاسلام فيما يهدف اليه من منع الفوضى فى وقوع الطلاق والحرص على أن يكون سبيلا لانهاء الخلافات الزوجية لا أن يكون عبثا بالحياة الزوجية .

* * *

بيت الطاعة :

وقد تفتقت أذهان الفقهاء فى القرون المتأخرة عما يسمونه « بيت الطاعة » فأعطوا للأزواج بهذا التصرف سيفا مصلتا يستذلون به المرأة ويخرجون به الحياة الزوجية التى وصفها القرآن بأنها مودة وتراحم الى حياة العبودية والرق وامتهان الانسانية الى أبعد الحدود فى نصف المجتمعات الاسلامية .

والاسلام فى أيامه الأولى وعصوره الزاهرة لم يعرف شيئا اسمه بيت الطاعة ولم يكن له وجود فى تلك العصور ولكنه وليد العهد التركى الذى كان ينظر الى المرأة على أنها كم مهمل فى الحياة ومجرد متاع ولهو.

وبقى هذا التقنين عندنا أثرا لهذا العهد البغيض الذى أفسد حياة الأمم الاسلامية وخيم عليها حينا من الزمان وصور حضارة الاسلام على أنها حياة رجعية تسلب المرأة كل حق لها فى الحياة .

ولا يليق بنا أبدا وقد تخلصنا من هذا العهد البغيض أن تبقى آثاره جاثمة على صدورنا آخذة بخناقنا الى اليوم .

وان الواجب اليوم أن نعيد النظر فى هذا الوضع الشاذ وأن نسارع الى تقويم الحياة الزوجية على ضوء تعاليم الاسلام التى لا تبخس المرأة حقها ولا تهضم حقوق الزوج وضعا للأمور فى نصابها ورعاية لعدالة الاسلام واعطاء كل ذى حق حقه من الزوجين لأن هناك أزواجا فى الحياة لا هم لهم الا الالتجاء الى طلب زوجاتهم الى «بيت الطاعة» لكى يصلوا من وراء ذلك الى تنازل زوجاتهم عن حق النفقة والسكن والكسوة عند الانفصال وعدم استطاعة اعادة الوئام بين الزوجين .

لابد من البحث عن وسيلة أخرى غير « بيت الطاعة » تحقق المودة والرحمة المنشودة فى الحياة الزوجية ولا خير فى حياة زوجية لا تكون الرحمة والوئام والاخلاص المتبادل رائدها ..

اختيار الزوج :

ومن الحقوق التى كفلها الاسلام للمرأة حرية اختيار الزوج فلا يجوز اجبار المرأة بكرا كانت أو سيدة على التزوج بمن لا ترضاه ومن لا تختاره شريكا لها فى حياتها .

فقد حدث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن جاءت فتاة اليه تبلغه أن أباها قد اختار لها ابن أخيه لتتزوجه دون أن يأخذ رأيها فى هذا الاختيار فغضب الرسول لذلك وفوضها أن ترد هذا الزواج ما دامت لم تستأذن فيه ، ولكن الفتاة ردت قائلة فى انتصار لقد أجزت أبى فى اختياره ، ولكنى فقط أردت أن أعلم الناس أن ليس للآباء من الأمر شىء.

وقد خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبى بكر الى أختها السيدة عائشة أم المؤمنين فلما فاتحت أختها فى هذا الأمر قالت لا حاجة لى فيه . ولما قالت لها أترغبين عن أمير المؤمنين قالت :

نعم . انه خشن العيش شديد على النساء ولم تقبل التزوج منه وهو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين .

ومن التقاليد التى كانت جارية فى الجاهلية المضاربة بالمهور على صورة أشبه ما تكون بعقد صفقات البيع والشراء فلم تكن المرأة فى نظرهم الا سلعة تعرض فى مزاد فجاء الاسلام ليمحو عنها هذه الوصمة التى تهدر آدميتها وتؤذى انسانيتها فحدد معنى المهور بأنها لا تعدو هدية زوج الى عروس ورمزا معنويا قبل أن يكون ماديا لأقدس ما يقوم بين البشر من علاقات وارتباطات وهى علاقة الزواج ورباطها الروحى ، وفى ذلك قال الرسول وهو يضع للمسلمين مبدأ تقليد مهر الزوجة « خير الصداق أيسره » وكان عليه السلام يضرب فى ذلك الأمثال لقومه بقصة رميصاء التى جاءها أبو طلحة فتى العرب الثرى يطلب يدها ولكنها رفضت الزواج منه لأنه ما زال على كفره بينما هى سبقت الى الاسلام ولما ألح عليها اشترطت لقبوله أن يكون مهرها هو كلمة التوحيد والشهادة بين يدى رسول الله .. فكان اسلامه هو المهر الذى عقد عليها به وباركه الرسول ودعا الى الاحتذاء به أى أن لا يخرج المهر عن كونه رمزا معنويا . وكان عليه السلام يقول كلما قل مهر الفتاة زاد قدرها . وهو يهدف بذلك الى اخراج المرأة من الرق الذى كانت تسام فيه قبل الاسلام باسم المهر والزواج .

الحضانة :

ومن المشاكل التى فى حاجة الى علاج سريع مشكلة الحضانة فالشريعة الاسلامية والحمد لله تحل هذه المشكلة حلا عادلا يحقق كل ما نرجوه لحلها ، فالأئمة والفقهاء يتفقون جميعا على أن حضانة الصغير لأمه ولكن المشكلة تنجم عن السن التى تنتهى فيها حضانة الأم للصغير والعمل يجرى

الآن فى قانون المحاكم الشرعية فى هذا الشأن وفق المذهب الحنفى وهو يجعل حضانة الأم للصغير تنتهى عند سبع سنوات اذا كان ذكرا وتسع سنوات اذا كانت الصغيرة أنثى .

ومن هذا تبدأ المشكلة فالصغير فى هذه السن شديد التعلق بأمه لا يقوى على فراقها مهما تكن الدوافع والأسباب وهو فى هذه السن أيضا أحوج ما يكون لعطف أمه وحدبها وشفقتها وانتزاعه من بين أحضانها فى هذه الآونة ليسلم الى أبيه يسبب له صدمة قوية قد تؤثر على كيانه وأعصابه خصوصا وأن أباه ليس لديه من الوقت الكافى الذى يتوافر فيه على العناية بكل شئون الصغير كما تتوافر عليها الأم .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان الوالد يتسلم الصغير من أمه الحنون ليدفع به الى زوجته التى لا يعنيها من أمر الصغير شىء بل ربما بحكم كراهيتها لضرتها أو للزوجة الأخرى تتفنن فى ايذاء الصغير والانتقام منه فى شخص أمه أو على الأقل تهمل شئونه كل الاهمال ولا يستطيع أن يشكو لوالده شيئا من هذا الاهمال خوفا من غضب زوجة أبيه . فضلا عن أن أمه لا يهدأ لها بال ولا يغمض لها جفن شفقة على صغيرها الذى قد لا تدرى عنه شيئا منذ انتزاعه من أحضانها .

يحدث هذا باسم الدين ، باسم الشريعة الاسلامية ، والاسلام من كل ذلك براء فالفقهاء يختلفون فى السن التى تنتهى عندها حضانة الأم لابنها الصغير وكما يذهب الحنفية الى تقدير هذه السن لسبع سنوات وتسع سنوات فان غيرهم يذهب الى رفعها وغيرهم يذهب الى أن يظل الصبى فى حضانة أمه حتى سن البلوغ وفى مذهب مالك تبقى البنت فى حضانة أمها حتى تتزوج وهذا الرأى معمول به فى السودان .

والمعول عليه فى هذا الموضوع — موضوع الحضانة — هو مصلحة الصبى وابقاؤه فى أحضان أمه الى أن يصل الى درجة الفهم والادراك والاستقلال بشئون نفسه فهل الطفل الذى فى السابعة من عمره والبنت التى فى التاسعة من عمرها يقال انهما قد وصلا الى هذه المرتبة .؟

لا يمكن أن يقال ذلك ولا يقره عقل سليم وفهم مستقيم والمصلحة التى ينشدها الاسلام لا تتحقق أبدا مع بقاء هذا الوضع الذى يضر الأبناء والأمهات ويجر معه كثيرا من المشاكل والمتاعب التى لا داعى ولا مبرر لها .

وما دام لدينا من أقوال الفقهاء الآخرين متسع للقضاء على هذه المشكلة والآثار الناجمة عنها . فاننا نطالب المسئولين بتعديل سن الحضانة بحيث لا يحرم الطفل من حنان أمه وهو من أهم العوامل فى تربية الأطفال ان لم يكن أهمها .

وبهذا نقضى على مشكلة من أخطر المشاكل فى حياتنا الاجتماعية وتتلافى آثارها السيئة وأخطاؤها العديدة ولا نحرم الأبناء عطف الأمهات وحنانهن وحتى لا نصدمهم فى عواطفهم صدمة عنيفة وهم فى مقتبل العمر وبداية الحياة .

حقوق المرأة السياسية :

وكما نرى موقف الاسلام الكريم من تأييد المرأة فى المساواة بالرجال والحقوق الأخرى المشتركة بينهم نراه لا يمنع المرأة من التمتع بحقها السياسى والاشتراك فى الانتخابات ودخول البرلمان .

والذين يناهضون اعطاء المرأة هذا الحق لا يستندون الى سند من الدين ولكنهم يفسرون الدين على هواهم ووفق ميولهم كما يشاءون . كما حدث مثلا عند اباحة التعليم الجامعى للمرأة نهضوا يقاومون هذا الاتجاه ويحرمون عليها أن تنال قسطها من الثقافة وحظها من التعليم وكل هذه الضجة أحدثوها باسم الدين والدين منها براء .

ونصوص الاسلام نفسه ليس فيها نص واحد يمنع المرأة من مزاولة حقوقها السياسية بل الذى حدث كان عكس ما ينادون به من أن الاسلام يمنع المرأة من التمتع بحقوقها السياسية . ففى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان النساء يخرجن فى الغزوات يقمن على خدمة المرضى

ويشتركن فى القتال . فقد جاءت امرأة أبى ذر الغفارى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار فقلن يا رسول الله فقد أردنا أن نخرج معك — وكان الرسول يتأهب لغزوة خيبر — نداوى الجرحى ونعين المسلمين بما نستطيع . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم على بركة الله وخرجن معه .

ولما انتهت الغزوة أعطاهن الرسول صلى الله عليه وسلم من الفىء « الغنيمة » . وزاد رسول الله فى تكريم امرأة أبى ذر بأن أعطاها قلادة وضعها بيده الشريفة حول عنقها تكريما لموقفها وبلائها .

كان هذا أول وسام لامرأة مجاهدة فى الاسلام .

وفى موقعة أحد دافعت أم عمارة بسيفها وبقوسها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جرحت .

وفيما رواه الامـام الحافظ بن حجر فى شرحه على البخارى أن أم عطية قالت سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « يخرج العواتق وذوات الخدور وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين (١) » .

أفليس هذا دليلا أبلغ دليل على أن الاسلام أباح للمرأة مزاولة حقوقها السياسية واستعمالها دون اعتراض عليها .

ان الاسلام لا يمنع أن تكون المرأة ناخبة ونائبة . وقد زعم البعض ان هذا نوع من الولاية كما زعموا أن الولاية لا تكون الا للرجال وقد أباح بعض الفقهاء الأعلام للمرأة أن تتولى القضاء كما ذهب بن جرير الطبرى وكما ذهب الامام أبو حنيفة وفقهاء مذهبه فقد جاء فى شرح العناية على الهداية فى مذهب الحنفية فى الجـزء الخامس صفحة ٤٨٥ « أن قضاء المرأة جائز عندنا فى كل شىء الا فى الحدود والقصاص اعتبارا بشهادتها » .

---

(١) العواتق — جمع عاتق وهى البنت البالغة التى تستحق الزواج أو الكريمة الأصل .

فاذا جاز للمرأة أن تلى القضاء فى مختلف الشئون . فى المال وفى الزواج وفى الطلاق وفى القسمة وفى غير ذلك مما أباحه لها الفقهاء أخذا من نصوص الدين أفلا يجوز لها أن تستعمل حقها فى اعطاء صوتها فى الانتخابات وفى اختيار من يمثلها فى البرلمان وفى جواز آن تكون نائبة تنادى بالاصلاح تحت قبة البرلمان ؟

* * *

ان الأحاديث الصحيحة كلها متضافرة على جواز خروج المرأة من بيتها لقضاء مصالحها وكسب رزقها من عمل شريف وان من حقها أن تشهد المواقع الحربية وأن تصلى العيدين والجمعة والأوقات المفروضة فى المسجد وأن تكون ناظرة ووصية وأنها تشهد الخير ودعوة المؤمنين .

فهل يجوز بعد هذا البيان من الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقائل أن يقول ان الدين يمنع المرأة من استعمال حقها فى الانتخاب والنيابة عن الأمة .

ان الذين ينادون بحرمان المرأة من هذا الحق انما يظلمون الدين ويقسون على أنفسهم باتتحال شتى الأسباب والمعاذير لتأييد رأيهم والانتصار له . غير أنهم لم يذكروا دليلا واحدا يستندون اليه من الدين سوى الحديث الذى يرددونه وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم حينما ولى أهل فارس عليهم بنت كسرى « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » وأين هذا مما نحن فيه ..؟

ويقول الذين يعارضون فى مزاولة المرأة لحقوقها السياسية ان هذا نوع من الولاية العامة وليس فى مصدرى الشريعة الاسلامية « الكتاب والسنة » أى دليل على ذلك .

وأنا لا أدرى كيف يجرؤ هؤلاء على تشويه الحقائق وطمس المعالم الى هذا الحد ؟! ألم يقرأوا قول الله تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » .

والآية الكريمة تتضمن أن المؤمنات لهن من الولاية العامة فى شئون المؤمنين جميعا مثل ما للرجال من هذه الولاية فى شئون المؤمنين والمؤمنات جميعا أى أن اصلاح هذا المجتمع وتدبير شئونه أمانة عامة يتحملها كل مؤمن وكل مؤمنة وكل منهما مسئول عن ذلك .

وهذه الآية تنطق صراحة بجواز مزاولة المرأة لحقوقها السياسية كالرجل سواء بسواء وأنها مكلفة بذلك فان قصرت فى ذلك كانت مقصرة فى حق المجتمع الاسلامى وفى واجب فرضه عليها الاسلام .

ان الدين فى جانب المرأة وقد أوردت فيما أوضحت جملة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلها تتضافر على اعطاء المرأة حقها السياسى ولا تحول بينها وبين الاشتراك فى الانتخاب وعضوية البرلمان .

ومع هذا البيان الواضح فانهم حينما يضيق أمامهم المجال يتذرعون بكلام بعيد عما نحن فيه . فهم يقولون أن الاسلام نقص حقوق المرأة عن حقوق الرجال ومن أجل ذلك لا يجوز للمرأة أن تشترك فى الانتخابات ولا تكون عضوا فى البرلمان .

***

والى هؤلاء القوم أسوق تفسيرا علميا لأحد كبار أقطاب الدين فى مصر هو فضيلة الأستاذ علام نصار مفتى الديار المصرية السابق . وفيه يفسر للمسلمين حكم الاسلام فى المساواة بين المرأة والرجل ونظرته الى مكانتها السامية فى المجتمع الاسلامى . اذ يقول :

« ان الاسلام ينظر الى المرأة كما ينظر الى الرجل من الوجهة الانسانية وكمال الحقوق والشخصية . وليست الأنوثة والذكورة فى نظر الاسلام فارقا فى تقرير الشخصية الانسانية. ان للمرأة فى نظر الاسلام كل ما للرجل من الحقوق وعليها ما على الرجل من واجبات . واذا وجد فارق ظاهرى فى بعض الأمور فانما يكون مرجعه طبيعة الرجل والمرأة والفرق بينهما بحسب الفطرة والتكوين فالاسلام يقرر للمرأة حقوقها كاملة فى الملكية

فهى حرة التصرف فيها كالرجل تماما وليس للرجل عليها أى سلطان على أموالها . ولعلى لا أكون مخطئا اذا قلت ان بعض الدول المتحضرة الحديثة تجعل للرجل تدخلا فى التصرف فى أموال زوجته ، ولكن الاسلام لا يعطى للرجل هذا الحق ، وهذا من أكبر الأدلة على احترام شخصية المرأة وانها ليست أقل من شخصية الرجل فى الاسلام ..

« والمرأة فى الشريعة الاسلامية ترث فى أبويها ومن أقاربها وغيرهم كما يرث الرجل واذا كان مقدار نصيبها فى الميراث نصف مقدار نصيب الرجل فليس هذا لأن شخصيتها أقل من شخصية الرجل ، ولكن روعى فى ذلك ان المسئوليات المالية كانت عند ظهور الاسلام قد ألقيت كلها على الرجل ، ويكفى أن نقرر انه فى مقابل ذلك نجد نفقة الزوجة على زوجها وأولاده على أبيهم لا على أمهم . فالاختلاف فى مقدار النصيب ناشىء من اختلاف التبعات التى ألقاها الدين الاسلامى على كاهل المرأة والرجل لا على أساس ان شخصية المرأة أقل من شخصية الرجل فى الاسلام . ان المرأة والرجل فى حكم الاسلام متساويان . وفى القصاص يقتل الرجل فى المرأة كما تقتل المرأة فى الرجل فالشخصيتان متساويتان ، كذلك الحقوق بين الزوجين مبنية على المساواة ولكل منهما على الآخر حقوق يقتضيها نظام الأسرة وحسن المعاملة وتأسيس المنزل على قواعد ثابتة توصله الى السعادة ولم يوجب الاسلام على الزوجة أن تقوم بخدمة المنزل للزوجين . ولكن اذا اقتضت عواطف الزوجة والأمومة بالنسبة للأولاد أن تتقدم هى من ناحيتها لخدمة المنزل أو المساهمة فيه فلا ريب ان هذا يرجع الى كرمها وطيب شعورها نحو كيان الأسرة . كذلك جعل الاسلام للمرأة حرية اختيار الزوج وحرية العقد ومباشرته ما دامت وصلت الى درجة الأهلية للزواج وهذا من براهين ان الاسلام يقرر شخصية المرأة فى أهم نواحى حياتها . هذا وقد أعطى الاسلام للزوجة حق طلب الطلاق والفرقة بين الزوجين اذا ساءت العشرة أو اعتدى الزوج عليها اعتداء يتنافى مع سعادة الزوجية ويؤثر فى كيانها » .

ويمضى الأستاذ علام نصار فى تفسيره فيشرح لنا معنى الآية الكريمة:

الرجال قوامون على النساء

فيقول « كل اجتمـاع وكل تكوين اجتماعى حتى نظام السماوات والأرض لابد أن يكون فيه مسئول أول . فهل معنى (الرجال قوامون على النساء) ان شخصية المرأة أقل من شخصية الرجل ، ليس المعنى كذلك . بل ان طبيعة الاجتماع فى كل مجتمع ومنه مجتمع الأسرة لا تنظم الا بأن تكون المسئولية فيه والكلمة الأخيرة لشخص واحد . وليس اعطاء الكلمة الأخيرة للوزير فى وزارته أو لمفتى الديار المصرية فى دار الافتاء ان الموظفين الآخـرين الذين لديهم مؤهلات كمؤهلات الوزير أو المفتى منتقصون فى انسانيتهم أو فى حقوقهم بل ان ذلك الاختلاف فى المسئوليات وجعل الكلمة الأخيرة فى يد شخص واحد تقتضيه طبيعة الاجتماع فى كل جمعية ومنها الأسرة . فان النظام يقضى بأن تكون الكلمة الأخيرة لأحد الزوجين ولو وجدت للمرأة فى مجتمع شرقى لوجد الاعتراض . ولو كانت لهما معا لفسد نظام الاجتماع . وهذه نظرية لا يختلف فيها العقلاء . يجب أن يعرف الجميع الفوارق ان المسئولية التى ألقاها الاسلام على الرجل العربى عن المورد المالى الذى به قوام المنزل وما يستتبعه من مجهودات كل هذا أدى الى جعل الكلمة الأخيرة فى المنزل له .

وهذا تفسير قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء . بما أنفقوا من أموالهم) ..

ان المسألة اذن ليست سـوى توزيع مسئوليات بحسب النظـام الاجتماعى كما يقول فضيلة العالم الكبير مفتى الديار الأسبق .

شجرة الدرّ

امرأة دخلت التاريخ

لقد رأيت أن أفرد فصلا خاصا لمناقشة تاريخ هذه المرأة التى كانت جارية فأصبحت سلطانة .. فشجرة الدر هى السيدةالتى لعبت فى العصور الوسطى أخطر الأدوار وحملت بمفردها عبء الحكم فى أدق الظروف ، وكان لها الفضل الأول فى قهر جيوش الصليبيين وردها عن مصر .

وتاريخ شجرة الدر يمثل أحد المراحل الانتقالية التى مرت بمصر ، وهى المرحلة التى وصلت بين الفتح الاسلامى والفتح العثمانى لمصر . وفى الصفحات التالية سأحاول تحليل شخصية هذه المرأة التى بدأت حياتها جارية تباع فى سوق الرقيق .. فلم تلبث بقوة شخصيتها وصلابة عزيمتها أن أصبحت سلطانة تدين لطاعتها رقاب السادة والعبيد .. فهى شجرة الدر أم خليل أول امرأة فى الاسلام تلى عرش كليوباترة .. عرش الفراعنة والبطالسة الأقدمين .

* * *

فى حى من الأحياء الفقيرة بالفسطاط (العاصمة السابقة لمصر حيث يوجد الآن حى مصر القديمة) وفى مطلع القرن الثالث عشر ولدت شجرة الدر تلك المرأة التى أصبحت فيما بعد سلطانة ، والتى غدا اسمها علما على جميع الأفواه .

ولقد حاولت أم شجرة الدر أن تمنع بشتى الطرق مولد طفلتها اذ كان لديها من الأولاد ما ينوء بحملهم الأغنياء فذهبت الى المشعوذات تطلب معونتهن فى تخليصها مما احتوته أحشاؤها ولكن مساعيها ذهبت أدراج الرياح فخرجت شجرة الدر رغم ارادة الجميع . ويظهر ان الظروف التى أحاطت بمولدها قد أثرت على مجرى حياتها وشخصيتها . فقد

شعرت منذ فجر حياتها بأن المجتمع ينكر وجودها وهى الطفلة الفقيرة التى لا صفة لها .. ولا حاجة اليها . وكان لهذا الشعور تأثيره على سلوكها فبدت وكأنها تريد أن تنتقم .. تنتقم من هذا القدر الذى جعلها تولد ظلما فى هذه البيئة التى تفوح منها رائحة الجوع والبؤس والتى أعطتها ذلك القلب الطموح الذى لايقنع أبدا مهما قدم له ذلك القلب الذى يطلب مزيدا من الرفعة أو فيضا من الاكرام .

وكانت شجرة الدر طفلة رائعة الجمال، خجولا طموحا الى أبعد حدود الطموح ينم مظهرها عن تطور من المجتمع الذى تعيش فيه بينما يخفى نفسا جياشة وقلبا نابضا بشتى الأحاسيس ..

وما ان بلغت السادسة عشرة من عمرها حتى اشتعل قلب ابن عمها هياما بها . وكانت أسرته أحسن حالا من أسرتها . وقد باركت الأسرتان هذا الحب واعتبرتا الشابين فى حكم الخطيبين وكيف لا وهذا الزواج سيضمن لها حياة رغدة وسعة من العيش ؟

جلست شجرة الدر ذات مساء تفكر فى هذا الزواج طويلا فخرجت بقرار يدل على طموح جنونى وأمل خيالى فى مستقبل حافل . لقد أرسلت شجرة الدر واحدة من صديقاتها الى ابن عمها تعلنه بأنها لن تتزوجه . وما لبثت ان عادت الصديقة وقد لمعت عيناها ببريق الانتصار لتخبر شجرة الدر بأنها اتفقت مع الخطيب المرفوض على أن تحل محلها !

وحضرت شجرة الدر حفلة زواج ابن عمها من صديقتها دون أن تبدى تململا أو ضيقا . وزاد انطواؤها على نفسها فلجأت الى القراءة تدفع بها عن نفسها غائلة الحزن . لقد تعلمت القراءة على الرغم من سخرية من حولها وشجعتها أمها على ذلك ، وساعدتها على الوصول الى نهل العلم بكل ما أوتيت من وسائل .

وعندما بلغت شجرة الدر الثامنة عشرة توفيت أمها فكانت هذه أول ضربة تصاب بها ، بل لعلها كانت أكبر صدمة فى حياتها . اذ بدأت الوحدة تكتنفها وتعتصر قلبها . أما والدها فقد برح به الحزن فأصبح البيت كئيبا

وفى يوم من الأيام قررت شجرة الدر ترك منزل الأسرة فلم يكن أمامها الا وسيلة واحدة هى أن تبيع نفسها فى سوق الرقيق ليكون فى ثمنها ما يخفف آلام الفقر عن أسرتها !

ذهبت الفتاة الرقيقة الى السوق تعرض نفسها على المشترين . ولكن أحدا لم يلتفت اليها أول الأمر ، بينما أقبل الناس يتهافتون على شراء الفتيات ذوات الأجسام الممتلئة . لقد شعرت صاحبتنا مرة أخرى ان العالم الخارجى لا يفهمها ولا يقدرها حق قدرها . انها فى هذه السوق كما كانت فى البيئة التعسة التى ولدت فيها . الغريبة التى لا يرغب فيها أحد . ولكن لم يلبث أن برز من هذا الجمع رجل يدل مظهره على الثراء والقناعة فى نفس الوقت . وبدون مقدمات عرض لشراء شجرة الدر ثمنا لم يكن يحلم به أحد . وهكذا تمت الصفقة فى دقائق معدودة ومشت الأمة خلف سيدها الجديد واجفة القلب . وانه لم يكن سوى كاتم سر السلطان . واتجه الاثنان نحو القلعة حيث يقيم السلطان الكامل . وبينما هى تلج الباب الكبير هفا خيالها بأمل كان يبدو لهالحظتها حلما بعيد المنال . فقد تصورت نفسها سلطانة هذه القلعة .

توجهت شجرة الدر الى حريم ولى العهد الأمير الصالح وكان يكبرها بأربع سنوات . وقد استقبلتها مربية الأمير العجوز عزة فأشفقت عليها ، ثم تحول هذا الاشفاق شيئا فشيئا الى حب عميق ..

وكان جو القلعة ملبدا فان والدة ولى العهد كانت قد طلقت وانتقل نفوذها الى السلطانة الجديدة سودة تلك السيدة القاسية التى كانت تكره ولى العهد الأمير الصالح كرها شديدا وكانت تعمل بكل ما أوتيت من قوة وجبروت على احلال ابنها العادل محله فى ولاية العهد وكان يصغر الصالح بتسع سنوات . فلم يكن لسودة الا أمنية واحدة هى التخلص من ولى العهد !

وفى مساء اليوم الذى وصلت فيه شجرة الدر الى القلعة قامت عزة بتجميلها وتزويدها بالنصائح ثم أدخلتها حريم الأمير . لقد كانت طفولة

الصالح تعسة الى أبعد حدود التعاسة فقد نما وحيدا وفى نفسه عقد أثرت فى سلوكه فجعلته ينطوى على نفسه ، ويشرف على الحياة من خلال منظار أسود .

ولما دخلت شجرة الدر القاعة الكبرى حيث يقضى الأمير أمسياته أحاطت بها نساؤه من كل جهة ، وكن جميعا على درجة كبيرة من الجمال وانبرت احداهن ترقص فى خفة وابداع . أما شجرة الدر فكانت خجولا على الرغم من انفتها وكبريائها فانزوت فى أحد أركان القاعة وجلست واجفة من مجرد التفكير فى انها ستنازع هؤلاء النساء الساحرات جمالهن واغراءهن . ولمحها الصالح وهى على هذا الحال . رأى قدها الأهيف وقد توج بوجه غاية فى الجمال . ان تقاطيعها وقوة شخصيتها ما لبثتا ان حركتا كوامن نفسه بل لعل بريق التعاسة فى عينها قد مس التعاسة الدفينة فى قلبه . فطلب من نسائه اخلاء القاعة ليظل مع شجرة الدر . وكان من الطبيعى أن تغار غريمات شجرة الدر ويتعاهدن على الخلاص منها مهما كلفهن الأمر !

واستطاعت شجرة الدر بعد مضى سنتين من دخولها القلعة تحقيق بعض أهدافها فقد دالت دولة حريم الأمير فى القصر . وأصبحت بمفردها محظية دون منازع . ولم ترض زوجة السلطان بهذا الوضع الجديد فقد بدا لها خطر شجرة الدر واضحا . ألم تستطع بعد فترة وجيزة أن تؤثر على الأمير ؟ ان ذكاءها سوف يحول بلا شك بينها وبين تحقيق أهدافها ، الا وهى ابعاد الصالح عن العرش واحلال ابنها العادل محله . ان كراهيتها لشجرة الدر أصبحت أشد وأعظم من كراهيتها للصالح .

وفى دمشق كان أمير الكرك يتآمر على السلطان الكامل ويحاول أن يسىء الى سمعته . وقد علم السلطان الكامل بأمر المؤامرة فى حينها فقرر الزحف على دمشق. ورأت سودة ان الفرصة قد سنحت لتحقيق مآربها فأقنعت الكامل بأن يصحب معه ابنه الصالح الى حصن حيفا ويتركه هناك وكانت سودة تؤمل أن يصبح ولى العهد منسيا فيخلو الجو لابنها العادل .

واضطر الصالح أن يخضع لمشيئة والده واصطحب معه فى المنفى شجرة الدر وعزة وصديقه الشاب بيبرس الأمير المملوك .

وقبل أن ترحل عن مصر وفى أثناء اعداد معدات السفر استطاعت شجرة الدر أن تضم الى حلفها الأمير فخر الدين صديق الصالح الذى عاهدها على أن يظل مخلصا لها ولمشاريعها رغم بقائه فى مصر .

ويعتبر النفى الى حصن حيفا المرحلة الأولى فى تبلور أطماع شجرة الدر . فقد كان عليها أن تتزوج بالصالح وقد واتتها الظروف حينما ولد لها الطفل خليل الذى أشاع مولده السعادة والبشر فى نفس الصالح فتزوج شجرة الدر . وأصبحت الأمة مرتبطة بالرباط المقدس مع الأسرة الحاكمة . ولكن هذا النجاح لم يكن ليرضى « أم خليل » التى لم تكن لتقنع بهذا القليل !

وفى هذه الأثناء . كان فخر الدين الذى وكل اليه الدفاع عن مصالح شجرة الدر وزوجها فى القاهرة يتبادل واياهما الرسائل فيعلمها فى آخر رسالة له بنبأ وفاة السلطان الكامل بدمشق ولما كان الكامل واقعا تحت تأثير زوجه سودة فقد كان يكره شجرة الدر وابنه وارث العرش من بعده ولذا أقدم السلطان قبل أن تحين وفاته على حرمان ابنه الأكبر من العرش واعطاه لابنه العادل نزولا على ارادة سودة . وهكذا صعد السلطان العادل الثانى على عرش مصر وسوريا .

لقد أشرفت شجرة الدر على الثلاثين فتبدلت طباعها وتغيرت ، لقد بارحها الخجل منذ وقت طويل وأصبحت أكثر جرأة عن ذى قبل فى اتخاذ القرارات وتنفيذها ، وغدت ترسم خططها وتعدها وفقا لتفكير ناضج وعقل راجح . وبعد مضى بضعة شهور على المناداة بالعادل الثانى سلطانا حانت الفرصة لشجرة الدر لتنفذ خطتها ذلك ان أحد خصيان قلعة دمشق تمكن من المناداة بنفسه أميرا على دمشق . وقد نقل بعض الجواسيس الى شجرة الدر ان أمير دمشق الجديد قلق على مصيره وانه يتطلع الى الاستيلاء على سنجر حيث له فيها حلفاء عديدون . وتبينت

شجرة الدر بحذقها الفائدة التى ترجع عليها من وراء هذا الموقف الجديد. فوضعت خطة حرصت على تنفيذها على دفعات . انها اليوم فى حاجة الى سوريا ثم يأتى بعد ذلك دور مصر . وهاهى ذى ترسل أحد أتباعها الى الخصى ليعرض عليه اتفاقا يخول له الاستيلاء على سنجر التى تقع فى حوزة الصالح على أن يعطى للأخير دمشق . ويقبل الأمير هذا العرض . ويدخل الصالح وشجرة الدر دمشق دخول الفاتحين الغزاة . وقبل أن تترك شجرة الدر حصن حيفا أقنعت الصالح بأن يترك فيه طوران شاه ابنه من امرأة أخرى .

انها ترغب فى أن يخلو الجو تماما لابنها خليل مما جعل طوران شاه يحقد عليها طول حياته . وهكذا اصطحبت شجرة الدر معها « خليل وعزة وبيبرس » .

ولم يكن احتلال دمشق لينسى شجرة الدر أهدافها .. ففى فزان يحيك الأمير فخر الدين مؤامرة ضد العادل الثانى بوحى منها ويشترك معه فيها أصدقاؤه من الأمراء المماليك . ولكن المؤامرة تفشل لسوء حظ شجرة الدر . وفى نفس الوقت يزحف الصالح وشجرة الدر على رأس جيش صغير على مصر تاركين ممثلا لهما فى دمشق . وفى طرابلس يتوقف الجيش عن المسير انتظارا للمدد . وعلى حين فجأة يهجم أحد أتباع الصالح غدرا على دمشق فيحتلها ويطرد الحاكم المعين من قبل الصالح الذى كاد اليأس أن يقضى عليه ، ولكن شجرة الدر ما لبثت ان أعادت الثقة الى نفسه وجعلته يقرر العودة الى حصن حيفا ليعيد تنظيم جيش جديد يحل محل جيشهما الذى لم يبق من جنوده مخلصا لهما الا حوالى المائة من الكرخ فأسرهما . ولكن شجرة الدر استطاعت بعد بضعة شهور اقناع الأمير بالافراج عنهما بل تمكنت من التحالف معهما استعدادا لاسترداد مصر !

وفى هذه الأثناء كان فخر الدين بأمر منها يعد مؤامرة جديدة ضد العادل الثانى فان فشل المؤامرة الأولى لم يقعده عن عزمه . وها هو

ذا ينجح فى هذه المرة ويودع العادل الثانى السجن . وهكذا تهيأ الجو للصالح فتولى عرش مصر .

وجاء رجل ذات يوم الى السلطان الصالح وقدم له مملوكا تركيا يسمى ايبك وكان ايبك شابا فارعا وسيم الوجه ذكيا ولا غرابة فى أن نراه يتقدم على غيره بسرعة فيصبح كاتم أسرار السلطان وهنا تنشأ علاقة حب قوى بين شجرة الدر وهذا الشاب وقد حاول كل منهما التخلص من هذه العاطفة بشتى الطرق . فان ايبك يدين للسلطان بكل شىء وشجرة الدر لا يرضيها أن تخون سيدها ولا ترضى أن تتغلب عواطفها على ارادتها فتحول بينها وبين تحقيق أطماعها . وبالاضافة الى ذلك فان ايبك كان زوجا ووالدا مما يزيد الموقف تعقيدا .

ويموت فى هذه الأثناء خليل بن شجرة الدر التى لا تستسلم لليأس بل تقرر أن تحتفظ بالسلطة مهما كلفها الأمر . ومضت الأسابيع وتلتها الشهور واعتقد ايبك وشجرة الدر انهما انتصرا على حبهما انتصارا لا رجعة فيه . ويقترف فخر الدين ذنبا يلقى من أجله فى السجن .

وعلى حين فجأة يحاصر القديس لويس التاسع ملك فرنسا ثغر دمياط من كل جهة . انها الحرب الصليبية . وكان الصالح لسوء الحظ مريضا فتأخذ شجرة الدر وايبك على عاتقهما مهمة الدفاع عن دمياط ويقذفان بنفسهما فى المعركة . ولما كان فخر الدين رجل السيف المشهود له بذلك من الجميع فى السجن فقد أطلق سراحه ، وطلب اليه أن يدافع عن دمياط وانتقلت القيادة العامة الى أشمون طناح وهى بلدة فى منتصف الطرق بين القاهرة ودمياط ، وهى فوق ذلك تقع على ضفة النيل مباشرة . تقدم فخر الدين الى دمياط على رأس جيش كبير . وكانت هذه المدينة مستعدة للصمود للحصار ستة أشهر .

وازدادت حالة الصالح سوءا بعد انتقاله الى أشمون طناح . وانتهز فخر الدين الفرصة ليثأر لنفسه من السلطان الذى أمر بالقائه فى السجن

فبدلا من أن يدافع عن دمياط وهو أمر سهل ميسور تقهقر عنها بجيوشه فدخلها الصليبيون وعاد هو بجيشه كله نحو أشمون تلاحقه جيوش الفرنجة . وانتقلت القيادة العامة الى المنصورة حيث دارت المعركة الفاصلة !

وكان على شجرة الدر أن تعود الى كسب ثقة فخر الدين فانه رجل الساعة ولا أحد غيره يستطيع انقاذ الموقف العسكرى فدعته الى مقابلتها وتمكنت من اقناعه ورده عن عزمه الأول . فوعد فخر الدين بأن يرد الفرنجة على أعقابهم وكانوا قد وصلوا الى المنصورة على الضفة الأخرى للنيل وبينما كان كل فريق يعد نفسه للمعركة الحاسمة توفى الصالح . وكانت شجرة الدر تعلم ان انتشار هذا الخبر من شأنه أن يزيد الموقف سوءا فاتفقت مع ايبك وفخر الدين على كتمانه مؤقتا الى أن تنجلى الحالة . وبدأت كفة فخر الدين ترجح على كفة الصليبيين فوقع القديس لويس أسيرا فى أيدى المصريين وتقهقرت فلول جيش الفرنجة نحو فارسكور !

ثم أرسلت شجرة الدر تستدعى ابن زوجها طوران شاه ليخلف والده على العرش وحضر طوران شاه على عجل .. ولكن المماليك لم يلبثوا أن ثاروا عليه لفساده وعجرفته ، وقتلوه بعد موقعة فارسكور التى نجحت شجرة الدر خلالها فى انتزاع النصر لمصر ورد الأعداء عنها ..

وكان على الشعب أن يختار من يحكمه بعد أن مات ولى العهد . وأمام القوة الخارقة التى كانت تمتاز بها شخصية شجرة الدر ، والتى سيطرت بها على قلوب الناس جميعا بما أحرزته من انتصارات متوالية فى المعارك الحربية التى خاضتها الى جانب زوجها وبمفردها بعد موته الى جانب ما اشتهر عنها من قوة العزيمة وروح الاصلاح وحسن التدبير مما لم يكن يتمتع به واحد من حكام أسرة زوجها .. أمام ذلك كله سارعت جموع الشعب الى اختيار شجرة الدر سلطانة على مصر فى اجماع رائع ...

ولكن .. كان هناك بعض من الحاقدين عليها من الأمراء .. فلم يلبثوا أن أثاروا عليها خليفة المسلمين فى بغداد .. الذى كان له الأولوية على المسلمين .. منتهزين فرصة محاولة شجرة الدر الاستقلال بمصر استقلالا تاما عن ولاية الخليفة .. للدس بينها وبينه فلم يلبث الخليفة أن أرسل خطابا بعزلها عن العرش بحجة انها امرأة ! !

واجتمع الشعب والأمراء فى القلعة ليستمعوا لرسالة الخليفة .. حتى اذا فرغوا من سماعها تعالت الأصوات واحتدم الجدل . الشعب يصر على استبقاء هذه المرأة التى استطاعت فى شهرين فقط من حكمها أن تحقق له من الرفاهية والاصلاح والاستقرار ما لم يتحقق فى عشرات الأعوام قبلها . وأعداؤها المغرضون يطالبون باحترام رغبة الخليفة فى عزلها وكلهم طامع فى الوصول لمقعد الحكم .. وهنا تتجلى حكمة المرأة وتضحياتها عندما يكون عليها أن تختار بين مصلحتها والمصلحة العامة .. فقد ارتفع صوت شجرة الدر من خلف الستار الذى كانت تحضر الاجتماع من ورائه .. ارتفع صوتها قويا فوق كل صوت .. تعلن تنازلها بارادتها عن العرش حرصا على الوحدة وحقنا للدماء . وكان تنازلها لايبك أحد المماليك لما توسمت فيه من مقدرة على القيام بحكم البلاد حكما عادلا .. وكان تولى ايبك حكم مصر هو فاتحة عهد حكم المماليك الذى أسسته شجرة الدر .

وهكذا انطوت صفحة مجيدة من تاريخ مصر . باختفاء ظل شجرة الدر عن مسرح السياسة المصرية .. ولكن بعد أن ضربت للأجيال مثلا رائعا فى جدارة المرأة المصرية وصلابتها وذكائها وحكمتها ..

المصريات تيمورين

نابليون بونابرت

ان المتتبع لسلسلة المقاومات الوطنية التى أعلنها شعب مصر ضد الحملة الفرنسية تسترعى انتباهه ظاهرة خطيرة .. هى ان المرأة المصرية كانت أسبق نساء العالم أجمع الى الاشتراك فى حرب العصابات ، فقد اشتركت بنفسها فى تلك المعارك الرهيبة التى خاضها شعبنا الأعزل ضد أضخم وأحدث جيش دوخ أوربا بأسرها جيش نابليون بونابرت !

ولا شك ان مساهمة المصريات فى تلك المعارك الشعبية كان ملهبا للشعور الوطنى ، باعثا على حيوية الشعب ، واقدامه على التضحية والبذل ، بل هو بشهادة المؤرخين جميعاً ، كان فى مقدمة الأسباب التى حققت نجاح المقاومة وأسرعت بها الى النهاية المحتومة .. المحتومة لكل مقاومة يخوضها هو دفاعا عن أرضه ، وحريته وأمجاده .. طال الأجل بهذه المقاومة أو قصر ..!

* * *

وكانت أنباء مقدم نابليون بحملته لغزو الأراضى المصرية قد سبقته ولم تلبث ان تأكدت عن طريق الأسطول البريطانى الذى جاء الى الاسكندرية بقيادة نلسون للبحث عن الحملة الفرنسية — فكان لهذا النذير الخطير أثره البعيد على سكان مصر .

فقد تلقاه المماليك وأتباعهم ممن يحكمون مصر وهم ليسوا من شعبها بالذعر والخوف .. لا على مصر ولا على شعبها .. ولكن على نفوذهم وأموالهم التى جمعوها من المصريين بأشد أنواع الارهاب والبطش . الأمر الذى جعلهم لا يفكرون فى مقاومة الغزو الفرنسى القادم أو الاستعداد لصده بقدر ما يفكرون فى الهرب بأرواحهم وأموالهم !

أما وقع النبأ — نبأ الحملة الفرنسية — على أهل البلاد فقد كان له أثر آخر اذا قيس بحالة التأخر والاستعباد التى كان يفرضها عليهم حكم المماليك والعثمانيين — كان الأثر سيئا غريبا على قوم طال ضيقهم بالاحتلال ومظالمه .. وأبوا أن يبدلوا احتلالا باحتلال ، فعقدوا العزم على القضاء على الاحتلال القديم ومجاهدة الاحتلال الجديد ، وقد كانت انتفاضة المصريين لاستقبال الغزو الفرنسى بأعنف وسائل المقاومة ، حدثا تاريخيا يؤكد وعى هذا الشعب ويقظته الى التماس كل فرصة لاستخلاص حقه فى الحياة الحرة الكريمة .. واذا قيست ثورة المصريين ضد حملة نابليون بعراقة الشعب المصرى وتاريخه المجيد لكان ذلك شيئا طبيعيا مقـدرا !

اذ لم تمض بضع ساعات على وصول السفن الفرنسية الى ميناء الاسكندرية حتى كانت الدماء تغلى فى عروق أهل الاسكندرية ، وقد استقر عزمهم على ملاقاة العدو الغازى وجها لوجه دفاعا عن مدينتهم وشرف بلادهم ..

وهنا تبرز المرأة المصرية لأول مرة منذ أجيال وعهود فرضت عليها فيها البلادة والجمود بين جدران أربع لا يسمح لها أن تتجاوزها حتى لا تكاد تدرك مما يدور حولها خلف هذه الجدران من أحداث .. ولم يكن ظهور المرأة على خشبة المسرح . مسرح المقاومة والكفاح التى برزت اليه فجأة وبدون مقدمات .. لم يكن ذلك من باب الفرجة والتسلية فسنرى كيف تصدرت النساء المعارك وخاضتها جنبا الى جنب مع الرجال .. كيف حملت السلاح وهاجمت الأعداء .. فاقتسمت معهم فى عـدالة ومساواة شرف النصر وشرف الاستشهاد . أما كيف سمح للمرأة بالخروج من منزلها للاشتراك فى الدفاع عن وطنها .. فان لذلك سببا واحدا .. كان وسيظل دائما هو القوة الكامنة خلف كل وثبة تحرير خالصة مؤمنة .. وهو الشعور المشترك بين أفراد الشعب الواحد بالظلم .. هذا الشعور الذى يولد الرغبة فى صدور هؤلاء الأفراد مجتمعين فى التطلع الى التحرر

والسيادة .. ولم يكن الظلم الذى تعيش فيه نساء الشعب المصرى الا ظلما مشتركا يقاسى منه الرجال ألوانا قد تختلف فى الشكل عن هذا الذى تقاسيه النساء ولكنه يشترك معه من حيث الأسباب كما يشترك معه من حيث الوقع . ولم يكن الخطر الذى يهدد استقلال مصر الا خطرا يستهدف حرية الشعب المصرى نسائه ورجاله على حد سواء . لذلك فلم تكن الرغبة التى آستقرت فى صدور الرجال من المصريين عن ضرورة اعلان الكفاح المسلح لمقاومة الحملة الفرنسية على أرضهم لم تكن تلك الرغبة لتقل عنها فى صدور النساء من المصريات وهن من طال بهن انتظار فرصة الجهاد فى سبيل التحرر والانعتاق مما يستهدفون له من ذل واستعباد .

وهكذا وحد هذا الخطر بين شعور النساء والرجال .. وبالتالى بين أهدافهما ووسيلتهما .. فتشابكت أيديهما فى صمت بليغ تسجل تصميم شعب عريق على الدفاع عن حريته وأرض آبائه وأبنائه .. لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة .. فالكل أمام الخطر سواء .. والكل لمصر الغالية أبناء .

لم تتخلف المرأة المصرية اذا عن تلبية داعى الجهاد .. بل سارعت الى أخذ مكانها فى مقدمة الصفوف .. وما كادت جنود نابليون تطأ شاطىء الاسكندرية حتى تلقفتها رصاصات وحراب وأحجار المدافعين من نساء ورجال .

ويبدو أن هذه المقاومة الجريئة السريعة لم تكن فى حسبان القائد الفرنسى فقد كان نابليون مطمئنا الى ان مظالم الأتراك والمماليك قد قتلت الشعور القومى فى نفس الشعب المصرى وسلبته الرغبة فى الدفاع عن هذا الوطن الذى لم يذق فيه طعم الحرية والكرامة تحت حكم الطغاة الأجانب . لذلك كانت دهشة نابليون كبيرة لهذا الاستبسال ، وثار فضوله لمراقبة هذه المقاومة التى بادر سكان الاسكندرية باعلانها عليه منذ اللحظة الأولى .. وهاهو ذا أحد التقارير الفرنسية المرفوعة الى

حكومة فرنسا عن استقبال أهل الاسكندرية للحملة منذ ساعة وصولها الشواطىء المصرية ، يقول التقرير :

« احتشد الأهالى الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج التى تتخللها للدفاع عن مدينتهم .. فلما اقترب الجيش الفرنسى وقبل أن يبدأ هجومه صعد نابليون على الربوة المقام عليها عمود « السوارى » وشاهد أسوار المدينة ومآذنها وقلاعها .. ولاحظ أن بالسور رغم ارتفاعه وضخامته ثغرات كبيرة رممت حديثا ترميما يدل على العجلة .. ورأى أهالى الاسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا .. رجالا ونساء كبارا وصغارا ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح .. فأصدر أمره بالهجوم العام وأخذ الأهالى يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار اطلاقا من غير احكام .. فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات . فقابلهم الأهالى باطلاق النار اطلاقا شديدا من المدافع والبنادق وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة . ولكن المدافعة لم تدم طويلا .. فاقتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة .. ووصلوا الى الجهة المسكونة فيها .. وكانت مقاومة الأهالى قد فدحتهم بالخسائر .. فهاجموا الناس فى بيوتهم .. فدافع الأهالى عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين .

« دخل نابليون المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تتسع لاثنين يمران جنبا لجنب وكنت أرافقه فى سيره فأوقفتنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من احدى النوافذ واستمرا يطلقان الرصاص .. فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة ..

« ولم يقف دور نساء الاسكندرية فى الدفاع عن مدينتهم عند حد فكن يجمعن الأوانى النحاسية من منازلهن لتصب من جديد كذخيرة حية توزع على المقاومين . وكن يشتركن فى نقل الحجارة الى الأسوار حيث كانت تتسلح النساء اللواتى لا يجدن استعمال البنادق ، وقد كانت اصابة الأعداء من حجارة النساء لا تقل خطورة عن اصابتهم برصاص

بنادق الرجال .. وها هو ذا الجنرال « بريتيه » رئيس هيئة أركان حرب الحملة الفرنسية يصف اصابات ضباط الحملة الكبار فى معركة الاسكندرية فى رسالة منه الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول فيها : ان الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت » ..

وقد جاء فى تقرير لنابليون عن خسائر المصريين فى معركة الاسكندرية بأنها قد بلغت ثلثمائة بين قتيل وجريح من الرجال والنساء على السواء !

ولم تكن مقاومة نساء رشيد وباقى البلاد التى سارت اليها الحملة الفرنسية بأقل شأنا من مقاومة نساء اسكندرية .. فسجلت رشيد قصصا رائعة للبطولة التى أظهرتها نساؤها فى مقاومة الغزاة حتى ليحكى ان فتاة صغيرة من رشيد استطاعت بمفردها أن تقتنص أكثر من خمسة عشر جنديا فرنسيا اكتشفت جثثهم مجندلة فى قاع بئر بداخل منزلها حيث كانت تخرج يوميا لاستدراج أحدهم الى منزلها ليلقى حتفه فى الكمين المعد له فى البئر وقد جازاها الفرنسيون بالسجن ثم الاعدام فذهبت الى ربها شهيدة ..

وأما نساء القاهرة فقد سجل لهن التاريخ أروع صور الوعى والحمية والبذل مما لم يشهد له مثيل فى ذلك العصر . كان جيش نابليون قد استقر أخيرا فى القاهرة حيث راح يحاول عبثا فرض سيطرته على أهلها تارة بالتودد وأخرى بالتهديد والارهاب .. ولكن الشعور القومى ظل يغلى فى صدور المصريين يوما بعد يوم .. وماكاد صباح يوم ٢١ أكتوبر عام ١٧٩٨ يشرق على القاهرة حتى كان النداء بالثورة يجتاح المدينة الجريحة من أقصاها الى أقصاها .. وسرت كلمة الثورة سريان النار فى الهشيم وخرج جميع أهل المدينة الخالدة يرفعون راية العصيان على حكم الفرنسيين الطغاة يتقدمهم العلماء وأهل الفكر .. واندلعت الثورة فى القاهرة وهب المحتلون يصبون نيرانهم الغاشمة تحصد شعب العاصمة حصدا وتدك صرح الأزهر العتيد وتوالت الأحداث وارتوت أرض القاهرة بدماء أحرارها الثائرين وامتلأت السجون بطليعة المناضلين من

أبطال الثورة وقادتها .. ويطول بى المقام هنا لو حاولت متابعة ثـورة القاهرة مما يخرج بى عن موضوع هذا الكتاب .. وأعود الى نساء القاهرة ومكانهن فى قلب المعركة .. فمن خلف الأبواب والنوافذ كانت الأيدى الناعمة الرقيقة تصوب قذائفها على رؤوس هؤلاء الغزاة تردهم عن اقتحام حرمات البيوت وتذود عن العرض والابن والمال .. هؤلاء الذين انطلقوا يحطمون ويسلبون ويثأرون للهزيمة التى أنزلها بهم الثوار فى كل مكان ..

وفى الشوارع كانت دماء النساء والرجال من الثوار تسيل ، تروى أروع قصص جهاد شعب عريق فى سبيل الحرية والكرامة .

* * *

ولكن حتى هذا المصير المفجع الذى لاقته ثائرات القاهرة لم يطفىء شعلة الوطنية فى صدور باقى نساء المدن والقرى المصرية التى كانت قوات الحملة تواصل محاولة اقتحامها على أهلها الآمنين .. فلم تلبث القوات الفرنسية الزاحفة ان فوجئت على مقربة من منوف بأهل قريتى « غمرين » و « تتـا » وهم يشهرون السلاح عليها ويغلقون أبوابهم فى وجهها .. ولما لم يقو الجنرال الفرنسى على اخضـاع أهالى القريتين الثـائرتين واقتحامهما أرسل يطلب قوة أخرى من زميله الجنرال المرابط فى منوف .. وتكاتفت القوتان الفرنسيتان على ضرب القريتين المصريتين واشتد القتال بينهما وبين الوطنيين وسالت الدماء وسقط الشهداء وفى وصف هذه المعركة يقول أحد الكتاب الفرنسيين : « جاءنا العدد من القوات الفرنسية المرابطة فى منوف وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية «غرين» فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين وقتلنا من الأهالى من اربعمائة الى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة واقدام » .

وكان الجنرال « بليار » يطارد فلول قوات المماليك فى الصعيد .. وحدث ان قام هذا الجنرال فى كتيبة فرنسية قاصدا جزيرة «أنس الوجود»

فى مديرية أسوان وعندما أرادت القوة الفرنسية أن تستعير مراكب الأهالى لتعبر بها النيل الى الجزيرة رفض جميع الأهالى امدادها بمراكبهم فاضطرت الكتيبة الى العودة الى أسوان لتعود بقوة أكبر تمكنها من اخضاع أهل الجزيرة المتمردين .. وها هو ذا الجنرال «بليار» قائد هذه الموقعة يشهد فى مذكراته بدور المرأة المصرية فى الهاب الثورة التى اعلنتها الجزيرة ضد قواته فيقول : —

« حمل الأهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء ويقذفن التراب فى وجوهنا بينما عمد الرجال الى اطلاق الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر .. وكنت قد أحضرت معى مدفعا لاخضاعهم .. فدعوتهم للتسليم فكان جوابهم أنهم لا يقبلون منا كلاما وانهم لا يفرون من أمامنا كما يفر المماليك واستأنفوا هجومهم علينا ! » .

* * *

وبعد فهذه شهادة الأعداء عن جدية وخطورة الدور الذى لعبته المرأة المصرية فى المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسى .. وكيف كانت تفزع بفطرتها التى لم يكن نور العلم والحرية قد وصل اليها بعد . كيف كانت تفزع بفطرتها للدفاع عن شرفها ووطنها جنبا الى جنب مع الرجال فكانت تقتسم معهم راضية فخورة شرف الجهاد والاستشهاد .

بل لقد رأينا فى هذه السطور العابرة كيف كانت نساء القاهرة يشتركن فى الهاب نيران الثورة وتزعمها كما اشتركن فى مواجهة نفس المصير الذى صار اليه زملاؤهن من الثوار الرجال وهو الاعدام .. وبذات الطريقة القاسية التى نفذ بها الحكم على الرجال .. وهكذا كانت زمالة المرأة للرجل فى الجهاد والنضال الوطنى هى الحقيقة الناصعة التى سجلها التاريخ لنساء مصر فى أوقات الشدة ، وأيام المحن والقتال بينما كان يعجز ذلك التاريخ عن تسجيل هذه الزمالة لهما فى كثير من أوقات الجمود التى

كان الاستعمار يتآمر فيها على هذه الزمالة حرصا منه على سياسته التقليدية فرق تسد !!.

ولكن ذلك الاجحاف الذى كانت تلقاه المرأة فى المحن وعهود الظلام لم يكن مطلقا ليقعدها عن النهوض بواجبها الوطنى اذا ما دعا داعى الجهاد .. فان المرأة التى ذاقت كأس الاضطهاد والاستعباد كما لم يذقها الرجال تكون بفطرتها أسرع الى استشعار الحقد والثورة ضد مضطهدى وطنها ومستعبديه فتبادر من نفسها الى مزاولة مهام الرجال فى ساحة البذل والجهاد .. وهذا فى اعتقادى أقوى دليل على ان المرأة تملك من الوعى الفطرى ما ينير بصيرتها ويعينها على ادراك الجوهر فى قضية حريتها .. هذا الوعى الذى يجعلها تعرف دائما ان الرجال ليسوا أعداءها فلا تذكر وقت المحنة سوى انها واياهم زملاء فى العبودية .. زملاء فى الجهاد من أجل حرية الوطن ..

المصرية تدخل المدرسة!

اذا كان محمد على قد عرف كيف يقفز الى مقعد الحكم فى مصر على أكتاف الشعب بعد أن اتقن دوره فى التقرب الى المصريين وزعمائهم مستغلا حقدهم على الولاة العثمانيين الظالمين المترفعين والمماليك المستبدين ممن كانوا لا يعنون اطلاقا بالتقرب الى الشعب أو التفكير فى أحواله السيئة ومطالبه العادلة .. اذا كان محمد على قد رسم خطته للسطو على عرش الفراعنة عن طريق التظاهر بالاهتمام بشئون أهل مصر واصلاح أحوالهم حتى يأمن الثورات الشعبية التى كانت تطيح بكل وال متغطرس ممن كانت السلطة العثمانية تفرضهم حكاما على مصر وهم من غير أبنائها — فقد عمد الى اخفاء نهبه لأرض مصر واحتكار مواردها لنفسه ولأسرته الى جانب ما كان يرتكبه من جرائم وأساليب دامية للتخلص من أعدائه وتسخير المصريين فى تفليح ما يغتصب من أراضى المواطنين . وجباية الضرائب الفاحشة التى أثقلت كاهل الشعب وأغرقته فى الفقر والخوف.. عمد محمد على اذا الى اخفاء مظالمه وسرقاته من الشعب المصرى بمظاهرات واسعة من الاصلاح والتعمير ، مما كان له أثره بعد ذلك فى مظاهر التقدم والرقى التى غمرت مصر أمام العالم ، بالرغم من ان كل ذلك لم يكن له جذوره العميقة ، ولم يكن يستند الى أى رغبة حقيقية فى رفع الظلم عن البلد التى أصبحت لا تعدو أن تكون ضيعة لمحمد على وأسرته . وكان للمرأة نصيب من مظاهرات الاصلاح التى استحدثها محمد على فى مصر اذ لم يغب عن دهائه ان المرأة المصرية التى تؤلف قوة شعبية لها قيمتها فى ميزان الأحداث والثورات .. لم يغب عن دهائه ان المرأة فى مصر تمثل خطرا لابد من اتقائه بالتظاهر بالاهتمام بمطالبها واحتياجاتها .. وهكذا تطوع محمد على باصدار أول أمر نظامى بفتح

مدرسة مهنية للمرأة فى مصر وهى ضرورة كانت تحتمها ظروف التطور الذى أصاب البلاد ثم وقفت جهود محمد على عند هذا الحد ، ومع ذلك فقد كانت هذه الخطوة سببا فى اثارة اهتمام الرجال برفع عصابة الجهل من فوق عيون بناتهم وشقيقاتهم وزوجاتهم وأمهاتهم فتنافس المستنيرون منهم فى تعليم نسائهم وبناتهم بواسطة « المدرسين الخصوصيين » الذين يترددون على بيوت الأعيان ، والقادرين ، ليتولوا تعليم « البنات » تحت رعاية آبائهن وأشقائهن !

ونشطت مختلف البيوتات لتخريج زوجات متعلمات وكان ذلك ايذانا بعهد جديد للمرأة ، تنتقل فيه من ظلام الجهل ، الى نور العلم والمعرفة ..

وصل محمد على الى حكم مصر فى وقت كانت البلاد تعانى فيه أشد ألوان الفوضى والتأخر شأن كل بلد تتعرض سيادته وحرياته وموارده لمثل ما تعرضت له مصر من استعمار متعدد الأشكال وما تعرض له شعبها أحقابا طويلة من ظلم الحكام المستعمرين والمماليك المستبدين ، وما كان يصاحب ذلك من نهب موارد البلاد وخيراتها وترك الأغلبية الساحقة من الشعب تقاسى الفقر والحرمان ..

وفى مثل هذه الظروف تكون النساء دائما أسوأ حالا من الرجال وأكثر منهم تعرضا للمظالم وأبعد منهم عن فرص الفكاك والنهوض لأن المرأة كما قلنا هى الضحية الأولى لكل استعمار واستعباد تنكب به بلادها ..

ومن هنا فان المرأة المصرية ، حفيدة الفراعنة المتحضرين والعرب الأمجاد — عاشت فى بلادها عيشة الجمود والتأخر والاستعباد .. بعد أن فرضت عليها تقاليد وخرافات ومظالم الأحكام الجائرة أغلالا من العبودية فلم يكن يسمح لها بالخروج الا تحت الحراسة المشددة وفى كامل التحجب فلم تكن المرأة غالبا لترى ضوء الحياة خارج جدران منزلها الا مرة أو مرات نادرة طوال عمرها بل لقد كان هناك من لا يكتب لها مثل هذا

الحظ السعيد فى حياتها .. فلا تخرج من بيت أبيها الا الى بيت زوجها أو لا تخرج من بيت زوجها الا الى القبر ..

وهكذا لم تكن المرأة المصرية فى عهود الظلام أكثر من حريم لا تعرف قدماها الطريق الى تحصيل العلم أو النزول الى العمل فضلا عن ممارسة الحياة العامة ..

وفى المدينة كان نصيب المرأة من هذا الحرمان أكبر من نصيب المرأة فى الريف حيث كانت ظروف الفقر الشديد تدفعها على الخروج فى بعض الظروف ولكن الى الحقل حيث تعاون زوجها فى أعمال الفلاحة أو المنتجات الزراعية دون أن تلقى تضررا من رجلها فقد كانت الحاجة وظروف البؤس تخلق بينهما شعورا عميقا بالتضامن والتعاون على مغالبة الحياة والتزامات الأسرة فى وقت كانت الضرائب وأعمال السخرة تثقل كاهل الفلاحين وتسلبهم لقمة العيش .

وأما وضع المرأة المصرية فى البيت فكان أقسى وأمر بسبب ما أدخله المحتلون العثمانيون على الحياة العائلية فى مصر من تقاليد نزلت بالمصرية الى هاوية الاذلال والهوان .. فقد تفشت فى عهدهم بدعة اقتناء الجوارى البيض وانزالهن منازل التكريم والتفضيل فى قصورهم وبيوت أتباعهم من أتراك ومصريين حتى اذا جاء عهد محمد على تطورت هذه البدعة وعم انتشارها فلم يقتصر غزو هؤلاء الجوارى على القصور والبيوت الكبيرة بل امتد حتى شمل أغلب البيوت المصرية المتوسطة الحال سواء فى المدن أو القرى حتى قيل انه لم يكن يوجد بيت منها يخلو من جارية أو أكثر اذ بلغ عدد هؤلاء ثلاثة آلاف من الجوارى البيض والحبشيات اللواتى جلبهن محمد على وأبناؤه من شركسيات وقبرصيات وسودانيات الخ .. وهكذا بدأ محمد على حكمه لمصر التى ادعى أنه جاء ليحررها من الأجانب .. بدأ حكمه بالعمل على اخضاع الأسرة المصرية لسيطرة هذه الحثالة الأجنبية من الجوارى بقصد تلقيح الدم المصرى بالدماء التركية التى تجرى فى شرايينه ليتحقق له خلق أجيال مصرية ترث صفات الاستكانة

من أمهاتها الرقيق بما يضمن ترويض سكان مصر على احتمال حكم أسرته الأجنبية لوادى النيل ..

وقد نجح محمد على الى حد بعيد فى تمكين هؤلاء الجوارى من السيطرة على البيوت المصرية ، وانتزاع الأزواج من نسائهم الوطنيات حيث أصبحت الجارية فى أكثر الأسر المصرية هى الزوجة الأولى والمحظية المقدمة على سائر نساء الأسرة ، وبالتالى كانت هى أم الجيل الناشىء ومربيته ، وملقنته لغتها الأجنبية وتقاليدها .

وكان هذا هو الخطر الذى بات يهدد كيان نساء النيل ، أصحاب الحق الشرعى فى السيادة فى بيوتهن .. وهو خطر لم تتنبه له المصريات فى البداية..فظلت الزوجة المصرية وقتا مستسلمة لمعاشرة منافستها التركية ومقاسمتها لها فى رجلها وبيتها فقد كانت عهود الطغيان والجمود التى مرت بها قد روضتها على الصمت والاحتمال وهى التى هوت بآدميتها حتى جعلت منها احدى قطع الأثاث الجامدةفى البيت ، بل لاتعدو — فى أسعد الحالات — أن تكون أداة زينة وأنثى لحفظ النوع ، وخدمة الزوج والولد .. لم تكن وهى على ما هى عليه من الحرمان من العلم والحرية والشعور بالذات .. لم تكن لتستشعر خطر سيادة الجوارى الأجنبيات على أسرتها أو خطر انفرادهن بالنفوذ فى بيتها لأنها لم تكن تملك أسباب السيادة أو النفوذ فى مجتمعها فى ذلك العهد ، حيث كانت السلطة بكل أنواعها ، وفى كل ميادينها ، حكرا على الغزاة والمحتلين والحكام الأجانب المتحكمين فى كل نواحى الحياة المصرية عن طريق الارهاب ، والسلب ، والتآمر على اغراق الشعب — بنسائه ورجاله — فى الجهل والفقر والذل .

لذلك فلم يكن غريبا أن تأتى مظاهرة محمد على الخاصة برعايته المرأة المصرية دعاية فاترة جوفاء لا تمتد جذورها الى جوهر المشكلة — النسائية وانتشال المرأة من جهلها وتأخرها .

فلم يحاول الدعوة الى تعليم الفتاة أو سن القوانين لانصاف المرأة

المصرية بل اكتفى باصدار أمره الى « حبيب افندى مأمور الديوان الخديوى » بالحاق مدرسة للحكيمات بمدرسة الطب التى أنشئت بأبى زعبل كما قصر الدعوة للالتحاق بهذه المدرسة على الفتيات الحبشيات والسودانيات يصاحبهن فى تلقى الدراسة بعض الأغوات ! وكان ذلك فى عام ١٨٣١ ثم لم يمض وقت طويل حتى تسربت بعض الفتيات المصريات من بنات الجند واليتامى الى هذه المدرسة بعد أن نقلت مع مدرسة الطب من أبى زعبل الى القاهرة حيث يوجد الآن مستشفى « قصر العينى » .. وكانت الدراسة فيها تحوى بعض أصول الدين ومبادىء القراءة والكتابة والحساب مع رسالة مترجمة فى فن الولادة . وكان نجاح هذه التجربة الأولى رغم بساطة مادتها مغريا للأسر الشعبية على دفع بناتها الى حيث بزغ هذا القبس الضئيل من نور العلم والمعرفة .. ومن ثم اتسعت المدرسة حتى أصبحت تضم مئات من فتيات العاصمة والأقاليم خصوصا ، وكان التعليم فيها بالمجان مع مكافأة شهرية قدرها عشرة قروش فى السنة الأولى تظل فى تزايد حتى تبلغ خمسة وثلاثين قرشا لطالبة السنة النهائية .

وسرعان ما برزت أمام الحكومة والشعب مدى الفائدة التى تقدمها خريجات هذه المدرسة فى مجال تخفيف الآلام والأخطار التى تحيق بالسيدات الحوامل والمواليد بعد أن كانت عملية الوضع تتم على أيدى مولدات جاهلات قذرات فى ظروف غاية فى الخطورة والمشقة .. وهكذا ارتفعت قيمة هذه المدرسة خاصة فى نظر أعيان البلد وحكامها الذين حرصوا على احتكار خدمات الكثيرات من الخريجات للعناية الخصوصية « بحريمهم » فبادرت الحكومة الى تشجيع الفتيات على الالتحاق بمدرسة الولادة فى صور مغرية منها تميز طالباتها باستبدال الخبز «الجراية» الذى كان يصرف لهن طبقا لما يتبع فى مدارس البنين بخبز « مخصوص » ومنح كل تلميذة « طربوش » من صنع فوة ، وصديرى جوخ بقيطان حريرى وحزام الى جانب جميع الملابس الداخلية مع طرحة وجبرة وسبلة !!

وكانت الخريجات يوزعن على المحاجر الصحية فى الموانىء المصرية والأقسام بالقاهرة للكشف على المرضى من النساء بعد أن يعين لكل حكيمة منهن « حمار » لتنقلاتها وساع لمصاحبتها كما كانت تمنح لقب « افندى » ورتبة ملازم ثان « وتعطى » مرتبة لمن تعين من هؤلاء الخريجات فى وظيفة التدريس فى المدرسة !!

ومن الطريف ان ديوان المدارس وكان فى مقام وزارة المعارف الآن كان يأخذ على عاتقه مهمة تدبير الأزواج للحكيمات بنفسه . فكان يوزع لها الغرض منشورا دوريا على الأطباء الرجال يدعو فيه الأطباء العزاب بتسجيل أسمائهم مع شهادة بحسن سيرهم وسلوكهم وموافقتهم على التزوج من زميلاتهم الحكيمات كما كان الديوان يحرص فى تعيينات الأطباء والحكيمات على أن يجىء تعيين كل زوجين منهما فى بلد واحد .

وكانت مدرسة الولادة هذه هى كل نصيب المرأة المصرية فى عهد محمد على ومع ذلك فقد كان للعلامة « كلوت بك » اليد الطولى فى رعايتها ..

عصر اسماعيل :

ونمر — مرور الكرام — على عهود ابراهيم وعباس وسعيد فقد كانت رمزا للتأخر والجمود اذ وقف هؤلاء وخاصة الأخيرين فى وجه كل نهضة وكل اصلاح، وكل دعوة للانشاء والتعمير فلم يكن لها حتى دهاء والدهما — محمد على — الذى كان يرى تغطية طغيانه ببعض مظاهر الاصلاح كما قلنا ، ويكفى دليلا على غباء الولدين اقدام كليهما على اغلاق المعاهد والمدارس وهو ما يصور لنا مدى ضيق أفقهما ، وتآمرهما على تقدم الشعب الذى يعتبر العلم هو سلاحه فى معركة الحياة لأنه السبيل الى مستقبل أرقى وأسعد .

ولست فى حاجة بعد ذلك الى الاشارة الى ان حكم عباس وسعيد

فى مستقبل مصر كان بمثابة حجر عثرة فى طريق الانتعاش الذى كانت المرأة قد بدأت تخطو اليه .

حتى اذا جاء عصر اسماعيل عاد الأمل يدب فى صدر المرأة من جديد فقد كان اسماعيل أكثر دهاء وكانت سياسته تهدف الى تخدير الجماهير بتحقيق بعض مطالبها ، كما تهدف الى الدعاية لنفسه والتقرب الى الشعب والظهور بمظهر الغيور على مصالح المصريين العامل على رقيهم وتحضرهم .. فلم يرمانعا من تخصيص بعض المال الذى كان يغترف أكثره لنفسه .. لم ير مانعا من تخصيص بعض هذا المال للتعليم .. ولعله ظن ان ذلك من شأنه تغطية جرائم النهب وفضائع الاسراف والتبذير التى كان يرتكبها فى سبيل ترفه ومجونه ، فقد بادر اسماعيل الى اعادة ديوان المدارس ورصد له ميزانية معقولة كانت سببا فى اعادة فتح المدارس المغلقة وترحيل البعثات الموقوفة ، ومن حسن الحظ أن المشرفين على ديوان المدارس من رجالات مصر المثقفين أمثال العلامة رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك وغيرهما انتهزوا هذه الفرصة ومضوا يدفعون بالتعليم نحو الكمال والانتشار فلم يلبث عدد المدارس والمعاهد أن تزايد الى حد كبير وبزغت نهضة علمية مشرقة لم تتخلف الفتاة المصرية عن السير معها بفضل تشجيع العلماء والمفكرين المصريين أنفسهم .. وكان أول صوت ارتفع بالدعوة الى افساح مجال التعليم أمام الفتاة المصرية التى كانت محرومة منه تماما هو صوت « رفاعة رافع الطهطاوى » .. اذ لم يترك مناسبة وهو عضو بديوان المدارس الا وطالب فيها بانشاء مدارس لتعليم الفتيات حتى وفق الى حمل الديوان على اصدار قرار بحق المصرية فى التعليم ، ولكن القرار ظل حبرا على ورق حتى عام ١٨٧٣ الذى تم فيه انشاء أول مدرسة ابتدائية لتعليم الفتاة على أثر اصدار رفاعه بك كتابه المعروف « المرشد الأمين للبنات والبنين » عام ١٨٧٢ وقد دعا فيه الى تعليم البنات واعدادهن عن طريق التربية للعمل والقيام بواجبهن فى المجتمع .. فرفاعة الطهطاوى لم يكتف بالدعوة الى تعليم الفتيات بل

صحب دعوته هذه بأخرى هى افساح المجال أمامها للنزول الى ميدان العمل والمجتمع .. فكان هذا الكتاب هو أول سطر واع يخط فى صفحة النهضة الحديثة للمرأة المصرية . واذا كانت مكانة رفاعه الطهطاوى قد بلغت الذروة بين معاصريه فى العلم والفكر والتحرر فان موقفه المجيد من الدفاع عن حق نساء وطنه فى الفرص المتساوية مع الرجال فى العلم والعمل هو ولا شك رمز ما تميزت به عقليته الفذة من ادراك ونضج وتحرر ومن كتابه أنقل هذه الأسطر التى يتبين فيها دفاعه عن حق المرأة فى العلم والعمل على أسس قوية منطقية يخاطب بها مواطنيه يقول « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الأزواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهن ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من طيش وسخافة عقل مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لامرأة جاهلة مثلها وليمكن المرأة عند اقضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن . وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فان فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء . فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة . واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة كبيرة فى حق النساء ! »

أما المدرسة الأولى التى جاء انشاؤها صدى لدعوة الطهطاوى فكانت مدرسة « السيوفية » التى تولت السيدة « جشم أفت هانم » الزوجة الثالثة لاسماعيل تأسيسها على نفقتها الخاصة حيث استقبلت فى عامها الأول مائتين من الفتيات وصلت الى أربعمائة فى أول العام التالى مباشرة .

وكانت تقدم التعليم والمأكل والملبس بالمجان ، وتولى نظارتها فى البداية « حسن افندى صالح » ثم خلفته فيها مدام روزه !

وكانت مدرسة السيوفية هذه فاتحة قائمة مدارس البنات التى أخذت

تتوالى وتنتشر بعد ذلك اذ أعقبتها فى العام التالى لتأسيسها مدرسة بنات ثانية فى « القربية » .

كما نشطت بعد ذلك الهيئات الى انشاء مدارس البنات وفيها مدرسة « السقايين » ومدرسة « الأزبكية » القبطيتين ومدرسة « الجمعية الخيرية الاسلامية » بالاسكندرية للبنات والبنين وهى الجمعية التى أسسها الشيخ العالم السيد عبد الله نديم عام ١٨٧٩ ..

وسرعان ما حققت الأيام رأى رفاعه الطهطاوى فى أثر التعليم فى خلق المرأة الفاضلة العالمة الراقية .. فقد طرحت شجرة العلم ثمارها ولم ينقض عصر اسماعيل الا وقد شهدت مصر طليعة نسائها العاملات العالمات .. فى كثير من الشخصيات النسائية البارزة أذكر منهن السيدة الجليلة تمرهان هذه الطبيبة النابغة التى تخرجت فى مدرسة القابلات السابق الاشارة اليها ثم رفعتها مهارتها فى مهنة الطب لرئاسة هذه المدرسة فى عهد اسماعيل ولم يقف نبوغها عند حد العمل فى مجال الطب فقد تركت خلفها بعض المؤلفات العلمية الغزيرة المادة التى أفرغت فيها خلاصة تجاربها ومعلوماتها لتكون مرجعا لتلميذاتها من بعدها وأذكر من هذه المؤلفات كتاب (محكم الدلالة فى أعمال القبالة) وقد طبع فى عام ١٢٨٦ هجرية .هذا فضلا عن اشتغالها بأرفع المهن ألا وهى مهنة الصحافة ، فقد كانت عضوا فى تحرير مجلة الحكومة « يعسوب الطب » ولها فيها مقالات طبية ممتعة تكشف عن مواهب المرأة المصرية وتبين قدرها حين تتاح لها فرصة الحرية والانطلاق . ومن الرعيل الأول الذى ظهر فى أعقاب النهضة التعليمية فى عصر اسماعيل ظهور سيدة عظيمة الخطر بعيدة الأثر هى عائشة عصمت تيمور الشاعرة الأديبة النابغة التى خلد التاريخ اسمها بأحرف من نور فى عالم الشعر والأدب والعلوم والفنون ، ولاتزال تردد شعرها ونثرها الأجيال ، جيلا بعد جيل .

ومن شهيرات العلم والأدب فى عصر اسماعيل السيدة « ستيته الطبلاوية » و « فاطمة الأزهرية » كما برز اسم الفنانة المطربة « الماس »

التى تزوجت من عبده الحامولى فنان ذلك العصر فكانت ملهمة فنه الرائع وشريكته فى بناء مجده الفنى الذى ارتفع به الى القمة .

والآن أريد أن ألخص ما جاء فى هذا الفصل .. أولا ان بداية النهضة النسائية الحديثة قد بدأت أولى خطواتها فى أواخر حكم اسماعيل حيث كان فتح باب التعليم أمام الفتاة المصرية هو الدرجة الأولى التى ارتقتها المرأة المصرية فى صعودها طريق التقدم والتحرر الفكرى ، ولا غرو فالعلم دائما هو النور الهادى سبيل الباحثين عن السعادة والحرية والكمال ..

وثانيا فاننى أردت أن أسجل هنا وبكل فخار ان كل خير وكل تقدم نالته المرأة المصرية فى عهود أسرة محمد على كان بفضل جدارة المصرية نفسها ومن صنع أيدى وعقول مواطنيها المصريين أبناء الفلاحين من هؤلاء الأحرار الذين أخذوا على عاتقهم أمانة الدفاع عن حق مواطناتهم فى العلم والحياة الكريمة أمثال رفاعه الطهطاوى وعلى مبارك والسيد عبد الله نديم فى عصرى محمد على واسماعيل ومن خلفهم فى اتمام هذه الرسالة العظيمة فى العصور التالية أمثال قاسم أمين ومحمد عبده مما سيأتى عنه الكلام فيما بعد !

سيدات كافحن من أجل المرأة

بالرغم من الستار الكثيف الذى فرضته تقاليد العصر التركى على المرأة المصرية للحيلولة بينها وبين التمتع بحقوقها ، أقول بالرغم من هذا فقد استطاعت احدى المصريات أن تحطم هذه التقاليد وأن تظهر فى الأفق وفى سماء مصر ، وأن تحمل الرجال على الاشادة بفضلها وعلمها وأدبها وأن تأخذ مكانها بالرغم منهم فى هذا المجتمع المصرى ويتحدث الناس باسمها ويتسابق الرجال الى حفظ أشعارها وترديده ووضعها فى مكان الصدارة بين كبار رجال الفكر والعلم والأدب .

وكانت السيدة التى حطمت هذه التقاليد وكسرت هذا السياج هى السيدة عائشة التيمورية كريمة المغفور له أحمد تيمور باشا من رجال مصر المعروفين البارزين فى ذلك العصر .

وقد ولدت السيدة عائشة التيمورية بالقاهرة فى سنة ١٨٤٠ م ولما شبت عن الطوق واستقبلت الحياة أرادت والدتها أن تعلمها كما يتعلم أترابها أشغال الابرة والحياكة فكانت تفر منها وتتجه نحو كتب الأدب تعكف على قراءتها وحفظها وتحاول تقليد كبار الكتاب والشعراء بمجاراتهم فيما يكتبون وما ينشدون من شعر وحاولت والدتها أكثر من مرة أن تثنيها وتقف فى طريقها لافهامها أن المرأة لا تصلح لشىء من ذلك وأن الوضع بالنسبة لها هو أن تعد نفسها لتكون ربة بيت وحسب ولكن الأم لم تستطع التغلب عليها وثابرت عائشة على دراسة الأدب وانشاد الشعر حتى غدت أديبة وشاعرة يشار اليها بالبنان وملأت أعمدة الصحف والمجلات بمقالاتها وأشعارها التى لها صدى بعيد بين عامة الناس فى عصرها وفى الأوساط الأدبية على الخصوص وماتت هذه السيدة الفاضلة فى

سنة ١٩٠٢ م وقد خلفت وراءها ثروة أدبية واسعة ومؤلفات ضخمة وجميلة من دواوين الشعر الذى قالته فى جملة من الأغراض .

وقد برهنت هذه السيدة الكريمة بصنيعها على أن المرأة تستطيع أن تحتل مكانها عن جدارة فى الميادين التى يراها الرجال وقفا عليهم وحدهم . وأن ترغمهم على افساح الطريق أمامها والاشادة بجهادها وكفاحها .

باحثة البادية

أو السيدة ملك حفنى ناصف

وهذه سيدة أخرى حطمت القيود وكسرت الأغلال التى فرضت على المرأة فلم تشأ أن تقبل هذه القيود وأن تخضع لهذه الأغلال فقامت تطالب بحقوق المرأة وتدافع عنها بعد أن حصلت على قسط وافر من التعليم وحصلت على الشهادات التعليمية التى كانت تعطى للمرأة فى ذلك العصر وقد كتبت فى « الجريدة » مجموعة من المقالات خاصة بشئون المرأة وضمتها بعد ذلك فى كتاب أسمته « النسائيات » .

ووضعت كتابا بعنوان « حقوق النساء » لم يتيسر لها طبعه ولكنها نشرت جزءا منه فى جريدة « الجريدة » وأهم ما نشرته فى هذا الجزء هو حق المرأة المسلمة فى الانتخاب ، والموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية ومقال آخر عن حقوق المرأة المسلمة .

وقدمت للمؤتمر الذى عقد فى مايو سنة ١٩١١ م بمصر الجديدة رسالة ضافية ضمنتها آراءها السديدة فى وسائل ترقية المرأة المصرية واعطائها حقوقها .

وكانت كتاباتها ورسائلها غاية فى السمو ورقة فى الأسلوب ولجمال أسلوبها وعنايتها برصفه سميت « باحثة البادية » وقد نظمت الشعر

وأنشدت جملة من القصائد كان الكثير منها فى النهوض بالمرأة وتوجيهها الى حقها فى الحياة ومن ذلك شعرها تخاطب المرأة فى أمر السفور والحجاب:

سيرى كسير السحب لا تأنى ولا تتعجلى
لا تكنسى أرض الشوا رع بالأزار المسبل
أما السفور فحكمه فى الشرع ليس بمعضل
ليس النقاب هو الحجا ب فقصرى أو طولى
لا ابتغى غير الفضيـ ـلة للنساء فأجملى

* * *

وقد ولدت ملك ناصف بالقاهرة فى سنة ١٨٨٦ م وماتت فى ١٣٣٧ هـ وتركت بعدها فراغا شاسعا ومكانا خاليا فى الكفاح من أجل قضية المرأة المصرية والمناداة بحقوقها .

الشيخة « فاطمة الأزهرية »

ولا أدرى ماذا يقول رجال الأزهر حينما يقرأون هذا الكلام وقد نصبوا أنفسهم مناهضين لحقوق المرأة خصوما لها ماذا يقولون اليوم وقد تربت فى الأزهر من قبل سيدات وصلن الى نهاية المراحل العلمية فى الأزهر وتقدمن لامتحان العالمية ومنهن الشيخة فاطمة الأزهرية التى أتحدث عنها اليوم فقد درست هذه السيدة علوم الأزهر وحضرت على كبار علمائه مع الرجال جنبا الى جنب ونبغت فيها أيما نبوغ وكانت تدرس علوم اللغة العربية للسيدات اللواتى يردن دراستها .

وقد أبى رجال الأزهر على هذه السيدة ومثيلاتها اعطاءهن شهادة العالمية لما تقدمن للامتحان خوفا من مزاحمة المرأة لهن فى مناصب التعليم بالأزهر .

وقد ناظرت هذه السيدة كبار العلماء وتفوقت على الكثير من مناظريها وكانت حجة فى الدين واللغة .. ولكن خصومها كانوا هم الحكام فى أمرها فلم ينصفوا نبوغها باعطائها شهادة العالمية هى ومثيلاتها .

ومهما يكن من شىء فقد كانت المرأة تتلقى علومها فى الأزهر وتجلس الى أساتذته تتلقى منهم وتناقشهم وتنتقل من علم الى علم ومن درس الى درس ولم ينكر أحد عليها هذا الحق أو يقم ضجيجا حولها كما يقيم رجال الأزهر هذا الضجيج اليوم حول مطالب المرأة وحقوقها .

السيّدة نبوية مُوسَى

وجهت هذه السيدة حياتهـا بعد اتمام علومها الى الغـاية بتعليم المرأة وتثقيفها وتهذيبها وتسليحها بالعلم فكانت أنموذجا حيا فى هذا المضمار ووصلت الى أرقى المنـاصب فى وزارة المعـارف ثم آثرت الاستقالة حينما لم تأخذ الوزارة بتوجيهاتها فى بعض النواحى التربوية الخاصة بتعليم البنات ونزلت الى ميدان الكفاح العلمى فأنشأت عـدة مدارس نموذجية لتعليم الفتيات ونجحت فى رسالتها نجاحا باهرا وظلت تؤدى رسالتها حتى لقيت ربها .

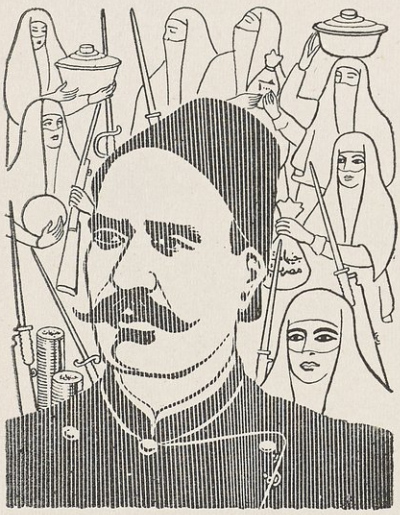

السيدات
فى حركة عرابى

وقد ظلمت المرأة المصرية فيما كتب عن ثورة عرابى ، فلم ينصفها احد من المؤرخين الذين أخذوا على عواتقهم تسجيل تلك الحركة التاريخية الكبرى .. فهل كانت جريمة المرأة اذ ذاك انها تعيش من وراء حجاب . بما تفرضه عليها تقاليد عصرها من قيود وأغلال فلا يكاد الناس يحسون الدور العظيم الذى لعبته فى نهضة بلادها ؟ .

ومع ذلك فلنحسن الظن بالسادة المؤرخين اذ كانت التقاليد أيضا تمنع الرجال اذ ذاك من أن يتحدثوا عن أدوار زوجاتهم وبناتهم ، بل كان من العار وقتها أن يذكر اسم المرأة فى مجالس الرجال .. ومن هنا فأننى أعذر المؤرخين الذين أغفلوا دور المـرأة فى الثورة العرابية لصعوبة الحصول على « مصادر » رواياتهم عن ذلك الدور .

وقد تعبت كثيرا فى تتبع هذا « الدور النسائى » فى حركة عرابى فلم يتزعزع ايمانى لحظة واحدة فى ان المرأة التى كانت تعانى كل ما يعانيه الشعب من أسباب التذمر والسخط التى أوحت بتلك الحركة.. لم يتزعزع ايمانى فى ان المرأة المصرية التى كانت تئن من تطفل الجوارى الشركسيات والتركيات على بيوتها ، ومزاحمتهن لها فى رجالها .. كان من المستحيل عليها أن تقنع بدور « المتفرج » على تلك الثورة من وراء الستائر المسدلة والمشربيات الشرقية المزخرفة .

كلا ولا يمكن أن تقنع أيضا بتلك الأغنيات الحماسية التى يشجعن بها أبناءهن وأشقاءهن « يا مولانا يا عزيز .. كبه تاخد الانجليز .. » !

بل لقد لعبت المصرية دورا سريا هاما كان هو عماد الثورة واحتياطيها الضخم .. فقد صاحب ظهور الحركة العسكرية ظهور جماعتين ثوريتين..

احداهما جمعية حلوان ، والثانية جمعية « مصر الفتاة » بالاسكندرية ، وكانت كلتاهما جماعة سرية ، وان تطورت الأخيرة فيما بعد الى حركة علنية لم تلبث أن أخمدتها الحكومة وعطلت جريدتها ..

ففى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ — أى قبل الحركة العرابية بعام واحد — أذاعت جمعية حلوان بيانا سريا ضد طغيان رياض باشا وبلغ عدد النسخ التى وزعت منه عشرين ألف نسخة وهو عمل رهيب فى ذلك الوقت ، دون أن تتمكن حكومة رياض باشا من ضبط أحد من موزعيه أو معرفة مصدره أو مكان طبعه ويقول مسيو جون نينيه الذى عاصر الثورة العرابية وسجل وقائعها من مذكراته ان هذا المنشور بالذات كان من أكبر الأعمال التى عجلت باسقاط ذلك الحكم الاستبدادى البغيض .. فهل يعلم المصريون من أبناء الجيل الجديد ان حرم المرحوم اسماعيل راغب باشا وحرم المرحوم شاهين باشا كنج . كانتا صاحبتى الفضل فى توزيع ذلك البيان التاريخى ، بهذه البراعة ، ودون أن يفطن الى موزعيه — بل الى موزعاته — أحد من رجال الحكومة ؟

نعم .. كان اسماعيل « باشا راغب » يعرف ان عيون الخديو وعيون رياض باشا منبثة حول بيوت المناضلين الأحرار فى ذلك الوقت ، من أمثال شريف باشا وعمر باشا لطفى وحسن الشريعى باشا واحمد عرابى « بك » الخ فهداه تفكيره الى ان أحدا لن يشك فى « السيدات » أو يجرؤ على تفتيشهن فى ذلك الوقت .. ولم تلبث حركة التوزيع ان عنيت بتجنيد السيدات عن طريق هاتين البطلتين .. وفى خلال ثلاثة أيام كانت المنشورات تنتقل من بيت الى بيت ومن بلد الى آخر عن طريق الجندى المجهول فى الثورة العرابية.. المرأة المصرية !

ومن الطريف ان بعض تلك المنشورات وضعت اذ ذاك فى قصور الخديو ورياض باشا .. بواسطة بعض الوصيفات اللواتى كن يؤيدن حركة التحرير ، أو حركة الاصلاح كما كانوا يسمونها وقتذاك !

وكما لعبت المصريات هذا الدور فى جمعية حلوان — الحزب الوطنى

الأول — فكذلك لعبن أدوارا مماثلة فى حركة «مصر الفتاة» بالاسكندرية فلما بدأت الشرارة الأولى فى الثورة .. عندما استدرج عرابى وزميلاه الى ثكنات قصر النيل لمحاكمتهم ، كانت المرأة المصرية كعادتها تلعب دورها من وراء ستار ، فهى التى تنقل الأنباء بطريقتها الخاصة ودون أن يتنبه اليها أحد أو يشك فيها عين من عيون الاستبداد !

ويتحدث السيد عبد الله نديم نفسه عن فترة اختفائه بعد الثورة مدى تسع سنوات فيعترف بفضل كثير من السيدات اللواتى كن يعرفنه رغم تنكره ، فلا يوشين به برغم الجائزة الكبيرة التى رصدتها الحكومة لمن يرشد عنه ، وكن لا يضحين بهذه المكافأة المالية الضخمة اذ ذاك فقط ، بل كن يساعدنه على التخفى والاختفاء ويتعرضن فى سبيل ذلك أو يعرضن رجالهن على الأقل لكثير من الأذى والخطر !

ذلك هو مجمل الدور العظيم الذى لعبته المرأة المصرية فى أول ثورة ديمقراطية عرفتها مصر ، وان تاهت « التفاصيل » فى بحر من التقاليد العتيقة وفيض من الجمود البغيض للمرأة المصرية !

ومع ذلك فقد كانت هناك حقيقة بارزة لم تستطع كل تلك الظروف أن تطمس معالمها ، ونعنى بها ما اعترف به بعض المؤرخين ، من ان المرأة المصرية ظهرت فى الخطر — الخطر عندما بدأت البوارج البريطانية تطلق مدافعها على مدينة الاسكندرية .. ظهرت بعض النساء ، وأبدت من ضروب الحماسة والشجاعة ما لفت اليها الأنظار !

ولعل الحقيقة الكبرى ان بعض جثث الضحايا الذين أسقطتهم مدافع المستعمرين .. كانت جثث نساء ، فى الوقت الذى كانت المرأة المصرية مسجونة فى بيتها تقوم بينها وبين الطريق أسوار عالية من الجهل والتأخر ، والجمـود !!

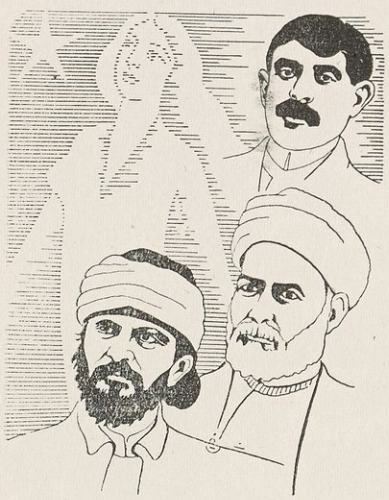

الأفغاني

والشيخ محمد عبده وقاسم أمين

ينتصرون للمرأة

ان الشعوب لا تموت أبدا مهما طالت بها ليالى الظلم والجمود ، وهى حين تستيقظ فجأة لا يكون ذلك عادة الا بما يتسلل الى عقول أبنائها من الوعى الذى ينيرها ويوضح لها الطريق .. وكيف يتسلل نور الوعى الا متسلقا أقلام الكتاب الأحرار وألسنة الخطباء الثوار .. انها الشرارات المقدسة التى تلهب المشاعر الخامدة وترسم طريق الاصلاح بما تحمله من رسالات وما تدعو اليه من تحرر فكرى . فمن غير هذه الوثبات الفكرية لا تتهيأ النهضات الاصلاحية والانقلابات التجديدية .. وما زلنا جميعا نذكر كيف ان « جان جاك روسو » كاتب فرنسا الخالد هو الذى وضع أسس الثورة الفرنسية بما كان ينشره من أفكار متحررة ، حتى لقد اعتبر مؤلفه العظيم (العقد الاجتماعى) دستورا للحرية على مر العصور ..

وكان هذا هو ما حدث فى مصر أيضا عندما قام نفر من كتابها وعلمائها يرسمون لمصر معالم نهضتها فى أواخر القرن التاسع عشر فكان لهم الفضل الأول فى وضع هذا الحد الفاصل بين أجيال التأخر والجمود .. وبين جيلنا الجديد المستنير .. وان مصر اليوم — فى القرن العشرين — لتدين بيقظتها وتطورها الى تلك النهضة الفكرية البكر التى حمل لواءها أولئك الرواد الأوائل .. كتاب وخطباء وزعماء القرن الماضى ..

* * *

ولعل أهم ما أفادته مصر فى ذلك القرن هو ايفاد الطلاب المصريين فى بعثات علمية الى الخارج .. اذ لم تمض أعوام على عودة النابهين من أولئك الطلاب الى مصر حتى كانت صيحة الاصلاح والتجديد تنطلق بها أقلامهم الحرة الجريئة لتملأ سماء مصر تمهد لثورة فكرية تقوم على أساس من العلم والحقيقة .

وكالعهد بكل دعوة اصلاحية جديدة ، انقسمت الآراء حول تلك الدعوات الجريئة التى حمل لواءها قادة الفكر فى أيام حكم اسماعيل وما بعده ، أمثال جمال الدين الأفغانى الذى جاء الى مصر وفى جعبته كنوز حكمته وعلمه التى لم تلبث أن أصبحت مشعلا فى تاريخ « الذهن » المصرى الجديد .

وهكذا لم يغادر جمال الدين أرض مصر منفيا من حكامها الطغاة الا بعد أن أعد الطليعة الواعية من شبابها الذين تلقوا على يديه دروس التحرر الاجتماعى والتحرر السياسى ومنهم من ساعدته الظروف على اكمال نضجه الفكرى فى باريس بلد النور كالامام الشيخ محمد عبده تلميذ حكيم الشرق الأكبر ، والى جانب الامام عاش نصير المرأة « قاسم أمين » يخصص جهده الأكبر للدعوة الى نهضة نسائية شاملة .. هذان الرجلان اللذان خاضا المعركة الأولى دفاعا عن نساء مصر وحقهن فى الحرية والكرامة ، اذ نادى الشيخ الامام بتقرير حق المرأة المسلمة فى التحرر من المظالم التى تعانيها باسم الدين والدين — كما استوعبته عقليته الناضجة المتحررة — براء من تلك المفتريات والأكاذيب . كما قام قاسم أمين يطبق هذه العدالة الشرعية التى كشفها صديقه الشيخ الامام عن حق المرأة فيها على حقوق المرأة الاجتماعية والانسانية . فاجتمعت للمرأة المصرية على يديهما نهضة بكر هى أساس النهضة النسائية الحديثة .

الشيخ محمد عبده

ولا أعدو الحقيقة اذا قلت ان موقف الأستاذ الامام فى ذلك كان يعنى الدفاع عن سمعة الشريعة الاسلامية وكيان الدين الاسلامى ضد ما يلصق بهما من افتراءات تحمل طابع الظلم للمرأة والاستبداد بها مما يفتريه على الدين جموع الجهلاء والمغرضين فقد اهتم بأن يخصص لحكم

الشريعة فى أحوال المرأة المسلمة مكانا بارزا فى تفسيره الحر للقرآن الكريم ، وهى شجاعة لا تتوفر الا لمن هو فى مكانة الشيخ الامام وعلمه وتحرر عقليته وسلامة وجدانه . بل لعل فى مقدمة ما جاء فى تفسيره لموقف الاسلام من أحوال المرأة تصديه لدفع الظلم الذى يحيق بالمرأة المسلمة فى ظل أسطورة حق الرجل فى الطلاق وتعدد الزوجات باسم الشريعة الاسلامية ، والشريعة اذا أخذت بروحها السمحة العادلة — كما استوعبتها عقليته المتحررة — لا يمكن أن تفسر على انها جاءت لتحكم الأغلال حول عنق المرأة أو تهدر حقها فى الحياة الحرة الكريمة التى أرادها الاسلام للانسانية جميعا .. على أن الشىء الذى رفع دفاع الشيخ محمد عبده عن المرأة الى أسمى مكانة فى رأيى هو انه كان يستمد حججه وبراهينه من آيات الله ، ومن نصوص التشريع الاسلامى مما لم يترك فرصة لخصوم المرأة وجموع الجهلاء لمهاجمته على نحو ما لا قاه زميله وصديقه قاسم أمين عندما قام يعلن حق المرأة فى التحرر والمساواة ، واننى لأعترف فى هذه المناسبة بما كان لمقالات الشيخ الامام وتفسيره لموقف الاسلام من الطلاق وتعدد الزوجات . من أثر كبير فى ايمانى بحقوق نساء وطنى فى الحرية والمساواة والعيش الكريم .. فقد كانت مقالات الشيخ محمد عبده وكتبه على رأس قائمة كبيرة بمحتويات مكتبة ثمينة أهداها لى والدى وهو يوصينى بأن تكون كتب الامام رائدى الأول فى التحصيل لدينى ودنياى .

ولم يفت الشيخ الامام أن يبرهن على تقدير الاسلام لمكانة المرأة فى الأسرة وحقها على زوجها فى وجوب احترامها وحسن معاشرتها ، وفى كتاب « تفسير المنار » قال ان الذكر والأنثى متساويان عند الله تعالى فى الجزاء متى تساويا فى العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن انه أقرب الى الله منها ولا تسىء المرأة الظن بنفسها فتتوهم ان جعله الله رئيسا عليها يقتضى أن يكون أرفع منزلة عند الله تعالى منها . وقد بنى الله تعالى المساواة بقوله « بعضكم من بعض » فالرجل مولود

من المرأة والمرأة مولودة من الرجل فلا فرق ولا تفاضل بينهما الا بالأعمال .

* * *

« أقول وفيه وجه آخر وهو ان كلا منهما زوج وشقيق للآخر وفى معنى ذلك حديث (النساء شقائق الرجال) قالوا أى مثلهم فى الطباع والأخلاق كأنهن مشتقات منهم ..

* * *

« هذه الآية ترفع قدر النساء المسلمات عند أنفسهن وعند الرجال .. (وعاشروهن بالمعروف) أى يجب عليكم أيها المؤمنون أن تحسنوا عشرة نسائكم بأن تكون مصاحبتكم ومخالطتكم لهن بالمعروف الذى تعرفه وتألفه طباعهن ، ولا يكون مستنكرا شرعا ولا عرفا ولا مروءة ، فتضييق النفقة والايذاء بالقول أو بالفعل وكثرة عبوس الوجه وتقطيبه عند اللقاء كل ذلك ينافى العشرة بالمعروف ، وفى المعاشرة معنى المشاركة والمساواة أى عاشروهن بالمعروف وليعاشرنكم كذلك .. وقد فسر المعروف بعضهم بالنصفة فى القسم والنفقة والاجمال فى القول والفعل وفسره بعضهم تفسيرا سلبيا فقال هو ألا يسىء اليها ولا يضرها وكل منهما ضعيف وجعل الأستاذ الامام المعنى فى المعروف على ما تعرفه المرأة ولا تستنكره وما يليق به وبها بحسب طبقتها فى الناس .. وقلما يقصر المسلمون فيما يجب للنساء .. بل هم أكثر أهل الملل انفاقا على النساء وأقلهم ارهاقا لهن بالخدمة ، ولكنهم قصروا فى أمور أخرى .. قصروا فى اعداد البنات للزوجية الصالحة بما يجب من التربية الدينية الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليم المغذى لهذه التربية فعسى أن يرجعوا بها عن قريب » .

هذه هى روح الاسلام الصحيحة كما استوعبتها عقلية محمد عبده المتحررة التى سبق بها عصره ورفع بها لواء الدين بما أظهره من سمو تعاليمه وعدالة شرائعه !

قاسم أمين

قاسم أمين هو نصير المرأة الأكبر الذى حمل نفسه رسالة الدفاع عن حرية نساء وطنه والدعوة الى تحريرهن فى زمن مظلم وبيئة غارقة فى التزمت والجهل والرجعية الأمر الذى جعل قاسم أمين يعانى فى سبيل دعوته الجريئة ما يعانى أصحاب الرسالات العظيمة أو دعوات التجديد فى المجتمعات المتأخرة ولكن شيئا مما كان يلاقيه « قاسم أمين » من معارضة وهجوم لم يقو على اخماد حماسته وايمانه بعدالة القضية التى تصدى للدفاع عنها . فمضى يواصل كفاحه الشاق داعيا لحق المرأة فى التحرر على أساسين كانا هما الحجر الأول فى بناء نهضة المرأة الحديثة فقد أخرج كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » ليناقش فيهما قضية المرأة من نواحيها المختلفة مبديا حجته فى ضرورة تحررها ورفعها الى المكان اللائق بها بجوار الرجل فى ميادين التعليم وتحمل المسئوليات فهو يقول عن سفور المرأة « كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة وكيف يمكن لخادم محجوبة أن تقوم بخدمة منزل فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة أن تدير تجارتها بين الرجال ؟ كيف يتسنى لزارعة محجوبة أن تفلح أرضها وتحصد زرعها ؟ كيف يمكن لعاملة محجوبة أن تباشر عملها اذا أجرت نفسها للعمل فى بناء بيت أو غيره من الأعمال ؟ .

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه للنوع الانسانى ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه فى الوصول اليه . ووضع للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق . وسوى فى التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة فى هذا النوع ولم يقسم الكون بينهما قسمة أخرى ، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن ، وجانبا للرجال يعملون فيه فى عزلة عن النساء ، بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين شائعا تحت سلطة مواهبهما بلا تمييز فكيف يمكن مع هذا لامرأة أن تتمتع

بما يشاءالله أن تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والحقوق وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال اذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال الا من كان من محارمها ؟ .

لا ريب ان هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل ، لهذا رأينا ان الضرورة قضت على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب طبقات المسلمين كما نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى ، حتى من أهل الطبقة المتوسطة ، بل عند بعض أهل الطبقة العليا من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون بل قد يكون الدين أمكن فيهم من أهل المدن .

بهذا المنطق الواقعى حلل قاسم أمين مأساة الحجاب الذى كان يحجب عن نساء جيله نور الحياة والحرية ويسلبهن فرص العلم والعمل . فقاسم أمين لم يعالج مشكلة الحجاب على أساس منفصل عن جوهر القضيه النسائية الذى أدركه بعقليته المتحركة ، وهو ان تحرير المرأة وسفورها ضرورة يمليها الواقع وتفرضها حاجة الوطن الى التخلص من قيود التأخر والجمود التى شلت انتاج نصف الأمة ، وحالت بين المجتمع المصرى وبين أسباب التحرر الفكرى والاقتصادى والقومى .

وها هو ذا قاسم أمين يدعو مواطنيه وأبناءهم الى المساواة بين تعليم بناتهم وأبنائهم فى كتابه « المرأة الجديدة » بقوله : —

« انه يجب على كل أب أن يعلم بنته بقدر ما يستطيع ، وأن يعتنى بتربيتها كما يعتنى بتربية أولاده الذكور فان تزوجت بعد ذلك فلن يضرها علمها بل انها تستفيد منه كثيرا وتفيد عائلتها ، وان لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب الكثيرة الوقوع أمكنها أن تستخدم معارفها فى تحصيل معاشها بطريقة ترضيها أو تكفل راحتها واستقلالها وكرامتها » .

وقاسم أمين الذى آمن بحق المرأة فى التعليم لم يغفل شرح أهمية تعليم المرأة لحماية نفسها وكرامتها وتأمين مستقبلها بل هو لم يغفل أهمية ربط تربية المرأة بتقويم أمتها وفى ذلك يرسل صيحته قائلا : —

« اذا أراد المصريون أن يصلحوا أحوالهم فعليهم أن يبتدئوا فى الاصلاح من أوله ، يجب عليهم أن يعتقدوا بأن لا رجاء فى أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمم الراقية فى عالم التمدين الانسانى قبل أن تكون بيوتهم وعائلاتهم وسطا صالحا لاعداد رجال متصفين بتلك الصفات التى يتوقف عليها النجاح . ولا رجاء فى أن تصير البيوت والعائلات الى ذلك الوسط الصالح الا اذا تربت النساء وشاركن الرجال فى أفكارهم وآمالهم وآلامهم ان لم يشاركنهم فى جميع الأعمال » .

على ان الشىء الذى يرتفع بعقلية قاسم أمين الى أعلى درجات الرقى والوعى ، هو أنه استطاع أن يعالج قضية المرأة من أساسها عندما جعل العمل للمرأة هو محور تحررها ..

وعندى ان فهم قاسم أمين لقضية المرأة على هذا الأساس هو السبب الأول فى نجاح رسالته وابراز شخصيته من بين كل من تعرض لمعالجة موضوع المرأة .. وهو فهم سبق به « قاسم أمين » عقلية جيله وبذلك استحق أن تكون له صفحة رسل الاصلاح .. هؤلاء الذين يحملون مشاعل الهدى ليهدوا الى الحق قوما ما كانوا ليهتدوا اليه من أنفسهم بغير تضحيات من الوقت والتجربة المريرة ، وان من يستمع لقاسم أمين وهو يسجل فى كتاب «تحرير المرأة» هذا التفسير المادى الصحيح لاستعباد المرأة برده الى أسباب اقتصادية .. ان من يستمع اليه وهو يقول : —

« فلأن النساء فى كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الأقل . فبتأوهن فى الجهل حرمان الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة ، وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى . ولا شىء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل مثل الغربية بالعلوم والفنون والآداب والتجارة والصناعة سوى جهلها واهمال تربيتها ، ولو أخذ بيدها الى مجتمع الأحياء ووجهت عزيمتها الى محاولتهم فى الأعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفسا حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك لا كما هى اليوم عالة لا تعيش الا بعمل غيرها » .

« مضت الأجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة لسلطان الاستبداد من الرجل ، وهو لم يشأ أن يتخذها الا أمرا صالحا لخدمته ، مسيرا بارادته وأغلق فى وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث اضطرها الى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها » .

أقول ان من يستمع اليوم الى هذا التحليل لاستعباد المرأة وهو التحليل العلمى الذى لم تصل اليه حتى اليوم سوى الأفهام الراقية الواعية .. ليدرك أى رجل كان « قاسم أمين » وأية عقلية ناضجة كانت عقليته .. بل شجاعته تلك التى جعلته يخرج على قومه بدعوته لتحرير المرأة !

المرأة المصرية
تدخل الحزب الوطنى

.. لم يستطع الخديو توفيق أن يطفىء شعلة الوطنية من قلوب المصريين .. صحيح انه طارد زعماء الثورة العرابية ، وزج بهم فى أحشاء السجون ، أو ألقى بهم الى المنافى البعيدة ، أو سلط عليهم أسلحة التجويع والتشريد والحرمان ، ولكنه لم ينجح رغم ذلك كله فى تحطيم الوعى الجديد الذى كانت الثورة العرابية قد نشرت ضياءه على الجماهير ، ولم يلبث هذا الوعى أن تمخض عن قيادة جديدة !

وكان القائد الجديد للشعب فى هذه الفترة هو مصطفى كامل ، ومن بعده محمد فريد .. وفى هذه المرة لم تقنع المصرية الطموحة بأن تلعب دورها من وراء الحجب كما فعلت فى الثورة العرابية ، فقد مدت يدها فأزاحت الستائر المسدلة عليها ، وأطلت من ورائها ، وأعلنت بملء الفم ، انها ستشترك بنفسها فى المعركة !

ولم يفت القائد الشاب أهمية الدور الذى يمكن أن يؤديه هذا الجندى الجديد الذى نزل الى الميدان دون أن يستأذن أحدا ، وأعنى به المرأة المصرية ، فما كادت عينه الفاحصة تلحظ هذا الجندى واقفا بين صفوف جيشه حتى اهتز وجدانه الوطنى فوجه الخطاب قائلا : —

لا داء أخطر بالأمة وأشد وبالا عليها مثل داء اعتقادها السوء فى نفسها ويأسها من مستقبلها ، فجاهدوا ضد هذا الداء ما استطعتم واعلنوا عليه حربا عوانا .. وبثوا فى أبناء الأمة مبادىء الثقة فى النفس والاعتماد على المجموع .. وربوا البنين والبنات على محبة الوطن ..!

وكانت هذه أول دعوة لتجنيد المرأة واعدادها لخوض المعركة الوطنية

ولكن بعد أن قررت هى النزول الى الشارع ، بالحبرة واليشمك ، لتؤدى ضريبة الوطن عليها ..

ولأول مرة فى تاريخ نضالنا الوطنى ، كان الزعيم يبدأ خطبه « سيداتى .. سادتى فلم تكن المرأة من قبل تظهر فى الاجتماعات السياسية .. ولكنها ظهرت فى هذه المرة لتستمع ، بل لتخطب أيضا فى مؤتمرات الحزب الوطنى نفسه !

نعم فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ حضرت بعض السيدات باليشامك والحبر الى دار اللواء ، وجلسن مع الحاضرين ولكن فى ركن قصى ، وكان ذلك موضع اعتزاز الزعيم الخالد وفخره .. ولم يكن ذلك غريبا على الشاب الذى أجمع المؤرخون على ان أكبر اثنين كان لهما أعظم الأثر فى حياته هما سيدتان — الأولى هى أم المرحومة السيدة « حفيظة محمد الألفى » التى يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بالحرف الواحد انه « كان لها فضل كبير فى تنشئته » والتى يصفها هو فى احدى رسائله بأنها « مالكة فؤاده » وهو ما يعبر عن مدى تأثره بها .

والثانية هى المناضلة الفرنسية الحرة « جولييت آدم » التى كتب لها — لأول مرة — فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ يقول : —

« أننى أبلغ من العمر واحدا وعشرين عاما ، وقد نلت اجازة الحقوق من تولوز قبل سنة .. وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والاخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة وطنى العزيز ، وقد قيل لى أكثر من مرة انى أحاول محالا ، وحقيقة تصبو نفسى الى هذا المحال فأعينينى يا سيدتى فانك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى ، وتقوية عزمى وشد أزرى » .

فماذا فعلت تلك السيدة التى اختارها « مصطفى كامل » من بين العالمين لتكون معوانه وسنده .. لقد بذلت له فوق كل ما يتصوره العقل فأصبحت من ذلك اليوم أمه الروحية ، ومستشاره ، وملهمته ، ومشجعته على المضى فى رسالته الى الأمام ، وتقول هى بالحرف الواحد : —

« من عهد أول مقابلة لى مع « مصطفى كامل » أخذت أؤدى له وظيفة الأم فعرفته بجميع الرجال الأكابر الذين يعنيهم شأن مصر ، وأوليته من حب الأم جميع منازل أبنائى المتقدمين عليه ، وأوجدت له فى آن واحد علاقات نفسية فى عالم الصحافة الفرنسية تلك العلاقات التى عرفت كيف يستخدمها بأحسن سياسة فى دعواه الشريفة وأمكن فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارته فى جميع البلدان الأخرى حتى انجلترا نفسها » .

ويحتاج الحديث عن دور «جولييت آدم» فى تأييد مصطفى كامل وحركته الوطنية .. يحتاج الى مجلدات وحسبى أن أشير هنا فى كلمات عاجلة الى بعض ما أدته ..

لقد نشرت رسالة الزعيم الشاب عن (أخطار الاحتلال البريطانى) فى صدر جريدتها (المجلة الحديثة) وفى كبريات صحف باريس .. وزارت مصر فى أوائل يناير سنة ١٩٠٤ وأقامت نحو ستة أسابيع فى بلادنا تدرس أحوالها وتستمع الى رجالاتها .. وشجعت زعيمنا الراحل بأن دعته الى أن ينشر بجريدتها ما يشاء وقالت له بالحرف الواحد (استرسل استرسالا بغير تقتير) وأخيرا وضعت كتابا من أعظم المؤلفات التى أخرجت عن قضيتنا وهو (انجلترا فى مصر) ومن هنا نجد تفسيرا لاحترام مصطفى كامل لدور المرأة المصرية ، واعتماده عليها ، ودعواه الملحة فى تعليمها ، وترحيبه بها فى الحزب الوطنى ، ولكن التقاليد لم تكن تسمح بعد بالخطوة الجريئة التالية ، وهى الاعتراف بعضويتها رسميا فى الحزب فبقيت تخطب وتشارك بوجدانها وبنشاطها فى كل ما يدعو اليه ، حتى توفى « مصطفى كامل » سنة ١٩٠٨ فوقفت السيدة زينب فواز فى حفلة الأربعين يوم الجمعة ٢٠ مارس من ذلك العام .. وقفت تخطب (عن السيدات) فكانت هذه احدى معجزات مصطفى كامل ، وهى قبل ذلك أيضا احدى معجزات المرأة المصرية ..

ولم يكن خليفة مصطفى كامل أقل تحررا من سلفه العظيم ، ولم يكن

بالتالى أقل ترحيبا باشتراك المصرية معه فى جهاده .. بل لعله مضى فى هذا السبيل شوطا أبعد مما وصل اليه مصطفى كامل ، ففى المؤتمر الذى عقده البطل محمد فريد بمدينة بروكسل فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٠ ودعا اليه أحرار العالم لتأييد مصر : لم يغفل دعوة عشر من الشخصيات النسائية البارزة ، لبى أكثرهن الدعوة ، وكان فى مقدمة من خطبن منهن .. جولييت آدم ، ومدام كاما الصحفية الهندية المعروفة اذ ذاك ، ومدام كتشوكوفا ، والأميرة كتشولى من روسيا ومدام دراى هرست ومكاتبة الديلى نيوز الأرلندية الثائرة ، بل كانت المعجزة الكبرى حقا ، ان ثالث خطباء ذلك المؤتمر .. بعد محمد فريد ومستر بلنت ، كانت سيدة مصرية ، هى كريمة المرحوم مصطفى بك شوقى .. السيدة انشراح شوقى !

فاذا شئنا أن نتحدث عن دور المرأة فى حياة محمد فريد .. والمرأة المصرية بصفة خاصة ، لوقفنا طويلا .. كانت السيدة الأولى هى أمه ويصفها مترجم حياته فيقول (انها السيدة بمبه بنت ابراهيم قاضى البهار وكانت سيدة فاضلة عالية النفس محبة للخير ، كريمة الأخلاق شريفة حسنيه (أى من سلالة الحسن) وكان لها ولا ريب — فضل كبير فيما اتصف به الفقيد من صفاء النفس وكرم الأخلاق) .

وكانت السيدة الثانية فى حياته هى زوجته عائشة هانم كريمة السيد اسماعيل حافظ وهى بنت عمه ويعرف تاريخ محمد فريد دورها فى أكثر مراحل جهاده ، فهى التى دبرت هربه للمرة الثانية الى أوربا ، حتى لا يقع أسيرا فى أيدى المستعمرين ، ثم دبرت هربه للمرة الثانية من استنبول حتى لا يقع أسيرا فى يد الدولة العثمانية التى بدأت تتآمر بالوطنيين المصريين .

وكانت السيدة الثالثة فى حياته هى كبرى كريماته تلك التى لعبت ذلك الدور التاريخى المجيد فى دعوته الى الحضور الى مصر لمواجهة خصومه الذين تآمروا عليه لمحاكمته ، ثم راحوا يتهمونه بالجبن والخوف من السجن لأنه لا يريد العودة من أوربا فكتبت اليه كريمته خطابها الخالد ، والتى قالت له فيه بالحرف الواحد يوم ١٤ أغسطس سنة ١٩١٠.

« ولنفرض انهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش فذلك أشرف مما يقال بأنكم هربتم ، وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم ..

وختمته بقولها (واختم جوابى بالتوسل اليكم باسم الوطنية والحرية التى تضحون كل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن ..) .

وكان لهذا الخطاب أثره العميق فى نفسه ، فما كاد يفرغ من مؤتمر بروكسل وما تلاه من نشاط حتى عاد فى ديسمبر من ذلك العام حيث حكم عليه بالسجن يوم ٤ يناير لمدة ستة شهور ..

وكانت السيدة الرابعة فى حياته هى مدام شيبورين ، أو عزيزة شيبورين ، التى أحبت مصر من أجله ، وكانت خير معوان له طوال سنى كفاحه فى أوربا والتى شاءت ظروفه كزعيم ألا تسلط الأضواء على دورها الكبير فى حياته وكفاحه .

ولأعد الى الموضوع .. ولنسجل هنا ان المرأة المصرية ظلت تتسلل الى الصفوف من صفوف الحزب الوطنى — فظهرت لأول مرة فى المظاهرة التى نظمها الحزب سنة ١٩١٤ يوم افتتاح الجمعية التشريعية فى ٢٢ يناير ، للهتاف بالدستور والحياة النيابية الصحيحة ! وأخيرا توفى محمد فريد أيضا ..

ونقل رفاته الى مصر ..

ولم تقنع السيدات المصريات فى هذه المرة بمساهمتهن فى الحفلات التى أقامتها مختلف الطوائف للزعيم الشهيد ، فأقمن لتأبينه حفلة خاصة يوم ١١ يونيه سنة ١٩٢٠ بساحة ضريحه الطاهر بالسيدة نفيسة..

وكانت خطيبات ذلك الحفل هن :

أمينه هانم غازى

حرم الدكتور عثمان لبيب عبده

حرم اسماعيل (بك) عاصم

السيدة حصلب

السيدة لبيبه هانم

كريمة المرحوم محمد (بك) رياض

كريمة المرحوم محمد (بك) عز العرب

دكتورة عيوشة هانم

الطالبة ثريا (عن مدرستى العناية والثبات)

وهكذا دخلت المرأة المصرية الحزب الوطنى ولكن من الباب الخلفى .. باب الحريم ، ولكنها دخلت على أى حال ، ومهما بدا لها اذ ذاك من ذهول المجتمع لهذه المفاجأة الكبرى !!

المرأة المصرية
فى ثورة سنة ١٩١٩

.. ولم يكن نصيب المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ أقل من نصيب الرجال .

.. ففى يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩ خرجت أول مظاهرة تعبر عن احتجاج شعب مصر على الاستعمار البريطانى ، وهى المظاهرة التى نظمها طلاب « مدرسة الحقوق » وانضم اليها طلاب مدارس الطب والتجارة ودار العلوم والقضاء الشرعى .. ثم انضم اليها الشعب كله ، ثم انضمت لها من النوافذ والشرفات والأسطح نساء مصر المتحمسات الغاضبات .. الشعبيات منهن يزغردن ، والمتعلمات يهتفن ويلوحن بمناديلهن مشجعات .

ولكن ما كادت المظاهرات تستأنف فى الأيام التالية حتى نفذ صبر النساء المصريات من عزلهن عن الثورة ، فسار بعضهن مع المظاهرات ، وكان الطلاب يحيطون بهن للمحافظة عليهن .

ثم كانت المعجزة التاريخية عندما سجلت الشهيدة السيدة حميدة خليل من كفر الزغارى بالجمالية .. عندما سجلت بدمها الطاهر فى يوم ١٤ مارس ان المرأة المصرية كانت فى القائمة الأولى لشهداء الثورة .. نعم كانت الشهيدة حميدة خليل فى أول قائمة نشرتها الصحف وأذاعتها وكالات الأنباء اذ ذاك عن الذين سقطوا صرعى فى الجهاد .

كان اليوم — يوم جمعة ، وخرج المصلون من الأزهر ومسجد الحسين ليؤلفوا مظاهرة لم يلبث ان انضم اليها بقية الشعب ، ومن هؤلاء المتظاهرين عدد كبير من النساء بينهن الثائرة « حميدة خليل » ، وبدأت بين المتظاهرين والقوة البريطانية معركة أمام المسجد الحسينى ولم تلبث

المدافع الانجليزية الرشاشة ان بدأت تتصيد زعماء المظاهرة فسقط اثنا عشر شهيدا ، كانت فى مقدمتهم .. حميدة خليل .

وكانت جنازة الشهيدة هى الناقوس الذى أيقظ كل سيدات مصر وجمعهن ساعة الخطر فلم تمض ٤٨ ساعة حتى خرجت مظاهرة قوامها ثلثمائة من أكرم نساء مصر .. خرجت فى موكب رهيب ، لتقدم الى معتمدى الدول الأجنبية ، ذلك الاحتجاج التاريخى المشهور .

« جناب المعتمد

« يرفع هذا لجنابكم السيدات المصريات .. أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحية المطامع البريطانية ، يحتججن على الأعمال الوحشية التى قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة لا لذنب ارتكبته سوى المطالبة بحرية البلاد واستقلالها تطبيقا للمبادىء التى قام بها الدكتور ويلسن وقبلتها جميع الدول محاربة كانت أو محايدة .

« نقدم لجنابكم هذا ، ونرجو أن ترفعوه لدولتكم المبجلة لأنها أخذت على عاتقها تنفيذ المبادىء المذكورة والعمل عليها ، ونرجوكم ابلاغها ما رأيتموه وما شاهده رعاياكم المحترمون من أعمال الوحشية واطلاق الرصاص على الأبناء والأطفال والأولاد والرجال العزل من السلاح لمجرد احتجاجهم بطريق المظاهرات السلمية على منع المصريين من السفر للخارج لعرض قضيتهم على مؤتمر السلام أسوة بباقى الأمم وتنفيذا للمبادىء التى اتخذت أساسا للصلح العام ، ولأنهم يحتجون أيضا على اعتقال بعض رجالهم وتسفيرهم الى جزيرة مالطة .

« لنا الأمل يا جناب المعتمد أن يحل طلبنا هذا — نحن السيدات المصريات — محل القبول — ولا زلتم عونا لنصرة الحق ، مؤيدين لمبادىء الحرية والسلام » .

ويصف المؤرخ الوطنى الكبير « عبد الرحمن الرافعى » هذه المظاهرة فيقول : « سارت السيدات فى صفين منتظمين ، وجميعهن يحملن أعلاما صغيرة ، وطفن الشوارع الرئيسية فى موكب كبير ، هاتفات بحياة

الحرية والاستقلال وسقوط الحماية ، فلفت موكبهن أنظار الجماهير ، وأذكى فى النفوس روح الحماسة والاعجاب ، وقوبلن فى كل مكان بتصفيق الناس وهتافهم ، وأخذ النساء من نوافذ المنازل وشرفاتها ، يقابلنهن بالهتاف والزغاريد ، وخرج أكثر أهل القاهرة — رجالا ونساء — لمشاهدة هذا الموكب البهيج ، الذى لم يسبق له نظير ، وأخذوا يرددون هتافاتهن » !

وهكذا ، ظلت الثلثمائة الباسلات من طليعة نساء مصر ، يسرن بأعلامهن وموكبهن الرهيب هذا حتى فرغن من توزيع احتجاجهن على مختلف المفوضيات ، وفى طريق عودتهن قصدن الى بيت الأمة ، ولكن الكونستبلات الانجليز تصدوا لهن عند أول شارع زغلول وسددوا اليهن البنادق والحراب ، بقيت المتظاهرات صامدات لهذا التهديد وظللن تحت وهج الشمس أكثر من ساعتين تشاورن خلالهما فى الأمر ، ثم قررن مواصلة السير مهما كانت النتائج ، ولما بدأ موكبهن يتحرك ، اقترب أحد الجنود الانجليز نحو حاملة العلم وكانت المغفور لها السيدة حرم محمد راتب « باشا » ووضع فوهة بندقيته أمام صدرها فقالت له بالانجليزية : « نحن لا نهاب الموت » .

وتصبب الكونستبلات الانجليز عرقا من الخجل ، وفى غمرة هذا الانهيار ، تسللت السيدات الباسلات الى بيت الأمة ، حيث كتبن احتجاجهن الثانى لمعتمدى الدول الأجنبية أيضا :

« قررت السيدات المصريات بالأمس القيام بمظاهرة سلمية ، والمرور على دور السفراء لتقديم الاحتجاج الكتابى المرفق بهذا ، والذى نتشرف برفعه لجنابكم الآن ، وعندما اجتمعن بشارع سعد زغلول « باشا » حاصرتهن قوة مسلحة من العساكر البريطانية ووجهت لهن السلاح حتى لا يتحركن لا الى الأمام ولا الى الخلف ، وبقى السيدات هكذا مدة ساعتين تحت نار الشمس المحرقة .

« هذا ما رآه المحتلون من معاملة السيدات ، وهو بمفرده وبغير تعليق دال على استمرار الانجليز فى استعمال القوة الغاشمة حتى مع

السيدات لاخماد أنفاس هذه الحركة العامة التى لم يكن أساسها أى عداء لضيوفنا الأجانب ، لأنها موجهة فقط ضد أعمال الاستبداد والقوة التى يقابل الانجليز بها مطالب الأمة الحقة الشرعية .

« لهذا يا جناب المعتمد نضم هذا الاحتجاج الثانى لاحتجاجنا الأول ، نرجو ابلاغه لدولتكم الموقرة التى أخذت على عاتقها نصرة مبادىء العدالة والحرية .

وتفضلوا بقبول احترامنا » .

وقد وقع ذلك الاحتجاج العنيف السيدات والآنسات الآتية أسماؤهن بحسب ترتيبهن فى أصل هذه الوثيقة التاريخية :

حرم حسين رشدى باشا . حرم سعد زغلول باشا . هدى شعراوى حرم على شعراوى باشا . حرم محمود رياض باشا . حرم محمد سعيد باشا . حرم اسماعيل صدقى باشا . حرم عمر سلطان باشا . حرم عثمان عرفى باشا . حرم الدكتور محمد علوى باشا . حرم محمد شكرى باشا . حرم اسماعيل سرى باشا . حرم الدكتور بهى الدين بركات . حرم الدكتور حسن محرم بك . حرم الأستاذ محمد أمين يوسف . حرم محمد صدقى باشا . حرم محمود سرى بك . حرم احمد راغب بدر بك . حرم احمد عبد اللطيف بك . حرم محمد محرز باشا . حرم مصطفى بك عبد الخالق . حرم احمد بك لطفى . حرم عثمان باشا مرتضى . الآنسة كريمة عثمان باشا مرتضى . حرم احمد بك أبو اصبع . حرم حسن بك خيرى . حرم اسماعيل حسنين باشا . حرم محمد بك رأفت . حرم سعيد بك حلمى . حرم ابراهيم رأفت باشا . حرم محمود سامى باشا البارودى . حرم حنا بك مسيحة . الآنسة كريمة محمود سامى باشا البارودى . حرم طاهر بك اللوزى . حرم عبد الحليم بك العلايلى . حرم على بك سعد الدين . حرم الأستاذ عزيز مشرقى . الآنسة كريمة عبد الفتاح بك اللوزى . حرم الدكتور نجيب اسكندر . حرم الدكتور محمد العروسى . حرم الدكتور ابراهيم بك حسن . الآنسة كريمة صالح بك فريد . الآنسة كريمة محمد بك منيب .

حرم توفيق وصفى . الآنسة كريمة عبد المجيد بك رضوان . حرم احمد بك حمدى . الآنسة كريمة مصطفى بك الباجورى . الآنسة كريمة احمد بك ندا . حرم اسكندر بك مسيحة . حرم احمد بك حجازى . حرم مجيب بك فتحى . حرم حافظ بك محمد . الآنسة كريمة الشيخ الأنصارى . حرم محمد راتب باشا . حرم محمد بك يوسف . حرم حسين بك رياض . الآنسة جولييت صليب . الآنسة كريمة محمد بك أنور . حرم الدكتور محمد صدقى بك . حرم مصطفى بك توفيق . حرم توفيق بك صادق . حرم محمود بك الطوير . حرم اسماعيل بك سالم . حرم على بك مبارك . حرم حسين بك هلال . حرم محمد رؤوف باشا . حرم محمد شفيق رفعت بك . الآنسة كريمة أمين باشا الشمسى . مدام رفائيل بغدادى . حرم صالح بك نامق أبو اصبع . الآنسة كريمة شوقى باشا . حرم الأستاذ ويصا واصف . حرم احمد بك شكرى . الآنسة كريمة اسماعيل أباظة باشا . الآنسة كريمة محمد بك رشاد . حرم رياض عفيفى بك . الآنسة كريمة توفيق باشا . الآنسة كريمة محمود نصيف بك . حرم حسن باشا عاصم . حرم حسين راغب بك . حرم توفيق باشا . حرم الدكتور على بك ابراهيم . الآنسة كريمة محمود بك أباظة . الآنسة كريمة السيد أباظة باشا . حرم عبدالله بك أباظة . حرم احمد عفيفى باشا . حرم الدكتور احمد سعيد بك . حرم محمد بك حسن . حرم ابراهيم بك شريف . الآنسة مارى ميرهم . الآنسة كريمة عبد الله بك الطوير . حرم أمين بك فؤاد . حرم لبيب بك مسلم . حرم اسماعيل بك فاضل . حرم ابراهيم بك فاضل . الآنسة كريمة أحمد بك أبو اصبع . الآنسة كريمة محمد الشواربى باشا . الآنسة كريمة اسماعيل رمزى باشا . حرم على بك فؤاد . حرم شاكر بك حلمى . حرم داود راتب بك . حرم صالح بك جمالى أبو اصبع . حرم مختار بك الأرناؤوطى . حرم صليب بك متريوس . حرم أحمد بك عباس يكن . حرم محمد بك برهان . حرم محمد بك أبو شادى . كريمة أمين باشا سيد أحمد . حرم فؤاد بك

شرين . حرم ميخائيل لبيب . حرم قاسم أمين بك . حرم حسين محرم بك . حرم حسن بك بهادر . حرم رفيق بك فتحى .

وكأنما كانت مظاهرة السيدات هى الشرارة التى ألهبت نيران الثورة فامتدت هنا وهناك ، حتى شملت جميع المدن والأقاليم ، وظلت مصر بأسرها تتحدث عن المناضلات العظيمات ، وطالع شاعر الثورة الخالد « حافظ ابراهيم.. طالع العالم العربى بقصيدته الرائعة ، ليصلى المستعمرين شواظا من نار سخريته ، لتصديهم لتلك المظاهرة النسائية الضخمة ..

خرج الغوانى يحتججن ورحـ ـت أرقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب يسطعن فى وسط الدجنه
وأخذن يجتزن الطريق ودار « سعد » قصدهنه
يمشين فى كنف الوقا ر ، وقد أبن شعورهنه
واذا بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنه
واذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه
واذا المدافع والبنا ق والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقا حولهنه
والورد والريحان فى ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا عات تشيب لها الأجنه
فتضعضع النسوان والنسوا ن ليس لهن منه
ثم انهزمن مشتتات الشمـ ل نحو قصورهنه
فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره ، وبكسرهنه
فكأنما « الألمان » قد لبسوا البراقع بينهنه
وأتوا « بهندنبرج » مختفيا بمصر يقودهنه
فلذاك خافوا بأسهن وأشفقوا من كيدهنه

وبالطبع لم يكن الورد والريحان هو سلاح السيدات المصريات ضد الانجليز اذ ذاك ، ولم يتضعضعن أو ينهزمن كما قال شاعر النيل، ولكنها كانت تعبيرات ساخرة من الانجليز وكان الوصف على كل حال يتفق مع أحاسيسه نحو المرأة المصرية التى كانوا حتى ذلك الحين لا يزالون يحبسونها فى البيوت ، ولا يصفونها الا « بالسيدة المصونة والجوهرة المكنونة » ...

امتدت الثورة الى كل مكان ، وفى كل معركة من معاركها ، كانت قائمة الشهداء تشمل سيدة أو أكثر .. يسقطها رصاص القوة الغاشمة الى جانب زملائها من الشهداء الرجال ، لتروى بدمها قصة اشتراك المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ بنصيب الأسد !

ففى يوم ١٨ مارس استشهدت المغفور لها (سيدة حسن من أهالى المناصرة بحى عابدين) مع حفنة من الرجال الذين كانوا يقودون احدى المظاهرات فى شوارع بولاق ..

وفى يوم ٢٠ مارس ، قررت السيدات المصريات تأليف مظاهرة نسائية جديدة فتوافدن من الصباح على حديقة قصر النيل ، وفى نحو العاشرة تحرك موكبهن يحمل كثيرا من الأعلام ، واللافتات التى تضمنت بعض الشعارات الوطنية مثل (نحتج على سفك دماء الأبرياء العزل من السلاح) أو (نحتج على قتل الأبرياء) أو « نطلب الاستقلال التام » وقد كتبت هذه الشعارات باللغة العربية على بعض اللوحات ، وباللغة الفرنسية على لوحات أخرى .. وسار الموكب فى طريقه حتى وقف أمام بيت الأمة ، وهناك أقبلت كالعادة قوة من الجنود الانجليز فى سياراتهم المسلحة ، وحاصرت المتظاهرات اللواتى أبرقن باحتجاجهن الى سفراء الدول الأجنبية فجاء أحد قناصلهم وشاهد الحصار بنفسه ثم توجه الى مقر القيادة البريطانية بفندق سافوى ، وأعلن استنكاره لهذا التصرف مما اضطر الانجليز الى اصدار أوامرهم فورا بفك الحصار ، والسماح للسيدات

المتظاهرات بالانصراف الى بيوتهن ، بعد ان كانت الترتيبات قد اتخذت لالقاء القبض عليهن جميعا !!

ولم تكد لجنة ملنر تصل الى مصر يوم ٧ ديسمبر ، حتى كانت النساء المصريات فى طليعة الطوائف الوطنية التى هبت الى الاحتجاج عليها . والدعوة الى مقاطعتها ففى يوم الجمعة ١٢ ديسمبر سبقت حفنة من سيدات مصر جميع الهيئات الوطنية الى الاحتجاج على شكل مؤتمر وطنى فى دار الكنيسة المرقسية بالقاهرة .. وكان لاختيار هذا المكان ما يدل على لباقة المرأة المصرية وذكائها ، فقد كان أول قرارات الاحتجاج منصبا على قيام وزارة المرحوم يوسف باشا وهبه ، وكان المعروف ان الانجليز يسعون بالوشاية والتفرقة بين عنصرى الأمة المسلم والقبطى ، ويحاولون تفسير عداء المصريين لتلك الوزارة الممالئة لسياستهم الاستعمارية ، بأنه نوع من التعصب الدينى .

احتجت سيدات مصر على وزارة يوسف وهبه وقدوم لجنة ملنر على غير ارادة الشعب وكان فى طليعة من وقع قرارهن التاريخى .. السيدات : هدى شعراوى . شريفة رياض . حرم محمود باشا رأفت . حرم حبيب بك خياط . احسان القوصى . حرم فهمى بك ويصا الخ .. وفى يوم ١٦ يناير قمن بمظاهرة كبرى ، بدأت من ميدان باب الحديد فشارع ابراهيم باشا فعابدين حيث تصدى لهن الجنود البريطانيون ، وطلبوا منهن التفرقة فرفضن وظللن فى مظاهرتهن .. يهتفن ضد الانجليز ولجنة ملنر .

ويتحدث المعاصرون لثورة ١٩١٩ عن دور المرأة المصرية ، فيؤكدون ان الخطب النارية التى كانت تلقيها بعض طالبات المدارس فى الشوارع كان لها أعظم الأثر فى الهاب الجماهير ، وتأجيج مشاعرها .

فاذا أضفنا الى هذا ما كان لشخصية السيدة الجليلة صفية زغلول من أثر فى توجيه زوجها الزعيم الخالد سعد زغلول ، وما قاسته معه من المحن والشدائد حتى حقق لبلاده تلك الانتصارات التاريخية الكبرى ..

اذا أضفنا دور (صفية زغلول) فى رعاية الثورة فى صمت وتواضع حتى لقد لقبها الشعب باحساسه العميق بأم المصريين .. اذا أضفنا ذلك « الدور » الى مساهمة المرأة فى ثورة ١٩١٩ لوجدنا انه لم يكن يقل عن دور الرجل ..

لقد كانت خطوة جريئة من المرأة المصرية .. أن تقتحم الصفوف وترفض أن ينفرد الرجال بشرف الموت من أجل الوطن ، فى وقت كانت فيه التقاليد من السخف والتزمت الى حد لا يكاد يسمح للمرأة أن تخرج فيه الى الطريق الا فى صحبة الأب ، أو الزوج ، أو الشقيق ، بل فى وسعك أن تحكم على ذلك الزمن بمجرد أن تلقى نظرة خاطفة على عريضة السيدات المصريات ، فلا تجد توقيعا واحدا يحمل اسم صاحبته باستثناء توقيع السيدة هدى شعراوى وبعض السيدات القليلات ، أما بقية الموقعات فاكتفين بكلمة « حرم » فلان أو « كريمة » علان !!

ومن هنا أيضا ، يمكنك أن تقف اجلالا ، أمام ذلك الجهد الجبار وتلك التضحيات النبيلة .. أمام ذلك الدم والعرق الذى دفعته المرأة المصرية العظيمة ، لتشارك الرجل فى كتابة التاريخ .. تاريخ المجد والحرية !

* * *

بعض الذكريات

عن لجنة الوفد للسيدات

تروى لنا احدى السيدات اللائى شاهدن كفاح المرأة المصرية فى سنة ١٩١٩ فى قضية « الحرية والوطن » :

ففى نهاية سنة ١٩١٩ والبلاد كالمرجل تغلى وتنفجر منادية بالحرية والاستقلال والمستعمر يترصد لكل حركةمن حركات المقاومة والوطنية

محاولا اخمادها فى هذا الوقت قررت السيدات المصريات الخروج بمظاهرة كبيرة برغم وحشية المستعمر وأوامره الشديدة بمنع أى مظاهرة أو مجرد اجتماعات .

والمرأة التى تؤدى واجبها نحو وطنها وبلادها لا يهمها فى سبيل تحقيق هذه الرغبة انذار أو وعيد خصوصا اذا كان آتيا من جهة مغتصبى حقوق البلاد وأعدائها .

ولجأت السيدات المصريات الى تنفيذ غرضهن عن طريق الحيلة فقد قررن الاجتماع فى ضريح رياض باشا والخروج منه بسيارات بين كل واحدة وأخرى ٥ دقائق حتى لا يفطن لغرضهن أعداء الحرية من رجال الاستعمار ويحولون دون اتمام هذه المظاهرة التى صممت السيدات عليها وتواعدن على اللقاء فى نقطة معينة تخرج منها المظاهرة .

وقد نجحت السيدات فى هدفهن الأول وتجمعت السيارات فى المكان الذى تواعدن عليه . ولكن ما كدن يقمن بالمظاهرة ويرددن هتافهن بالحرية والاستقلال حتى أحاطت بسياراتهن قوات مسلحة من جنود الانجليز وأجبروا السيارات على التوجه الى قسم العتبة الخضراء « الموسكى » وهناك أنزلوا السيدات المتظاهرات الى القسم واحتجزن فيه بعض الوقت وعندما سمح لهن بالانصراف كان الجنود الانجليز قد أتلفوا اطارات سياراتهن برصاص بنادقهم ولم يضعف هذا الصنيع المرذول من عزم السيدات فتوجهن سيرا على الأقدام فى مظاهرة كبيرة الى بيت الأمة بين تصفيق الجماهير وهتافهم ومتابعتهم للسيدات فى سيرهن من العتبة الخضراء الى بيت الأمة .

ونذكر بالفخر ضمن السيدات اللائى اشتركن فى ثورة ١٩١٩ السيدة استر فهمى ويصا التى امتازت لا بشجاعتها الوطنية فقط بل بمقدرتها فى الخطابة والكتابة فى المسائل السياسية .

أول لجنة وفد للسيّدات

وتقول ان أول لجنة للسيدات الوفديات ألفت فى سنة ١٩١٩ وان الذى أشار بتأليفها هو المغفور له سعد زغلول « باشا » .

والباعث الأول على تأليف هذه اللجنة يرجع الى حادث معروف فقد كانت السيدات يداومن على الذهاب الى بيت الأمة للاسهام فى كل ما يفيد الحركة الوطنية ويزيد الحماسة فى المكافحين وذات يوم وفد على بيت الأمة كثير من الطلبة يحتمون به من قوات الاستعمار التى تطاردهم وكانت الدماء تسيل منهم بسبب اصطدامهم بقوات الاستعمار وسارعت السيدات الموجودات فى بيت الأمة يعملن على تضميد جراح المصابين .

وشاهد سعد زغلول هذا المنظر وذرفت الدموع من عينيه واقترح فى الحال تأليف لجنة من السيدات الوفديات تواسى جراح المصابين وتعمل جنبا الى جنب مع الرجال عملا منظما سديدا فى مقاومة الاستعمار وتقويض دعائمه .

وألفت أول لجنة برياسة السيدة شريفة هانم رياض وكان من أعضاء هذه اللجنة الأولى السيدة هدى شعراوى وحرم عمر « باشا » سلطان وحرم سينوت حنا ، وحرم راتب باشا ، وحرم حجازى بك وحرم أبو اصبع وحرم بهى الدين بركات وحرم مرقس «باشا» حنا ، وحرم ويصا واصف ، وحرم مكرم عبيد، وحرم واصف باشا غالى، وغيرهن عشرات من السيدات انضممن الى عضوية اللجنة . وبمجرد تأليف هذه اللجنة تألفت لجان أخرى كثيرة فى جميع نواحى البلاد تنظم كفاح المصرية فى سبيل الحرية ومجد الأوطان ونذكر ضمن الأعضاء فى ذلك الحين السيدة حب الرمان والسيدة جليلة البحراوى والسيدة ليزا ميلاد .

وكانت السيدة صفية زغلول « أم المصريين » رئيسة شرف لجنة السيدات الوفديات وجميع لجان الوفد للسيدات فى أنحاء البلاد .

هُدى شعراوى

تمزق الحجاب

لا عجب اذن لو جاءت المرأة المصرية فى أعقاب الثورة فوجدت ما يشبه الاعتراف بها فى مجتمع كان ينكرها تماما ..

وكان الزعيم الخالد سعد زغلول هو أول من سجل اعترافه بها ، فقد خطب على أثر عودته من منفاه فى الحفلة التكريمية التى أقامها له تجار العاصمة فقال بالحرف الواحد .

« سادتى .. كنت أود أن أقول سيداتى وسادتى ، وكنت أود أن أقول ذلك لأن للسيدات دخلا كبيرا فى نهضة الأقوام عموما ، وفى نهضة مصر خصوصا ، وأتعشم أن يأتى يوم أرى فيه خطباءنا يبدأون بتلك البداية فلقد أظهرت السيدات فى النهضة الحاضرة من الشجاعة ومن الاقدام ما أعجب به كل واحد منا وكل ناظر الينا ، وكن فى كل موقف موضع اعجاب الجميع ، وكن أيضا يملين على الرجال من الثبات والاقدام ما رأينا آثاره الآن ، وكتبن بأعمالهن المجيدة صفحة من أجمل صحائف تاريخ النهضة الحاضرة ، فلهن الشكر ولتصيحوا جميعا لتحى السيدة المصرية » .

وكان هذا الهتاف التاريخى من سيد الزعماء هو وثيقة الاعتراف الرسمى بالمرأة المصرية يعلنها الرجل الذى كان يحق له وحده فى ذلك الوقت ، أن يتكلم باسم الشعب المصرى جميعا ..

وكان ثانى مظاهر الاعتراف بالمرأة المصرية ، هو قبولها — لأول مرة — عضوا رسميا فى الأحزاب ، فبعد أن كانت تشترك فى الحزب الوطنى وتحضر مؤتمراته دون أن تكون عضوا فيه ، أصبحت تؤلف

لجنة من أكبر لجان « الوفد المصرى » وهى اللجنة التى ظلت قائمة الى آخر يوم قبل حل الأحزاب ..

فاذا اعتبرنا ان دستور ١٩٢٣ هو أول ثمرة حقيقية من ثمار المعركة التى خضناها سنة ١٩١٩ وما تلاها لوجدنا ان هذا الدستور لم يجرؤ على أن يجحد فضل المرأة أو ينكر عليها ما بذلت ، ولو رجعنا الى مناقشات لجنة الدستور ، لما وجدنا عضوا واحدا يتهجم على المرأة ، أو ينادى بحرمانها من حقوقها الطبيعية فى أن تشترك فى ثمار الثورة كما اشتركت فى تضحياتها ومتاعبها .. لم يكن بين أعضاء لجنة الدستور الذين عاصروا الثورة ولمسوا دور المرأة فيها ، من يسمح له ضميره أن يحرم أمه أو أخته أو بنته من أن تجنى ثمار ما غرست يداها !

وكان الكسب الذى خرجت به هو ان الدستور لم يفرق بين الرجل والمرأة فى أى حق من الحقوق السياسية ، ولم يحدد ان حق الانتخاب والترشيح مثلا امتيازات يتمتع بها الرجال دون النساء ، بل نص على انها للمصريين جميعا ، وهو ما يقطع بأن النية فى ذلك الوقت كانت متجهة الى مساواة الجنسين فى هذه الحقوق ، وهو نفس الرأى الذى يؤيدنا فيه كثير من الفقهاء المعاصرين ، وفى مقدمتهم السيد على زكى العرابى الرئيس الأسبق لمجلس الشيوخ ، الذى تفضل فكتب رسالة مشهورة فى هذا المعنى .

وكان ثالث هذه الانتصارات التى ظفرت بها المرأة المصرية ثمنا لتضحياتها النبيلة واشتراكها المجيد فى ثورة ١٩١٩ .. كان ثالث هذه الانتصارات هو تأليف أول هيئة نسائية فى مصر ، ونعنى به الاتحاد النسائى المصرى ، وليس المهم هو تأليفه فقط ، بل ان الذى يعطى لهذا الاتحاد أهمية تاريخية كبرى هو الاعتراف الضمنى ، بل الرسمى بوجوده اذ لم يلبث الاتحاد ان حقق أول مطلبين نادى بهما وهما تحديد السادسة عشرة حدا أدنى لزواج الفتاة ومساواة البنت بالولد فى مدارس التعليم ..

أما الكسب الأكبر للمرأة بعد ثورة ١٩١٩ فانه بلا جدال ذلك الحدث

الضخم الذى تم على يد الزعيمة الجريئة الراحلة — هدى شعراوى — عندما عادت حوالى سنة ١٩٢٣ من المؤتمر النسائى العالمى فى روما .. وما كادت الباخرة تصل الى ميناء الاسكندرية حتى طالعت الجماهير بوجهها سافرا بلا نقاب .. لم تنتظر اذنا ، ولم تنتظر تشريعا كذلك الذى استصدره أتاتورك بالزام المرأة التركية بالسفور ، بل سجلت شجاعتها كيف تسن المرأة المصرية لنفسها القوانين التى لا بد منهـا لتطورها ونهضتها !

وكأن خصوم المرأة قد فزعوا من هذا المارد الجديد الذى انطلق فجأة من القمقم .. ان المعنى الذى ينطوى عليه اشتراك المرأة مع الرجل فى حقل الكفاح الوطنى ، وفى مجال الحياة العامة خصوصا ، هو ان جيش الثورة الوطنية قد تضاعف عدده فكيف يسمح الاستعمار بمضاعفة عدد مهاجميه ، وهو الذى لا يفتأ يبتكر من أساليب الوشاية والدس ما يفتت به قوى أعدائه ، ويفرق بين صفوفهم باسم الأديان ، والطبقات والزعامات والمطامع ؟!

ولم يلبث الاستعمار ان حشد قواه لاعادة « المارد الجديد » الى القمقم وبدأ يلفق تلك النكسة التى أصابت النهضة النسائية الى حد ما .. ولعلها أيضا كانت انعكاسا لتلك النكسة التى أصابت الحركة الوطنية كلها ، بعد أن تخلصت انجلترا من سخط « الباشوات » و « البكوات » الذين كانوا يقودون الثورة عن طريق حشدهم فى برلمانات أكثرها ملفق وحياة دستورية معظمها زائف .

أما الحق الذى كسبته المرأة فى الدستور فقد جاء قانون الانتخاب بعد بضعة أسابيع ليسلبه منها فى جرأة .

أما عضويتها فى حزب الوفد فقد وقفت عند حد « لجنة السيدات » فلم ينتخب بعض السيدات فى الهيئة الوفدية أو فى اللجنة العليا للوفد المصرى نفسه .

أما السفور .. وأما الاتحاد النسائى ، فقد نظم الرجعيون ضدهما حملات عنيفة لا هدف لها الا محاربة تطور المرأة .

ولكن حتى هذه النكسة لم تفلح فى وقف عجلة التطور ، فأخذت المرأة تتقدم وتكتسح وتسجل كل يوم نصرا جديدا ..

فقوانين العمال التى بدأت تشرع من سنة ١٩٣٢ تعترف بالمرأة وتشير الى حماية « المشتغلات بالصناعة من النساء » ووزارة الشئون الاجتماعية تتألف سنة ١٩٣٩ وفى مقدمة مسئولياتها حماية الأسرة والجامعات تفتح أبوابها للفتيات رويدا رويدا .. الى آخر ما سنعود اليه بالتفصيل فى فصولنا القادمة ..

تمزيق الحجاب

ولكن لابد لنا هنا أن نقف قليلا لنتحدث عن أهم ما كسبته المرأة فى أعقاب الثورة .. ذلك الحدث الضخم الذى كان ولا شك نقطة التحول الكبرى فى تاريخ المرأة المصرية ، وأعنى به تمزيق الحجاب وما تلاه من تأليف الاتحاد النسائى المصرى ..

كان ذلك حوالى سنة ١٩٢٣ .. وكانت السيدة هدى شعراوى (وهى اذ ذاك شابة فى العقد الرابع من عمرها) تعود من فرنسا بصحبة كريمتها وزوج كريمتها المرحوم محمود باشا سامى وسكرتيرتها السيدة سيزا نبراوى .. وكانت تستقل نفس الباخرة التى يعود عليها الزعيم الخالد سعد زغلول من فرنسا بعد استشفائه .. وكانت « هدى » لاتزال تفكر فى النظرة التى تقابل بها المصرية كلما سافرت الى أوربا .. ان القوم هناك يسخرون من ذلك الحجاب الذى يغطى وجوه المصريات ، حتى انهم كانوا اذ يرون هدى شعراوى وزميلاتها بلا يشامك ولا براقع يتشككون فى مصريتهن ، وفى ذلك المؤتمر الأخير بالذات كانت مندوبات الدول المختلفة ينكرن على هدى هانم مصريتها ، ولا يكدن يعترفن الا بمصرية واحدة كانت تصر على حضور تلك المؤتمرات محجبة لا تكشف شيئا من وجهها ، وهى المرحومة السيدة الجليلة — نبوية موسى !

وقالت هدى — ما دمنا نظهر فى مؤتمرات فرنسا سافرات الوجه دون أن يكون فى هذا ما يخدش شرفنا وكرامتنا ، فلماذا لا نظهر سافرات فى بلادنا أيضا ؟

وابتسمت كريمتها وقال زوج كريمتها :—

— ولكن التقاليد فى مصر لا تسمح بالسفور !

قالت هدى هانم :

— ولماذا لا تتطور هذه التقاليد مع الزمن ؟

قال مندهشا :

— وماذا نصنع نحن فى هذه التقاليد ؟!

قالت :

يكون لدينا من الشجاعة ما يجعلنا نقوم بدور ايجابى فى ذلك ... لماذا لا نبدأ نحن ، فتتبعنا الأخريات ؟

وسكت زوج كريمة هدى هانم ودخلت الباخرة الميناء ولاحت من بعيد جموع الشعب وقد حضرت لتحيى الزعيم الخالد ، فقالت هدى هانم لزوج كريمتها :

— هل تسمح لنا باجراء تجربة بسيطة .. الآن ، عند وقوف الباخرة سوف نستأذنك فى رفع اليشمك من فوق وجهينا .

وقال زوج كريمة هدى هانم — ولكن فى هذا الزحام اننى أخشى عليكما من عيون الناس ونظراتهم ! .

ولكنه أمام منطق هدى هانم عاد فأبدى موافقته .

تقول هدى هانم فى حديث لها :

« .. ورفعنا النقاب أنا وسكرتيرتى سيزا نبراوى وقرأنا الفاتحة ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتى الوجه وتلفتنا لنرى تأثير الوجه الذى يبدو سافرا لأول مرة بين الجموع فلم نجد له تأثيرا أبدا ، لأن كل الناس كانوا متوجهين نحو سعد ، متشوقين الى طلعته » !

ولكن هدى هانم دفعت بعد ذلك ثمن جرأتها وشجاعتها ، فاحتملت كثيرا من التعليقات السمجة التى كانت تقابل بها هى وزميلاتها من الرائدات الأول للنهضة النسائية كلما سرن فى الطريق فكانت الملاحظات السخيفة والعبارات النابية فى بعض الأحيان تؤذى أسماعهن ، ولكنهن مضين الى النهاية ، اذ كن يعلمن ان كل جديد لابد أن يقابل بالزراية والاستخفاف !

هدى شعراوى

ولكن من هى هذه الثائرة الجريئة « هدى شعراوى » ؟

انها كريمة المرحوم محمد سلطان باشا رئيس أول مجلس نيابى لمصر ، وأغنى رجل فى مصر .. توفى والدها وهى فى السابعة من عمرها ، وتزوجت من ابن عمتها والوصى عليها المرحوم على شعراوى أحد الزعماء الثلاثة الذين طالبوا انجلترا بالاستقلال يوم١٣ نوفمبر سنة١٩١٨ .

وكان لبعض الحوادث فى طفولتها ، ثم فى شبابها ، أكبر الأثر فى ايمانها العميق بتحرير المرأة ، وقد تكلمت عن بعضها ذات يوم فى مذكراتها فقالت : —

« أشار الطبيب الذى كان يعالج أخى بأن يشتروا له مهرا صغيرا (سيسى) ليتعلم ركوب الخيل ، ولم يكن أخى اذ ذاك قد جاوز السابعة من عمره ، ولكن الطبيب أكد ان رياضة الركوب تقوى الجسم وتنشط حركة الأمعاء وفى نفس الوقت لا تتطلب مجهودا كبيرا ، فطلبت أنا أيضا أن يشتروا لى مهرا لأركب مثل أخى ! فحاولوا اقناعى بأن ركوب الخيل لا يليق بالبنات ولكنى دحضت زعمهم بحجة دامغة اذ ضربت لهم مثلا بجارتنا ابنة الضابط لمعى بك التى تركب الخيل وتقود عربتها الصغيرة بنفسها ولما عجزت والدتى عن اقناعى بالمنطق احتالت لذلك بين «السيسى» والبيانو وكانت تعرف ميلى الشديد للموسيقى فنجحت حيلتها ، وفضلت

البيانو على الحصان قائلة لنفسى البيانو ثم أتمتع بركوب مهر أخى كلما أردت !!

وحدثتنى — رحمها الله — عن بعض هذه الحوادث التى أثرت على اتجاهها فقالت :

تزوجت وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى ، وكان زوجى — بحكم التقاليد القاسية — يسلبنى كل حق فى الحياة .. اننى لا أستطيع أن أفتح النوافذ لأشم الهواء كما يفعل سائر الناس ولا أستطيع أن أعزف على البيانو بعض القطع الموسيقية التى أحبها حتى لا تترامى نغماتها الى الرجال فيفهموا أن الذى يعزف الموسيقى فى الداخل هى السيدة حرمه ! ولا أستطيع تدخين سيجارة لتهدئة أعصابى حتى لا يتسلل دخانها الى حيث يجلس الرجال فيعرفوا انه دخان سيجارة السيدة حرمه !

الى هذا الحد كانت التقاليد تحكم بالسجن على المرأة .. وكنت لا أحتمل مثل هذا العذاب ، ولا أكاد أطيقه !

وقالت الفقيدة العظيمة وهى تروى تاريخ أول مظاهرة نسائية نظمتها :

« وبينما كنت أتأهب لمغادرة منزلى فى ذلك اليوم للاشتراك فى المظاهرة بادرنى زوجى بالسؤال — الى أين تذهبين والرصاص يدوى ويتساقط فى أنحاء المدينة ؟

فأجبت — للقيام بالمظاهرة التى قررتها اللجنة !! »

فأراد أن يمنعنى فقلت له — هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط وليس للنساء نصيب فيها ؟

فأجابنى — هل يرضيك اذا تحرش بكن الانجليز أن يفزع بعض النساء ويولولن يا أمى يا لهوتى ..!

فقلت له — ان النساء لسن أقل منكم شجاعة ولا غيرة قومية أيها الرجال » .

« وتركته وانصرفت لألحق بالسيدات اللاتى كن فى انتظارى ..الخ »

وقد مضت الزعيمة العظيمة فى رسالتها التى آمنت بها ، فحضرت المؤتمرات النسائية الدولية بين عامى ١٩٢٠ — ١٩٢٣ وفى ذلك العام عادت من مؤتمر روما بفكرة لم تلبث ان حققتها وهى تأليف الاتحاد النسائى المصرى ، وقد أولت القضايا العربية لا سيما قضية فلسطين — اهتماما بالغا حتى لقد نظمت مؤتمرا كبيرا لنصرتها ، وعنيت بتعليم المرأة فأنشأت المدارس والمشاغل على نفقتها وأوفدت البعثات النسائية الى جامعات أوربا ، وأنشأت مجلة — الاجيبسين (الفرنسية) والمصرية (بالعربية) وشملت الفنون الجميلة برعاية خاصة ، وكان لها أكبر الفضل فى اعداد جيل منهم بل فى اعداد أكبر عباقرة الفن فى مصر .. وقد لمع اسم (هدى شعراوى) كالنجم الساطع فى أنحاء العالم بأسره .

وفى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٧ فاضت روحها الطاهرة فى نفس اللحظة التى كانت تتأهب فيها للمساهمة فى معركة فلسطين ، بل بعد دقائق من كتابة برنامج هذا النشاط الذى كانت تفكر فى القيام به .. المقاطعة .. التطوع خلف الجيوش كممرضة ومحاربة .. التبرعات .. الدعاية فى الخارج .. !

هدى شعراوي

تؤسّس الاتحاد النسائي

.. ولم يكن تأليف الاتحاد النسائى المصرى فى ١٩٢٣ شيئا عاديا فى تاريخ البلاد ، بل كان حادثا ضخما فى وسط الظروف التى سبقت تكوينه ، والظروف التى جاءت من بعده نتيجة لذلك التكوين !

ولم يكن ميلاده « عملية سهلة » فهو الحلقة الرابعة فى سلسلة المحاولات التى قامت بها المرأة المصرية فى سبيل توحيد صفوفها .. وجمع كلمتها !

وكانت المحاولة الأولى فى سنة ١٩٠٤ يوم دعت « الأميرة » عين الحياة الى تأليف جماعة من السيدات المصريات لاقامة مستوصف كمستشفى الليدى كرومر ، وكانت السيدة الصغيرة هدى شعراوى هى أول من لبى النداء ، ولم يلبث المستوصف ان أصبح حقيقة واقعة ، وهو المعروف الآن باسم مبرة محمد على .

وقامت بالمحاولة الثانية السيدة هدى شعراوى أيضا فى سنة ١٩٠٦ عندما لاحظت ان قوام السيدات المصريات لا يشرف سمعتهن فى دنيا الرشاقة والجمال ، فأنشأت ملعبا رياضيا خاصا ، ليزاولن فيه مختلف الألعاب الرياضية .. وبديهى ان هدى هانم لم تكن تهدف الى اصلاح قوام المصريات وحسب ، بل كانت أولا تتوسل بهذا الطريق الى تكتيلهن فى سبيل نهضتهن بصفة عامة ، ولكن التقاليد اذ ذاك لم تسمح بنجاح ذلك الملعب فلم يجرؤ على ارتياده سوى مجموعة صغيرة منهن ، على الرغم من ان هدى هانم لم تغفل اذ ذاك أمر تلك التقاليد القاسية فأحاطت ملعبها بأسوار عالية تحجبهن تماما عن أنظار الفضوليين !

وتطورت هذه الفكرة فى سنة ١٩٠٧ الى دعوة للعناية بشئون الطفل لا شك انها تمخضت اذ ذاك عن بعض الجهود ..

وكانت المحاولة الثالثة ، هى انشاء جمعية المرأة الجديدة سنة ١٩٠٩ يوم اجتمعت فى شهر أبريل من ذلك العام نخبة من أكرم السيدات .. اجتمعن فى منزل المرحوم حسين «بك» ثابت حيث كانت كريماته هن الداعيات ونذكر ضمن الحاضرات لهذا الاجتماع : السيدة حرم الدكتور محمد بك صدقى والسيدة حرم الدكتور بهى الدين بركات والسيدة احسان القوصى والسيدة جميلة عطية الخ .. وزارت هدى هانم شعراوى جمعية المرأة الجديدة بعد أسابيع وغمرتها بعطفها وأموالها فاجتمعت الأعضاء وقررن انتخابها رئيسة فخرية ..

ثم أسست السيدة هدى شعراوى الاتحاد النسائى المصرى سنة ١٩٢٣ وضم كل سيدة يمكن أن نعتبرها من سيدات الطليعة اذ ذاك ، وفى مقدمتهن الرائدات الأوائل استر فهمى ويصا ، وعنايات سلطان ، وسيزا نبراوى ، وجميلة عطية ، وعزيزه هيكل ، ونفيسه علوبه ، وماری كحيل ، وبهيجه رشيد ، واحسان القوصى ، وحفيظة الألفية ، وحواء ادريس ..

وعلى الرغم من ان الاتحاد النسائى كان قد تألف للمطالبة بحقوق المرأة السياسية ، وفى مقدمتها حقا الترشيح والتصويت ، بعد أن سلبهما منها قانون الانتخاب .. على الرغم من أن الاتحاد النسائى قد تألف لهذه الغاية بالذات ، فان الاتحاد كان عليه فى الواقع أن يخوض عشرات المعارك الأخرى ، قبل أن يشن أى هجوم عام على هذا الهدف .. أو كان عليه قبل كل شىء أن يكسب بعض المواقع « الاستراتيجية » التى تمكنه بعد ذلك من هذا الهجوم !

كان عليه أولا أن يقنع الرأى العام بفكرة « اتحاد النساء » وأن يقنع المصريات أنفسهن بالالتفاف حول هذا الاتحاد .. ولم يكن ذلك أمرا سهلا وقتذاك !

وكان عليه ثانيا أن يعد جيش الطليعة الذى سيتولى الدفاع عن حقوق المرأة ويحتمل مسئولية تحريرها ، ولا بد أن يجند لهذا الجيش

آلاف النساء المتعلمات فى وقت كانت المدارس لا تزال تغلق أبوابها فى وجه المرأة ، اذا استثنينا بعض المدارس الابتدائية القليلة !

وكان عليه ثالثا أن يربط بين كفاح المرأة المصرية بكفاح العالم أجمع وبكفاح أختها العربية بصفة خاصة !

وكان عليه رابعا أن يواجه مشكلات الساعة بالنسبة للمرأة المصرية.. كرفع سن الزواج بالنسبة للفتاة ، وكوقف عادة الزواج بالأجنبيات التى انتشرت اذ ذاك بين الشبان المتعلمين الذين كانوا يسافرون الى أوربا طلبا للعلم !!

وكان عليه خامسا ، وسادسا ، وسابعا .. عشرات من المعارك المختلفة كانت تنتظره ، وكانت الأقدار قد حررت لها موعدا معه ، ولم يكن ثمة مناص من تصفيتها قبل خوض المعركة الكبرى .. معركة الحقوق السياسية !

وكانت « هدى شعراوى » نموذجا للقائد العظيم الذى يعرف متى يدير المعركة وكيف يديرها .. كانت أبرع من يختار الوقت المناسب ، ثم ينظم حملة من الدعاية الواسعة لتأييد هدفه المباشر ، ثم يتحرك نحو هذا الهدف فلا يلبث أن ينتصر !

وقد قوبل الاتحاد النسائى عند بدء تكوينه بمعارضة عنيفة من الرجعية ، فخرج الجهل والتأخر والجمود والاستعمار والاقطاع .. خرجت كلها من أوكارها تحمل على الحركة النسائية منذ مولدها ، فأخذت القائدة العظيمة تتصل بالأحرار ، من قادة الفكر فى مصر وتكسب من بينهم أصدقاء للقضية التى تدافع عنها فانبرى كتاب ، وشعراء ، وزجالون .. يدافعون عن الحركة النسائية ، ويصدون عنها هجمات الاستعمار والجهل والتأخر .. حتى الذين كانوا ينقدون المرأة المصرية فى عنف تدرجوا فى لهجتهم الى الاعتدال .

قال بيرم التونسى فى ذلك الزجل الذى دعا فيه الى تحرير المرأة المصرية برغم حملته الشديدة عليها : —

غلبت أقول للرجـــال خلوا المـــرأة حـرة
تخش رخـرة المجـال تفهم ... وتتـــدره
العـاقلة بنت الحـلال ما يضرهاش بـــره
لكن بتنصـح فى مين روس جامدة سنطاوى

***

جهـل النسا بالعلوم خلونا أنتيـــــكة
تفهم فى فن الهـدوم رقعـة ، وتشتيـــكة
وفى البلد ع العموم مـــا تلقى فابريـكة
غير فابريكات الطحين فليحيـا « بدراوى »

***

راية ولاد العـــرب فى الأرض منكوسـة
طول عمرها والسبب احسان ونفوســة
والله اللى قال ما كدب نسواننا موكوســة
حتى اللى متعلمـــين بردون يا « شعراوى » !

***

وهكذا ترى ان الاتجاه النسائى المصرى كسب أكبر زجال ظهر فى مصر حتى اليوم ، عندما اقتنع بقضية المرأة بكل تفصيلاتها ، فهو يدعو الى أن تكون « المرأة حرة » .. « تخش رخره المجال » أى يكون لها حق المساواة مع الرجال ، دون يشمك ولا برقع ولا حجاب .

« ما يضرهاش بره » ثم يدعو الى تعليمها « جهل النساء بالعلوم خلانا أنتيكة » ثم بين أهمية ذلك كله عندما أعلن أن سر انتكاس راية العرب « احسان ونفوسة » .. أى المرأة التى لم تحرر بعد !

ثم حمل على المتعلمات من المصريات أيضا ، ولعله قصد بذلك الى استفزازهن لمضاعفة الجهود والتضحيات ..

ولعل من أروع ما نشر أيضا دفاعا عن المرأة فى ذلك الوقت هو لحن سيد درويش الخالد وقد نظمه بأسلوب ذلك العصر ، الزجال الكبير بديع خيرى .

ده بأف مين اللى يأنس　　على بنت مصر بأنهى وش ؟
والنبى يجرى ويتليس　　ما طلع كلامه طظ وفش ؟

***

دى المصرية كتر خيرها　　فى التربية سبقت غيرها
يا جدع اعقل !

بردون يا افندى بالذمة　　ايه بس عيب المصرية ؟
بتنسى ليه فضل الأمة　　وتجيب بدالها افرنجية !

***

دى المصرية تبيض وشك　　الأفرنجية عينها ف قرشك
افهم يا أهبل !

الى آخر هذا اللحن القومى الذى لا يزال أصدقاء فن سيد درويش يرددونه الى اليوم كنموذج لأنجح ألحانه وأقواها .. ولا أدرى هل أخطأ سيد درويش أم أصاب حين تعهد أن يصنع لحنه فى لهجة «الروح» البولاقى الذى كانت بعض الكوميديات المسرحية تنسبه الى بعض السيدات المصريات فى ذلك الحين ولكن المعانى على كل حال تجعل منه دفاعا لا ينسى عن المرأة يستحق أن يشكر عليه المؤلف والملحن معا .

وبعد فهل أنا فى حاجة بعد ذلك الى الكلام عن بعض ما أداه الاتحاد النسائى المصرى من جهود وبعض ما بذلت رائداته الأوائل من تضحيات؟

لقد انتصر فى أكثر المعارك التى خاضها ففى سنة ١٩٢٤ نجح فى اقناع الحكومة بسن تشريع برفع سن الزواج للفتاة الى ستة عشر عاما ، ولم تعد

الفتيات الأطفال تزف الى أزواجهن ، وهن بعد لا يدرين من أمر الدنيا شيئا ، ولا يفهمن عن حياة الزواج كثيرا أو قليلا .. لقد وضع حدا لتلك المأساة التى ظلت تمثل على مسرح المجتمع المصرى أعواما طويلة ، حين كانت جداتنا يتزوجن فى التاسعة وفى العاشرة من أعمارهن وبدأ القانون يمنع هذه المهازل ولا يعبأ بصرخات ذلك العاشق المجنون الذى انطلق فى شوارع مصر يشكو من ذلك القانون بالأغنية المشهورة .

أبوها راضى وانا راضى ومالك انت ومالنا يا قاضى ؟؟

والتفتت رئيسة الاتحاد النسائى الى مشكلة تعليم المرأة فطالبت هدى شعراوى بمساواة البنات بالبنين فى المدارس وتم لها ما أرادت ففتحت المدارس الثانوية أبوابها للمرأة ثم طالبت بفتح أبواب الجامعة أيضا .. ولم يكتف الاتحاد النسائى بالمطالبة فقد أنشأ هو عددا من هذه المدارس التى لا تزال قائمة الى اليوم .

ثم انطلق الاتحاد النسائى بتوجيهات رئيسته الخالدة يعمل فى الميدان الدولى ، فمثل المرأة المصرية فى عشرات المؤتمرات النسائية التالية وفى مقدمتها مؤتمرات روما وجراتسى ، وباريس ، وامستردام ، وبرلين ، ومرسيليا ، واستنبول ، وبروكسل ، وبودابست ، وكوبنهاجن ، وجنيف ، وحيدر اباد ، ونيودلهى .. ثم عمل على توطيد علاقة المرأة المصرية بنساء العرب فزارت رئيسته لبنان ، وسوريا ، وفلسطين ، وشرق الأردن ، بين عامى ٤٤ و ٤٥ — وكانت أولى ثمار هذه العلاقات النسائية العربية الجديدة هى المؤتمر الذى أقامته نساء العرب لنصرة قضية فلسطين ..

ولكن المنية عاجلت الزعيمة الباسلة هدى شعراوى قبل أن تخوض المعركة الفاصلة والأخيرة من أجل الحقوق السياسية للمرأة المصرية .. لقد مهدت لها أعظم تمهيد ولا شك ، ووجهت الجيل الناشىء من الفتيات لضرورة الكفاح من أجل قضية المرأة والعمل والتفانى فى سبيل استخلاص حقوقها كاملة غير منقوصة .

فمهدت لنا الطريق .. وكنا — أى الجيل الناشىء من الفتيات — ننظر لها لا كرائدتنا الأولى فقط بل كمثلنا الأعلى وكأم لكل منا .

التعليم

أول الأسلحة فى معركة الحرية

وكانت التجارب الماضية كافية لأن تقنع المرأة المصرية بأنه لا سبيل الى الانتصار فى معركة تحررها الا باستخدام ثلاثة أسلحة ، بل ان هذه الأسلحة ليست وسيلة فحسب ، ولكنها وسيلة وغاية فى وقت معا .

أما الأول فهو العلم ..

وأما الثانى فهو العمل ..

وأما الثالث فهو الخدمة العامة ..

فالعلم هو طريق الوعى والاستنارة واليقظة لحقوقها ، وهو فوق ذلك كله « القنطرة » التى لابد أن تعبرها فى الوصول الى السلاح الثانى .. العمل .

والعمل هو طريق التحرر الاقتصادى .. هو تحطيم لأساس عبوديتها وهى أنها تعيش عيالا على الرجل ، ينفق عليها ، فيحس أنها مجرد عالة عليه لا تستطيع أن تعيش بدونه .

والخدمة العامة هى طريق الاتصال بالمجتمع ، والاحتكاك بالشعب واقناعه بالعمل الايجابى على انها مواطنة صالحة جديرة بكل ما للمواطن من حقوق . وبلا ترتيب ، ولا تدبير ، ولا تنظيم سابق انطلقت المصرية الباسلة بفطرتها السليمة تفتح جميع الأبواب المغلقة فى وجهها ، أحيانا تدقها بعنف وأحيانا تقتحمها بالقوة . وأحيانا تتسلل اليها بالحيلة والدهاء ..

انطلقت المصرية العظيمة فى وقت واحد تستكمل حقوقها فى التعليم وفى العمل وفى الحياة العامة .. ولم تلبث ان سجلت نصرا ساحقا فى هذه الميادين الثلاثة جميعا .

الزمن لا ينحنى للرجعية

ان مدرسة القابلات والمولدات التى أنشأها « محمد على » لتخريج العدد اللازم لمساعدة السيدات على الولادة — لم تلبث ان تحولت الى مدرسة للحكيمات ثم الى مدارس للممرضات ثم الى بعثات نسائية الى الخارج للتخصص فى الطب والتمريض .

والمدرسة السيوفية الوحيدة التى أنشأها اسماعيل ربما لتخريج « وصيفات » متعلمات لحريم الخديو لم تلبث ان أصبحت مجموعة من المدارس الابتدائية .

وظنت الرجعية ان نهضة المرأة التعليمية يمكن أن تقف عند هذا الحد ونسيت سنة التطور وطبيعته فلم تلبث المرأة ان دخلت المدرسة الثانوية على يد الرائدة الأولى « هدى شعراوى » وبفضل جهودها ومساعيها .

وعند تخرج الفوج الأول من طالبات المدرسة الثانوية الأولى سنة ١٩٣٠ تقدم أكثرهن بطلبات الالتحاق الى مختلف كليات الجامعة .

الى الجامعة .. ما شاء الله .

الى هنا ولم تستطع الرجعية أن تملك أعصابها ولم تستطع أن تهضم فتح باب القمقم للمارد الجديد أكثر مما فتح !

وقامت فى مصر ضجة . فقد انبرى للدفاع عن حق المرأة اثنان من أعز الرجال على مصر .. بطلان من أبطال الحرية وقائدان كبيران فى عالم الفكر العربى .. لطفى السيد وطه حسين .

لقد ضاق الأول ذرعا بالعقليات الجامدة المتحجرة التى بدأت تضع العراقيل فى وجه تعليم البنت فى هذه المرحلة العالية ولم يلبث أن قدم استقالته من منصب مدير الجامعة تسجيلا لغضبه على تلك المحاولات الرجعية .

أما الثانى فحاول أن يصمد فى وجه العاصفة .. حاول أن يقتلع هذه الطفيليات التى تريد أن تمنع عجلة الزمن من الدوران ولكن عاصفة الرجعية كانت من القوة بحيث أمكنها أن تقتلعه هو من منصبه . فأقيل من عمادة كلية الآداب ..

فظن الرجعيون ومن ورائهم دعاة التردد والهزيمة أن اقصاء طه حسين عن الجامعة يحول بينه وبين علم الجهاد فى سبيل الحرية عامة فاذا هو مارد لا ينال منه واذا هو يشغل أسماع المصريين وأبصارهم بل يصبح طه حسين فكرة فى ضمير العالم الاسلامى وفى ضمير كل امرأة تعرف لها حقا وأنها جديرة بالحياة ولن تجدر الحياة بمصرية تنكر على طه حسين سيرته العطرة فى سبيل حرية المرأة ونيل حقوقها .

ان الجامعات المصرية التى تضم بين جدرانها اليوم آلاف الطالبات يجب أن تقيم كل منها تمثالا لطه حسين فقد فتح صدره لهن حين كان عميدا ومضى يكافح فى سبيل حقوقهن خارج الجامعة وبلغت نهضة النساء عصرها الذهبى حين ولى شئون التعليم وأصبح وزيرا للمعارف ثم عاد أخيرا فاذا هو كما بدا يذكر حين زيارته لسوريا ولبنان أخيرا انه لن تقوم لأمة عربية دعائم صالحة ما لم تشارك المرأة فى ميادين الحياة جميعا .

هذا هو الرجل الذى نصرنا وشد من أزرنا وعصف بخصومنا وقدمنا الى المجتمع فى كل نواحى المجتمع ..

وقد أقيل الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب وكان من دواعى اقالته نشر صورة له وسط طالباته وطلابه أن ضاق الأستاذ أحمد لطفى السيد بالعقليات الجامدة المتحجرة التى بدأت تضع العراقيل فى وجه تعليم البنت فى هذه المرحلة العالية ، فقدم استقالته من منصب مدير الجامعة فى سنة ١٩٣٢ احتجاجا على تلك المحاولات الرجعية التى عصفت بحرمة الجامعة وحريات المواطنات .

ومن أجمل مظاهر التأييد التى جاءت فى أعقاب ذلك الحادث أن طلاب الجامعة وطالباتها أضربوا احتجاجا على الحكومة الرجعية وردا على الحملة المغرضة القاسية التى وجهت الى طه حسين .

ومع كل هذه العواصف وفى وسط كل هذه الاحتجاجات الصاخبة أمكن للمرأة المصرية أن تتسلل الى حرم الجامعة وأن تنتشر فى أكثر الكليات ثم استطاعت فى خلال السنين القليلة الأولى أن تثبت تفوقها على الرجال .. حتى فى هذا الميدان بالذات .

كن ١٣ طالبة جامعية .. أربعا بكلية الآداب وثمانى بكلية الطب وواحدة بكلية الحقوق وما هى الا بضع سنوات حتى ظهرت المعجزة الكبرى فقد كانت الأولى فى بعض أقسام كلية الآداب فتاة والأولى فى كلية الحقوق هى الفتاة الوحيدة بها ! والثانية فى كلية الطب فتاة ! ولم تلبث الـ ١٣ طالبة ان نجحن جميعا . فتخرجت الأستاذة نعيمة الأيوبى .. أول محامية مصرية وتخرجت الدكتورة كوكب ناصف أول طبيبة مصرية تدير مستشفى وتخرجت الدفعة الأولى بكلية الآداب فى تفوق ملحوظ وفى مقدمة هذه الدفعة الأستاذة سهير القلماوى .

ولم تستح العناصر الرجعية من هزيمتها أمام التطور فانطلقت الألسنة السخيفة تحارب التحاق البنات بالجامعة بأساليب أخرى ، كالزعم بأن من تلتحق بالجامعة هى واحدة من اثنتين .. اما فقيرة محتاجة تريد أن تتوظف لتعول عائلتها ! أو قبيحة دميمة تريد أن تعوض نقصها الأنثوى بالعلم .

ومع ذلك أيضا فقد أقبلت المصريات الواعيات على الجامعة وعلى مختلف المعاهد بحماسة لا تقل عن حماسة المصريين من الرجال.. وأسفرت نتائج الامتحانات عن تفوق باهر للفتاة فى مختلف الكليات .

وقد بهرت هذه النتائج الناطقة جميع الباحثين والمسئولين فى مصر وأخرست كثيرا من الألسنة التى يطلقها ذووها من أصحاب النفسيات المريضة طعنا فى المرأة وتجريحا لها .. وقد مهدت السبيل لتحطيم ما بقى من حواجز وعقبات فى سبيل تعلم المرأة المصرية ففتحت لها جميع أبواب

الكليات تقريبا بل فتح لها أيضا باب معهد التمثيل العالى ولم يعد يغلق فى وجهها الا عدد ضئيل جدا من المدارس — وقرر الأزهر أخيرا فتح أبوابه أمامها ، والى جوار ذلك أنشئت لها عشرات من المعاهد الخاصة .. عالية ومتوسطة وفنية لعل أهمها معهد التربية للمعلمات والتربية النسوية ومعهد الألعاب البدنية ومعهد الموسيقى ومدرسة الحكيمات الخ .

وكانت حركة تثقيف المرأة المصرية ومكافحة الأمية بين صفوفها أنشط وأسرع منها بين الرجال .

ولست أريد بنشر هذه الحقائق اثارة فكرة التعصب لبنات جنسى ولا أريد أن أفسر كل هذا بأكثر من انه تعبير عن تصميم المصريات على تحررهن من الظلام الذى يعشن فى قيوده واعلان عن ارادتهن الصلبة فى اكتساح كل العقبات والعراقيل التى توضع لهن فى طريق الحرية .. طريق الخلاص .. طريق النور !

فهكذا تمكنت النساء المصريات من الحصـــول على أول الأسلحة الثلاثة التى يحتجن اليها فى نضالهن .. فى معركتهن الكبرى .

لقد انحسرت العصابة — عصابة الجهل — من فوق وجوههن ولم تعد هناك قوة بعد ذلك تستطيع أن تحكم عليهن بالبقاء فى الاستعباد والذل الى الأبد !

لقد فهمن الآن كل شىء واستوعبن كل شىء .. ولست أزعم ان كل نساء مصر قد تعلمن ولكنى أقول فقط ان جيش الطليعة من المصريات قد تسلح وأصبح على أهبـــة الاستعداد .. وأريد أن أقول ان نسبة المتعلمات الى نسبة المتعلمين لم تعد من الهوة والاتساع بحيث تبقى حجة فى أيدى خصومنا من الرجعيين والاستعماريين .. وأريد أن أقول أخيرا أن المرأة المصرية قد عبرت القنطرة نحو الخطوة الثانية وهى العمل !

المصرية

تحقق المعجزات فى ميادين العمل

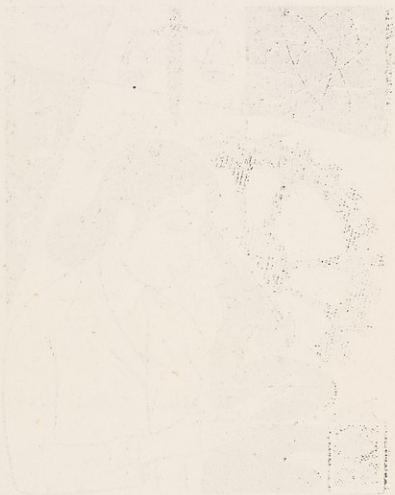

.. وكان العمل هو الخطوة الثانية ، وكان العمل أيضا هو ثانى الأسلحة التى تشهرها المرأة المصرية فى معركة تحررها !

ولما تخرجت من الجامعة محاميات ، وطبيبات ، وأديبات ، ومهندسات ، وعالمات ، كان طبيعيا أن يطالبن بحقهن كذلك فى العمل !

كان خصوم المرأة قد نسوا تلك الضجة التى أقاموها حول دخول البنت الى الجامعة .. نسوها أو تناسوها بعد أن منوا بالهزيمة الساحقة فما ان تخرجت حتى استأنفوا الصياح من جديد .. كيف تشتغل الفتاة بالمحاماة ؟ كيف تترك الجرة لترتدى روب الأستاذة ؟ كيف تترك المطبخ لتقف فى ساحات المحاكم ؟ كيف تهجر الرجل الذى ستتزوجه لتستقبل الموكلين والمتقاضين ؟ !

ولكن المرأة المصرية أثبتت عن جدارة أنها تستطيع أن تنزل الى ميدان العمل مع القيام بواجباتها الأخرى كزوجة وأم وبهرت بنجاحها الجميع واعترف الجميع بأن المرأة المصرية لم تعرف الفشل مطلقا فى أى ميدان من الميادين التى نزلت اليها .

ولا تخلو محكمة واحدة الآن فى كل صباح من محامية أو أكثر تخدم العدالة وتكسب عيشها بنفسها الى جانب رسالتها فى البيت — زوجا وأما نموذجية .. وأذكر هنا الأستاذة مفيدة عبد الرحمن ، التى تدير مكتبا من أكبر مكاتب المحامين فى القاهرة تشرف بنفسها على تربية تسعة من أطفالها وتساهم فوق ذلك كله فى كثير من مجالات الخدمة العامة فتحاضر وتناظر وتشترك فى كثير من الهيئات النسوية والاجتماعية

كعضو عاملة نشيطة ، ولو كان خصوم المرأة فى مصر منصفين ومعقولين لأخجلهم مثل هذه السيدة ولحطم كل الحجج الواهية السخيفة التى يقيمونها للتدليل على ان نزول المرأة الى الحياة العامة سيكون على حساب بيتها وزوجها وأولادها !

ومع ذلك فهل قنعت خريجات الحقوق بمزاولة مهنة القضاء الواقف .. كلا فمنذ خمسة عشر عاما وهن يطالبن بحقهن فى منصب وكيل النائب العام وقد تقدمت بأول طلب للحصول على هذه الوظيفة الأستاذة كريمة حسين ثم تلتها الأستاذة عائشة راتب التى لم تكتف بالطلب بل رفعت قضية فى مجلس الدولة لمطالبة وزير العدل بهذه الوظيفة التى تستحقها قطعا بما حصلت عليه من درجات .

فاذا تركنا خريجات الحقوق — لننتقل الى خريجات الطب ، لوجدنا معجزات جديدة للمرأة المصرية ففى كل فروع الطب نبغت متخصصات وظهرت مواهب الطبيبات المصريات التى أصبحت عيادات بعضهن تنافس أكبر العيادات الطبية فى الشرق ولكن الاضطهاد لا يزال يطاردهن وكأن أنوثتهن جريمة تستحق العقاب فلم يسمح لخريجات الطب حتى الآن أن يكن طبيبات امتياز « فى المستشفيات الجامعة » حتى يمكن لهن أن يسرن فى نفس الطريق التى يسير فيها النابغون من أطباء الامتياز .. نوابا فمساعدين فأساتذة بكليات الطب ونذكر بالفخر والاعجاب الدكتورة كوكب ناصف التى وصلت الى درجة مديرة احدى المستشفيات الكبرى بالقاهرة عن جدارة واستحقاق .

وقد صبرت المرأة المصرية طويلا على حرمانها من هذا الحق الطبيعى الذى لم يوجد له مسوغ واحد حتى اضطرت أخيرا أن تطالب به رسميا وتحتكم فيه أيضا الى القضاء الادارى .. ولكن جهود المرأة المصرية فى ميدان الطب لم تقتصر على بضع عشرات من الطبيبات كلا فهناك مئات الحكيمات وآلاف الممرضات وقد خلت المستشفيات الآن تقريبا من « السسترات » الانجليزيات حيث شغلت وظائفهن الآن أخوات مصريات

أظهرن من البراعة والتفوق ما أسكت القائلين بأن المصريات لا يمكن أن يملأن فراغ الانجليزيات والسويسريات .. فى هذا الميدان !

وفى ميدان التربية والتعليم كانت الرائدة الأولى نبوية موسى — التى سهرت أعواما طويلة على اعداد الجيل الحاضر من المتعلمات فى مصر — فأخرجت الطليعة المثقفة من الجيش النسائى الزاحف وكانت مدارسها (بنات الأشراف) عنوانا على كل المعانى العظيمة التى توحى بالثقة .

وتابعت سيدات عظيمات السير فى هذا الموكب الكبير وفى مقدمة هؤلاء اللاتى تزعمن رسالة التربية الآن.. السيدات الجليلات أسماء فهمى، وانصاف سرى ، ومنيرة صبرى ، وكريمة السعيد ، وسميه فهمى ، ونظلة الحكيم ، وسهير القلماوى ، وعائشة عبد الرحمن ، ونفيسه الغمراوى ، ومئات بل آلاف من المفتشات والمدرسات والمعلمات فى المعاهد العالية والمدارس الثانوية والابتدائية ورياض الأطفال بل فى الملاجىء والمشاغل ودور الحضانة ..

فاذا تركنا ميادين القضاء والطب والتعليم لنلقى نظرة على ميدان الصحافة لرأينا ما هو أعجب وأروع ففى خلال أعوام قليلة سطعت فى بلاط صاحبة الجلالة عشرات الأسماء التى استطاعت صاحباتها أن ينتزعن من زملائهن قيادة الرأى العام وفى كل يوم يطالع قراء الصحف مجموعة كبيرة من المقالات والأحاديث والأخبار والريبورتاجات وفى ميدان الهندسة .. وميدان العلوم والفنون بل فى الطيران أيضا . لقد أصبح لمصر عالمات فى الذرة .. وعالمات فى الهندسة . ورسامات وطيارات !

فاذا رفعنا الستار عن نهضة المسرح والسينما فى بلادنا لرأينا أن نساءنا لم يساهمن فيها فقط بل كن فى مقدمة من وضع حجر الأساس فيها ويكفى أن نذكر هنا ان مؤسس صناعة السينما فى مصر كان سيدة ، هى المغفور لها الفنانة « عزيزة أمير »

وكانت نظرة الناس الى المشتغلين بالفن نظرة احتقار حتى اقتحمت ميادينه رائدات جريئات من بنات الأسر الكبيرة والمتعلمات — بهيجة حافظ وجنان رفعت وسميرة خلوصى وأمينة البارودى . وأمينة رزق وزينب صدقى وميمى شكيب وزوزو شكيب وفاتن حمامة وراقية ابراهيم وأمينة نور الدين وفاطمة رشدى ومديحة يسرى وكوكا ونجمة ابراهيم وزوزو حمدى الحكيم وعلوية جميل وغيرهن .

حتى لقد أصبحت لدينا الآن مجموعة عالمية من الفنانات المصريات ..

ولم يكن اشتراك المرأة المصرية فى المسرح وفى السينما أمرا سهلا ولم يكن الطريق أمام المشتغلات مفروشا بالورود والرياحين فقد كان عليهن أن يكافحن كفاح الأبطال لشق طريقهن وفرض رسالة الفن على أكوام من التقاليد والعراقيل .. ولعل البعض منا لا يزال يذكر بالاعجاب كفاح كواكب المسرح الحديث فى فجر نهضته ..

ومع ذلك فهل اقتصر دور المرأة المصرية فى ميدان الفن على التمثيل والغناء — كلا ففى أكثر الاستديوهات المصرية الآن نابغات فى صناعة السينما فالسيدة وفيقة أبو جبل من ألمع الفنانين فى عملية المونتاج وكثيرات غيرها يشتغلن فى الانتاج والديكور والمكياج حتى الاخراج بدأت المصرية الطموحة تنزل الى ميدانه أيضا . بل بعضهن الآن مديرات شركات — هذا بالطبع الى جانب جيش العاملات المشتغلات فى مختلف الأعمال التكميلية بمختلف الاستديوهات السينمائية .

فلا عجب اذا وجدنا فى مجالس ادارة النقابات الفنية بعض العناصر النسائية بل لا عجب اذا وجدنا كوكب الشرق السيدة أم كلثوم تتنزع رئاسة نقابة الموسيقيين لبضع سنوات .

* * *

وقد يقول البعض انك تتحدثين عن بضعة ألوف من المتعلمات أما نساء الشعب فما زلن مقيدات فى بيوتهن ولكنى سوف أثبت لهذا

البعض انه أكثر خطأ فى هـذا الوهم فقد سبقت نساء الشعب نساء الطبقتين المتوسطة والعالية الى ميادين العمل ..

ولنتكلم عن العاملات مثلا ..

بدأت الصناعة فى مصر نهضتها الحديثة فى سنة ١٩٣٠ .. فى ذلك العام تألف اتحاد الصناعات وبدأ بنك مصر ينفذ مشروعاته الصناعية وكان العالم فى ذلك الحين يشهد صراعا جبارا فى الصناعة .. وكان من شأن ذلك التنافس الدولى على كسب أسواق العالم أن يخفض تكاليف الانتـاج أى يخفض أجور العمال ..

وكان على الصناعة فى مصر أن تجارى هذا التيار وكانت مهمتها أسهل فبدأت المصانع تجتذب الفلاحين الأجراء من القرى فيهرعون الى المدينة حيث الأجر اليومى من الصناعة يزيد عن الأجر اليومى من الزراعة .. ولكن هذا لم يكن يكفى لحل مشكلة اليد العاملة للصناعة المصرية ، فالصناعة عادة تحتاج الى عقول أكثر استنارة من العقول « الخام » التى كانت تأتى من القرية رأسا دون أن يسبق لها رؤية ماكينة أو موتور ومن هنا نشطت وزارة اسماعيل صدقى (وكانت تمثل رجال الصناعة) فى انشاء المدارس الالزامية لعلها تساعد فى ايجاد عناصر أكثر صلاحية للعمل الصناعى .. ومن هنا أيضا بدأ التفكير فى الاستعانة بالعاملات المصريات !

ان الفتاة المصرية التى تجد سبل العمل فى وجهها مغلقة سوف يسرها بطبيعة الحال أن يفتح لها باب العمل فى المصانع ويصبح من السهل على أصحاب هذه المصانع أن يعرضوا عليها أجرا أقل مما يتقاضاه عن نفس كمية العمل وساعاته ان مسئولياته ونفقاته أكثر منها أنها على الأقل لا تدخن ولا تجلس على المقاهى أو تتردد على الحانات !

وبدأ الغزو النسائى للمصانع وهو ما اعترفت به الدولة ضمنا فى القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٣٣ والذى أشار الى توظيف المرأة فى المصانع ثم عدل بالقانون رقم ٢٢ لسنة ١٩٣٦ طبقا لازدياد عـدد المشتغلات

بالمؤسسات الصناعية والتجارية وقد حدد هذا القانون للمرأة ساعات العمل وأوقات الراحة اليومية والأسبوعية والأجازات الاجبارية التى تعطى لها بأجر .. شهرا قبل الوضع وخمسة عشر يوما بعد الوضع هذا علاوة على الأجازات المرضية التى تمنحها بنصف أجر .

واذا ذهبنا الى الريف لنعرف شيئا عن الفلاحة الكادحة لوجدنا أنفسنا أمام حقيقة رائعة هى أن الفلاحة تعمل فى الحقل كالفلاح تماما علاوة عما تقوم به من أعمال فى المنزل والسوق .. الخ .. انها تساهم بالعمل الايجابى على زيادة دخل الأسرة فتشتغل الى جانب زوجها فى جمع القطن وفى تنظيفه وفى تنقية البذرة وفى بذرها وفى حصاد الزرع وفى بيع غلة الأرض ومنتجاتها .. ولكنها لا تكتفى أيضا بأن تبذل نفس الجهد الذى يبذله العامل الزراعى هناك بل هى تضيف الى مسئولياتها أعباء أكثر منه فهى التى ترعى الماشية وتربى الدواجن وتحلب الألبان وتصنع منها الجبن والزبدة والقشدة وهى التى تعجن العيش حيث لا يأكل أى فلاح رغيفا واحدا من صنع المخابز العامة التى لا وجود لها تقريبا فى الريف .. وكذلك هى تغزل الصوف وتنسج بأنوالها اليدوية وقد ذكر احصاء رسمى ان قرية واحدة من قرى الصعيد الأعلى كانت تصنع ستة آلاف نول يدوى يشتغل على ٩٠٪ منها النساء بل الفتيات الصغيرات!

(وانه لمن دواعى فخر « اتحاد بنت النيل » اذ تنبه الى أهمية تنشيط مثل هذه الصناعات فتبرع للقرويات بعدد كبير من ماكينات لنسج الأقمشة) .

والى جانب هذه الصناعات الاستهلاكية الخاصة تنشط القرويات أيضا للمساهمة فى كثير من الصناعات التى تدر على الأسرة الريفية كثيرا من الخير ومن أهم هذه الصناعات .. صناعة السجاد والكليم فى الوجه البحرى وصناعة المقاطف والسلال فى الوجه القبلى وكلا الصناعتين تقوم على أكتاف النساء بالذات ..

وهكذا ترى أن فى مصر ثمانية ملايين من الفلاحات .. بل من المعجزات ، أولئك المواطنات الكادحات العاملات فى صمت وفى جلد وفى صبر ...

نعم ما أعظم هذا الجندى المجهول .. ذلك البطل الذى لم يعترف يوما باعجاب ولا بالتقاليد العتيقة ، ولا بأى قيد من القيود فلم يعرف سوى واجبه .. لم يعرف سوى شىء واحد انه عضو فى مجتمع وأن رسالته أن ينتج مع المجموع كما يستهلك مع المجموع !

ان ذلك البطل هو الشجاعة ، العاملة ، الجريئة .. الفلاحة المصرية ..

المرأة تمتاز فى ميادين العمل

لقد امتازت المرأة المصرية فى كل ميدان أقدمت عليه وبرهنت على جدارة منقطعة النظير .

وقد برز أكثر من اسم لامع لسيدات مصريات فى كل ميادين العمل سواء كان ذلك فى الميدان الثقافى أو الميدان الفنى .

المرأة والتعليم :

لقد امتازت فى ميدان التعليم كل من : أسماء فهمى عميدة المعهد العالى للبنات والتى وصلت الى أعلى الدرجات لما تمتاز به من صفات ، والدكتورة سهير القلماوى الأستاذة بجامعة القاهرة ، والدكتورة درية فهمى الأستاذة بكلية الاسكندرية ، والسيدة أنصاف سرى ، والسيدة ناظلة الحكيم ، والسيدة كريمة السعيد ، والسيدة سمية فهمى ، والسيدة نفيسة الغمراوى ، والسيدة عائدة وفائى ، والسيدة منيرة صبرى ، والسيدة دولت الصدر .

المرأة والوظائف الحكومية فى مختلف الوزارات :

والسيدة زاهية مرزوق التى امتازت بنشاط ملموس فى وزارة الشئون الاجتماعية ، والسيدة عزيزة رضوان فى نفس الوزارة ، والآنسة عليه فهمى فى وزارة الخارجية .

المرأة والصحافة :

لقد برزت المرأة فى ميدان الصحافة .. السيدة فاطمة اليوسف صاحبة مجلة « روزاليوسف » والسيدة أمينة السعيد (رئيسة تحرير مجلة « حواء الجديدة ») والدكتورة بنت الشاطىء والسيدة خيرية خيرى والآنسة جاكلين خورى والسيدة مرسيان اللوزى والآنسة ايزيس فهمى والسيدة انجى رشدى ، كما أسست درية شفيق أول مجلة نسائية فى مصر « مجلة بنت النيل » .

وفى ميدان الطب امتازت السيدة كوكب حفنى ناصف . وفى المحاماة برزت كل من السيدات نعيمة الأيوبى ومفيدة عبد الرحمن وعطيات الخربوطلى وعطيات الشافعى ...

وامتازت المرأة المصرية أيضا فى ميادين الهندسة والزراعة والصيدلة والتجارة والعلوم والفنون الجميلة منها الرسم والنحت والتصوير والتمثيل والغناء والموسيقى .

وبهذه المناسبة نذكر كوكبنا اللامع السيدة أم كلثوم .

المرأة المصرية فى حقل الذرة

ويجب أن نذكر أن المرأة المصرية ساهمت فى اعلاء شأن البلاد فى ميادين العلم ومضت فى تلك الميادين الى أعمق الأبحاث حتى تخصصت احداهن وهى المغفور لها سميرة موسى فى دراسة الطاقة الذرية .

المرأة والرياضة :

لقد امتازت الآنسة ايناس حقى فى عبور نهر اللوار .

المرأة المصرية
في الحقل الاجتماعي

.. وفى نفس الوقت الذى كانت «المصرية» الواعية تتسلح فيه بالعلم والعمل ، كانت تتأهب لخوض معركة تحررها بسلاح ثالث كان هو أيضا غاية ووسيلة فى وقت معا وأعنى به التسلل الى الحياة العامة من باب الخدمة الاجتماعية !

انها تطرق جميع الأبواب وكلما أغلق فى وجهها باب دخلت من آخر.. وقد لاحظت أن باب الخدمة الاجتماعية « مواربا » فدفعته فى كياسة وما كادت تدخل حتى أثبتت فى هذا الميدان كما أثبتت فى ميدان العلم والعمل — تفوقا شهد به الأعداء قبل الأصدقاء !

فى بضع سنوات — أنشأت المصريات عددا ضخما من الجمعيات الخيرية التى تؤسس وتدير المستشفيات والملاجىء والمطاعم الشعبية والمدارس .. الخ .

وقد أفادت المصريات بلادهن ومواطنيهن بهذه الخدمات الاجتماعية التى تنمو عاما بعد عام فكم خففت من آلام المرضى وعذاب المصدورين الذين كانوا على حافة الهاوية وكم ساعدت عائلات منكوبة وانتشلت فتيات ضالات وأنقذت أطفالا أبرياء من ظلمات المستقبل الرهيب .. لكنى لا أستطيع أن أنكر ان المصرية الواعية قد أفادت هى أيضا من هذه الجهود ، فقد كان النشاط الاجتماعى مجالا عظيما للتعارف فرأى المواطن بعينه ولمس بيديه جهد أخته المواطنة واخلاصها وجدارتها بأن تحمل معه رسالة الاصلاح والتجديد ..

بل اننى لا أغالى ولا أتعصب اذا قلت ان الذين حملوا راية الخدمة الاجتماعية فى مصر كانوا غالبا من النساء وهو ما اعترفت به الدولة ضمنا

حين أنشأت وزارة الشئون الاجتماعية فانتدبت لمكاتبها الفنية أكبر مجموعة من الشابات المصريات .. من باحثات وزائرات ومفتشات الخ ولم يكن اتجاه وزارة الشئون الاجتماعية الى الاستعانة بالعناصر النسوية بالذات فى أكثر ميادين نشاطها وليد المصادفة بل هو النتيجة الطبيعية لما أظهرته المصريات من براعة واخلاص فى هذه الميادين حتى لقد أصبح للخدمة الاجتماعية فى مصر نجوم يذكرهم الناس جميعا كلما ذكروا النشاط الاجتماعى !

جمعيات نسائية

جمعية المرأة الجديدة :

ولنعد الآن الى الحديث عن نشاط جمعياتنا النسائية فى الميدان الاجتماعى ، وليس فى مقدورى أن أتحدث بالتفصيل فى هذا الفصل عن نشاط جميع الجمعيات النسائية بتوسع ولذا فانى اكتفى بأن أقدم نماذج عنها وعن نشاطها الى القراء ليدركوا أثر المرأة الواضح فى حياتنا الاجتماعية وتفانيها فى النهوض بالمجتمع المصرى الى أن يضارع فى حياته الاجتماعية أرقى المجتمعات المتحضرة .

وأبدأ الآن فأقدم جمعية « المرأة الجديدة » وهذه الجمعية التى ترأسها الآن السيدة هدية بركات وتساهم فى نشاطها مساهمة فعالة السيدة أمينة صدقى أنشئت فى سنة ١٩١٩ وكان الغرض من انشائها فى هذا الوقت رفع مستوى المرأة المصرية عن طريق التعليم والثقافة ولذا كانت تحتضن بنات الشعب من سن الثامنة الى سن الثانية عشرة لتعدهن ليواجهن الحياة مزودات بالثقافة والتعليم مع اتقان الحياكة والتطريز والتريكو . وتساهم فى تنفيذ رسالة هذه الجمعية مجموعة من السيدات الفضليات نذكر من بينهن حرم المرحوم السيد عبد الحميد سليمان وحرم المرحوم السيد على محمود وحرم السيد سامح موسى وحرم السيد على صبور وعدد كبير من سيدات المجتمع .

وكانت هذه الجمعية تخرج كل عام فتيات ينزلن الى معترك الحياة ويسعين الى الحياة الشريفة النظيفة بما أتقن من صناعة التفصيل والتطريز على أحدث الوسائل وأجمل الأذواق ويفخر بهن المجتمع المصرى بما يقدمن من صنع أيديهن من أزياء تغنى فعلا عن استيراد أزياء السيدات الأنيقات من الخارج ، لأن الجمعية كانت تستقدم كل عام من البارعات وأمهر صانعات الأزياء فى باريس ليقمن بتلقين الطالبات فن التفصيل والخياطة على أحدث الابتكارات مما لا يجد الانسان فارقا بين ما تصنعه طالبات هـذه الجمعية فى مصر وما تصنعه عاملات أحـدث دور التفصيل فى باريس .

وكان لجمعية المرأة الجديدة فضل مشكور فى هذا الشأن بما رفعت من مستوى الفتاة المصرية .

وقد نجحت الجمعية فى هذا الميدان نجاحا منقطع النظير وأدت للبلاد عن طريقه أجل الخدمات . ولكنها لم تكتف بهذا الجهد ولم تقف عند هذا النجاح ولم تقنع بما قدمت يداها من أعمال بل أرادت أن تشفع تلك الأعمال النافعة بأخرى فى ميدان النهوض بالمرأة وخدمة المجتمع المصرى ففكرت فى انشاء مدارس لتخريج الممرضات والمربيات الصالحات اللائى يمكن الانتفاع بهن فى ميدانين هامين هما ميدان تكوين الأطفال واعدادهن لجيل نافع وميدان التمريض على أرقى النظم فى العالم ، وبهذا نسد فراغا كانت تملأه المربيات الأجنبيات وبعض الممرضات منهن .

واهتماما من الجمعية بهذا الجانب استقدمت اخصائيات فى فنون التربية والتمريض من سويسرا وانجلترا وغيرهمـا ليقمن على رعاية طالبات هذه المدارس وتزويدهن بكل ما هو جديد فى تخصصهن فى التربية أو التمريض .

ولا تألو جمعية المرأة الجديدة جهدا فى بذل كل ما تستطيع من بذل للأخذ بيد الفتاة المصرية والنهوض بالمجتمع عن طريق اعدادها لما يحتاج اليه المجتمع من خدمات كانت من قبل وقفا على الأجنبيات واحتكارا لهن دون المصريات .

مبرة محمد على :

مبرة محمد على : ترأسها الآن السيدة هدية بركات وتعاونها السيدة أمينة صدقى معاونة صادقة أكيدة ، فاذا تركنا هذه الجمعية العاملة فى صمت توالى نشاطها وكفاحها نجد هناك فى ميدان النهوض الاجتماعى جمعية أخرى تعمل حثيثا وبكد لا يعرف الملل فى النهوض بالمستوى الصحى فى البلاد عن طريق انشاء المبرات ومعالجة المرضى من الفقراء من تشخيص للداء وصرف للدواء مما كان له أثر بعيد فى تخفيف ويلات المرضى على الكثيرين ممن تضيق بهم المستشفيات الأخرى ولا يجدون المال اللازم لعلاج أنفسهم على نفقتهم الخاصة .

وعندما دهم صعيد مصر خطر الملاريا سارع أعضاء « مبرات محمد على » الى ميدان الخطر يساهمن فى مقاومته وتخفيف وطأته غير عابئات بما يتعرضن له فى هذا السبيل الانسانى من خطر المرضى أو جهد يبذلنه ثم يزاولنه فى قصورهن أو فى بيوتهن بل كان هدفهن الذى وضعنه نصب أعينهن — ولا هدف آخر سواه — هو الرحمة .. والرفق بالانسانية المعذبة وتقديم المعونة المالية الى جوار المعونة الكسائية الى تقديم الغذاء وصرف الدواء للمرضى والمصابين والسعى الى دورهم وأكواخهم التى كانوا يقيمون فيها دون ملل أو انقطاع .. كانت سيدات مبرة محمد على بعثات موزعة كل بعثة معها طبيب وممرضات وسيارات تحمل الدواء والغذاء والكساء الى كل بيت وكل مريض كما أسلفت .. ولم يهدأ لهن بال حتى كللت جهودهن مع جهود غيرهن من المساهمات فى التطوع بالقضاء على المرض ودفع خطره عن المواطنين فى تلك المناطق .

* * *

وقد أشرت فى فصل سابق الى تاريخ تكوين هذه الجمعية وقلت ان النواة الأولى فى تكوينها كانت عندما دعت « الأميرة » عين الحياة الى الاكتتاب لاقامة مستوصف أطفال فى شبرا فى مستهل القرن العشرين ،ولم

تلبث الفكرة أن تطورت بسرعة عندما تولت رياستها « الأميرة أمينة حليم » فدفعها بقية الأعضاء — وفى مقدمتهن هدى شعراوى — الى أن تخطو خطوات واسعة فأضافت الى هذا المستوصف أقساما ثلاثة للأمراض الباطنية ، والجلدية ، والأنف والأذن والحنجرة .

ثم ظلت أعمال المبرة ومؤسساتها المختلفة تتزايد وتتسع على مر الأيام ونضوج الوعى الانسانى حتى توسعت أعمال الجمعية وشيدت مستشفى كبيرا لها على أحدث النظم وزود بأحدث وسائل العلاج كما أنشأت عدة مبرات أخرى للعلاج الخارجى بالقاهرة لقاء أجور زهيدة جدا ثم مضت هذه الجمعية تنشىء الفروع لها فى عواصم المدن والبلاد فى أنحاء القطر المصرى بمساعدات الأثرياء والمتبرعين .

وكل هذه المؤسسات تؤدى عملها على أكمل وجه وتباشر مهمتها الانسانية بكل نشاط ومثابرة .

لجنة سيدات الهلال الأحمر :

وتأسست فى سنة ١٩٣٩ لجنة سيدات الهلال الأحمر لتنهض بالعبء الانسانى لأبناء هذا الوطن وتمديد الرحمة التى تمسح بها الأنين والآلام وتذهب بالاسقام ، وتحيى بها الآمال فيمن فقدوها .

وقد أسست هذه اللجنة السيدة ناهد سرى حرم المهندس حسين سرى ، وكان من بين السيدات اللواتى ساهمن فى تأسيس هذه اللجنة وأصبحن أعضاء فى اللجنة التنفيذية السيدات حرم كامل نبيه وحرم محمود ثابت وحرم ابراهيم ذو الفقار وحرم على محمود وحرم حافظ عفيفى وحرم عبد الحميد الشواربى وحرم سامح موسى ، وحرم زكى الفار ولفيف من كرائم السيدات .

وما كادت لجنة سيدات الهلال الأحمر تؤلف حتى كانت هناك مشاكل خطيرة تنتظرها وكأنهما كانا على ميعاد ففى سنة ١٩٤٠ ضربت الاسكندرية

بالقنابل وهجرها أهلها هائمين على وجوههم تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم ومتاعهم وسرعان ما ساهمت اللجنة برياسة السيدة ناهد سرى فى مد يد المعونة لمائة وخمسين ألف مهاجر وتكفلت بكل طلباتهم فى الحياة ويسرت لهم وسائل الراحة مما حمل المسئولين على الاشادة بجهود اللجنة فى هذا الصدد .

وفى سنة ٤٤ واجهت اللجنة مشكلة انسانية أخرى هى خطر الملاريا فى أقاصى الصعيد اذ كانت الملاريا تفتك بالعشرات بل بالمئات كل يوم وسارعت سيدات الهلال الأحمر الى المعمعة بأنفسهن وبذلن جهودا جبارة لانقاذ المرضى من هذا الخطر الداهم غير عابئات بتعرضهن للمرض واقامتهن وسط منطقة موبوءة ببعوضة الجامبيا .

وقد نظم سيدات الهلال الأحمر حملات متنقلة كل حملة منها فى عربة تضم طبيبا متطوعا وممرضة والسيدات المتطوعات والكساء للمرضى واقتسم سيدات الهلال الأحمر مع سيدات مبرة محمد على مناطق المرضى وحاصرنها وقدمن للمرضى الغذاء الدسم الذى يحمى جسومهم من التأثر بالملاريا والكساء الواقى الذى يبعث فيهم الدفء والسلامة .

وكان جهـادا شاقا مريرا لكن نجـاح المتطوعات فى كفاحهن هذا المرض قد خفف عنهن عبء كل تعب وشعرن بسعادة لا تعدلها سعادة بما قدمن من خدمات لبنى وطنهن فى هذه الرقعة من الوادى .

وفى سنة ٤٦ نكب صعيد مصر مرة أخرى بداهية ثانية هى انتشار الحمى الراجعة فى بعض مديرياته وعلى الفور سارعت سيدات الهلال الأحمر الى المناطق الموبوءة وقسمن أنفسهن على مناطق المرضى ووزعن بأنفسهن النقود والأدوية على المرضى وساهمن بكل الوسائل الممكنة فى مقاومة هذا الداء وكن يعملن عملا متواصلا كل يوم من الساعة السابعة صباحا حتى الساعة السابعة مساء دون كلل أو ملل بل كن يشعرن بسعادة واطمئنان وهدوء كلما واسين مريضا أو قدمن لأسرة من الأسر المنكوبة

اعانة وعشن فى هذه المناطق بين الفقراء والمساكين والمعوزين سعيدات بما يقدمن من جلائل الأعمال ولم يغادرن مناطق المرض حتى انتصرن عليه وقضين على خطره .

والآن ترأس لجنة السيدات للهلال الأحمر السيدة حرم عبد الحميد الشواربى وتتولى وكالة هذه الجمعية حرم زكى الفار ، ويبذلان ما فى وسعهما للعمل على تنفيذ أهداف الجمعية .

جمعية تحسين الصحة :

الجمعية التى تعمل على مكافحة السل . من الجمعيات النسائية النابضة بالحياة ، والتى سدت فراغا واسعا ونقصا ملموسا « الجمعية النسائية لتحسين الصحة » التى ترأسها السيدة حرم الدكتور عبد المجيد محمود ومن دواعى الاعجاب والتقدير لجهود هذه الجمعية أنها تكونت بلا رأس مال وكان كل مقوماتها وقت انشائها ايمان أعضائها بواجب من أقدس الواجبات وأحقها بالأداء عليهن الى جموع كبيرة من أبناء هذا الوطن ولا أذيع سرا اذا ذكرت هنا ان رأس مال هذه الجمعية عند تكوينها كان ثمانين قرشا لاغير وتقول الآنسة ليلى دوس سكرتيرة الجمعية ومن أنشط وأجدر السيدات المصريات ان دخل آخر أسبوع « السل » بلغ ٢٢ ألف جنيه مصرى فانظر كيف يصنع الايمان المعجزات ويوجد أشياء من لا شىء .

وقد تكونت هذه الجمعية فى أواخر سنة ١٩٣٦ وكان الدكتور محمود أباظة مدير قسم الأمراض الصدرية فى ذلك الوقت يشكو من عدم وجود هيئة اجتماعية تساعد الفقراء من مرضى السل وتشرف على أسر المرضى منهم فتطوعت بعض السيدات المصريات للقيام بهذا العمل الجليل .

وتصف الآنسة ليلى دوس أدوار نشاط هذه الجمعية فتقول : لقد بدأ العمل ضيقا فى دار صغيرة بعابدين تسع ٤٠ طفلا عزلناهم عن ذويهم من مرضى السل رعاية لصحتهم ونأينا بهم عن موطن المرضى ، وأخذنا نمد عائلاتهم بالمساعدات المادية والاجتماعية بعد بحث حالاتهم وظروفهم

ولم تكتف الجمعية بذلك بل عملت على انشاء مشغل صناعى لتعليم بنات المرضى مهنة الحياكة وأشغال الابرة وذلك لزيادة دخل الأسر الفقيرة عن طريق مساعدة بناتها بما تصنعن من أشغال .

والى جوار ذلك صممنا على أن نوجد دخلا للأسر الفقيرة فقررت الجمعية تعليم الصالحات من ذوى المرضى حياكة الملابس ومن لا تصلح لهذا العمل تقوم ببيع منتجات زميلاتها وبذلك توافر للقادرات على الحياكة الوقت لمواصلة عملهن وفى الوقت نفسه دبرت الجمعية للعاجزات عن صناعة الحياكة موردا للرزق بما يبعن من انتاج زميلاتهن .

ومع هذا وذاك فان الجمعية تقوم بحل مشكلة البطالة بين أفراد الأسر التى ترعاها فأنشأت لكل منها محلا تجاريا صغيرا زودته برأس مال مناسب وقد استطاعت هذه الأسر أن تنجح فى هذا العمل وأن تعول أفرادها عن طريق هذا المورد الذى دبرته لها الجمعية .

ولقد بذلنا أقصى جهودنا لتأسيس مدينة تحسين الصحة حتى تم انشاؤها وهى تقوم الآن على جانب طريق الفيوم على بعد كيلو واحد وتضم الآن عددا ضخما من الأطفال ولقد اهتمت وزارة المعارف بتوفير التعليم قريبا من مبنى المؤسسة كى يتسنى لهؤلاء الأطفال تلقى تعليمهم فأقامت فى هذه المنطقة مدرستين لأولاد المرضى يتلقون التعليم فيهما

مبرة التحرير : (فريال سابقاً)

وقد لاحظت السيدة سنية عنان خلال تجوالها فى الأحياء الشعبية بتلك الضاحية صورا رهيبة مفزعة من الفقر والبؤس والتعاسة فقررت أن تتبرع فى كل شهر بمبلغ ٢٥ جنيها تصرفها فى وجوه البر بالفقراء فى هذه الضاحية واستمرت على ذلك مدة طويلة غير ان الفكر لم تلبث لديها أن تطورت الى انشاء مبرة تعنى بكل ما ينهض بالفقراء وأبنائهم فى تلك الضاحية .

وبين عشية وضحاها أنشأت السيدة سنية عنان هذه المبرة وكان ذلك فى سنة ١٩٤٢ وتولت الأستاذة زينب لبيب أمانة صندوق هذه الجمعية.

وتوسعت أعمال المبرة فأصبح لها كثير من المؤسسات النافعة التى تساهم فى بناء مجتمع ناهض قوى سليم من الأمراض بعيد عن الجهالة وآثامها ومن هذه المؤسسات ما تتعهد الطفل الفقير منذ يولد حتى يصير رجلا قادرا على كسب عيشه بما تعده له المؤسسة ومن هذه المؤسسات ما تتعهد الطفلة فى مهدها حتى تصبح فتاة صالحة للزواج والأمومة مزودة بأكثر من صناعة فى يدها تكسب بها رزقها أو تساعد زوجها على أعباء الحياة ومطالبها .

وتعتبر مبرة التحرير بمؤسساتها وأقسامها المختلفة دعامة قوية ناجحة من دعامات نهضتنا الاجتماعية المرموقة فهى دور كفالة ورعاية وعناية وتعليم وصقل واعداد للحياة .. انها تضم المطاعم الشعبية ومحطات اللبن للأطفال والحمامات المجانية والساحات الرياضية ، كما تضم مختلف الأقسام التى تعنى بالحامل ثم بالطفل ثم بالفتيات .

انها معجزة للانسانية ورحمة ببنيها وعنوان عريض مقروء للجهود النسائية المصرية فى الاصلاح الاجتماعى وسد لنقص هائل فيه كنا فى حاجة ماسة الى وجوده وفى ضرورة ملحة الى قيامه .

وكانت المرأة ممثلة فى كفاح السيدة سنية عنان هى التى وضعت البذرة الأولى فى سد هذا النقص وظلت تتعهدها بكل ما أوتيت من قوة وعزم وصبر حتى أينعت وازدهرت وأتت بأطيب الثمار وأعظم النتائج وأوجدت فى ضاحية مصر الجديدة حرما آمنا يستظل به الفقراء والمحتاجون والمنكوبون ويترعرع فى ظلاله الأطفال وتتكون فى رعايته الفتاة الصالحة النافعة .

جمعية رعاية الأحداث :

وهذه ناحية أخرى من نواحى عناية المرأة بالاصلاح الاجتماعى هى رعاية الأحداث وتوجيههم الى نواحى الخير والاصلاح بدل أن يتركوا نهبا للشرور وأعوانا للجريمة والفساد . وتتولى رياسة هذه

الجمعية السيدة وصفية شكرى وهى لا تألو جهدا ولا تدخر وسعا فى السير بهذه الجمعية الى خير الأهداف والنهوض بالأحداث وانتزاعهم من أحضان الرذيلة وتنشئتهم على الفضيلة والخير .

وقد تكونت هذه الجمعية فى أول عام ١٩٤٨ من لفيف من السيدات المصريات وفى سنة ١٩٥٠ افتتحت هذه الجمعية أولى مؤسساتها « مدرسة التربية الاجتماعية الداخلية بكوبرى القبة » ويقيم بها فى الوقت الحاضر أكثر من ٣٠٠ حدث تعمل على اعدادهم للمستقبل ومواجهة الحياة بواسطة ثلاثة برامج أحدها تعليمى والثانى مهنى والثالث اجتماعى .

والجمعية تمضى اليوم الى تقويم الأحداث خير تقويم بما تبذل من جهد وما توالى من نشاط وما ترنو اليه من القضاء على الجريمة فى مهدها وتحويل أعوانها الى مواطنين ناهضين صالحين .

وان الخبراء الاجتماعيين ليعقدون آمالا كبارا على نشاط هذه الجمعية ويتوقعون من وراء جهودها خيرا كثيرا لهذا البلد ويؤمنون ايمانا عميقا بمدى رسالتها وسمو غاياتها وأهدافها .

كما أنه يوجد فى مصر أكثر من ١٥٠ جمعية نسائية نذكر منها الجمعيات التالية :

الاتحاد المصرى لرعاية الطفولة

والجمعية النسائية الوطنية

وجمعية رعاية المرأة والطفل

وجمعية التحرر الاقتصادى

وجمعية الشابات المسيحية المصرية

وجمعية السيدات المسلمات

وجمعية طفل المعادى

وجمعية أصدقاء الشعب

وجمعية صديقات الطفولة

وجمعية ربات البيوت
واتحـاد الجامعيات
والجمعية الخيرية القبطية الكبرى
ونادى سيدات القاهرة
وجمعية تحرير المرأة
واتحاد نساء الدولة
وجمعية سيدات مصر
وجمعية أم خنـان
وجمعية خريجات كلية البنات الأمريكية
وجمعية السيدات القبطية
ورابطة نساء الشرق والغرب
وجمعية السيدة العذراء
وجمعية رعاية الأمهات والأطفال بالقطر المصرى
وجمعية صديقات الفتيات الفقيرات
وجمعية المحافظة على القرآن الكريم
وجمعية صديقات الكتاب المقدس القبطية
وجمعية مساعدة الضريرات
وجمعية مصر لحماية المرأة
وجمعية مصر لحماية المرأة والطفل .. الخ .

نفاخر بجهود المرأة المصرية

وأحب قبل أن أختم هذا الفصل أن أذكر اعجابى بالدور الهام بل الرئيسى الذى تلعبه المرأة المصرية فى ميدان الخدمة الاجتماعية . ان المرأة المصرية قد نزلت الى الحياة العامة بالفعل . وبذلت من الجهد والتضحية فى سبيل مواطنيها ما يجعلنا تتساءل : كيف تقوم المرأة المصرية بكل هذا العبء من الكفاح وبكل هذه التضحيات دون أن تنال كل حقوقها ، لأنه يجب أن تكون هناك حقوق حيثما تكون واجبات ، وانه لمن العدل أن تتساوى الحقوق عندما تتساوى الواجبات .

اتحاد بنت النيل

يطالب بحقوق المرأة السياسية

وكان لابد للمرأة المصرية بعد ان استكملت كل الأسلحة اللازمة للنضال أن تنزل بكل قوتها الى الميدان السياسى بالذات .. وكانت هذه المرحلة التاريخية تحتاج الى قيادة جديدة ترسم خطة المعركة التحريرية الفاصلة وتشرف على تنفيذها خطوة فخطوة فى سبيل النصر الأكيد .. وقد ظهرت هذه القيادة فى شخص « اتحاد بنت النيل » .. وكان لميلاد هذه القيادة السياسية قصة وأى قصة !

فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ أصدرت العدد الأول من مجلتى «بنت النيل» وكنت أهدف من وراء ذلك الى تربية جيل جديد من المصريات يبهر نساء العالم أجمع بنهضة حقيقية تليق بحفيدات كليوبترة ونفرتيتى وشجرة الدر .. بل بحفيدات خديجة وعائشة والمرأة التى أصابت يوم أخطأ عمر .. أحكم الخلفاء الراشدين !

كنت أهدف بمجلتى الى تحديد المعالم فى شخصية « بنت النيل » وتكوين نماذج مشرفة للمصرية الجديدة .. المصرية التى تنافس نساء العالم كربة بيت نظيفة حكيمة مدبرة وكزوجة لطيفة وديعة مخلصة وكأم مستنيرة عطوفة حانية — وكسيدة مجتمع مثقفة رشيقة لها وجودها وشخصيتها !

وقد نجحت مجلة « بنت النيل » واكتسحت السوق اكتساحا . لسبب وجيه هو أنها كانت تمثل احتياج النهضة النسائية الى مجلة من هـذا الطراز فملأت فراغا ظل شاغرا مدى سنوات طويلة .. وطبقا للقاعدة

التى تقول بأن الانسان يؤثر فى الناس بقدر ما يتأثر بهم أو يتأثر بهم بقدر ما يؤثر فيهم طبقا لهذه القاعدة العلمية كانت رسائل القارئات تنهال على كل أسبوع تحمل مشاكلهن بل تحمل آلامهن ودموعهن لعلى أستطيع أن أحلها أو أخففها أو أكفكفها .. وكنت أحاول ذلك بطبيعة الحال وفى خلال محاولاتى تلك كنت ازداد ايمانا بأن كل مجهود فى سبيل حل هذه المشكلات النسائية على اعتبار انها فردية انما هو مجهود ضائع ما دام حق التشريع فى مصر حكرا على الرجال .. وما دامت هذه التشريعات تنظر للمرأة على اعتبار انها ناقصة أو عبدة !

رجال يفسرون الدين على هواهم وحسبما ترى نزواتهم .. يتزوجون كما يشاءون ويطلقون كما يشاءون بلا قيود ولا حدود ومهما كانت نتيجة حماقاتهم ... تشريد أطفال ودفع شابات مجروحات الى الهاوية ..

وتقاليد عتيقة .. مئات الالوف من المعذبات وراء الجدران لا تستطيع الواحدة منهن أن تخرج من بيتها بل لا تكاد تجرؤ — فى بعض الأحيان على النظر من خلال نافذتها .. وقد ينطوى سجنها أيضا على الضرب والتعذيب دون أن يسمح لها أن تتأوه بصوت عال !

وتجريد من كل مالها من حقوق .. حقها فى العلم ! وحقها فى العمل . وحقها فى التصويت والترشيح . وأخيرا حقها فى كل مظهر من مظاهر المساواة ... وفى مقدمتها المساواة فى الأجور !

هؤلاء المنبوذات اللاتى يمثلن أكثر من نصف المجتمع المصرى .. هؤلاء الـ ١١ مليونا من المفروض عليهن الحرمان والذل والعبودية يجب أن يتحررن بالجملة ويجب أن تحل مشاكلهن دفعة واحدة ، باعتبارها مشكلات متفرعة عن مشكلة واحدة أصلية ، هى مشكلة اضطهاد الجنس النسائى كله !!

وظلت هذه العقيدة ترسب فى نفسى ويزداد ايمانى بها على مر الأيام

.. وكلما تلقيت سيلا من دموع الضحايا .. أمهاتنا ، وشقيقاتنا ، وبناتنا التعيسات !

وتحول صدرى الى مستودع للسخط على هذه الأوضاع الظالمة لم يلبث ان انفجر ذات يوم من أيام سنة ١٩٤٨ وجاء انفجاره فى شكل « فكرة » فى تأليف « اتحاد بنت النيل » .

لقد تألفت من قبل جملة قيادات نسائية للخدمة الاجتماعية .. للمطالبة بتعليم البنت وللسعى لاقرار حقها فى العمل .. لرفع مستواها بصفة عامة ، وربما قامت بعض محاولات مشكورة لايجاد القيادة السياسية ولكنها كانت مجرد « محاولات » لا أكثر ولا أقل ..!

ومع ذلك فقد كانت القيادة الجديدة — اتحاد بنت النيل — حدثا يتفق مع ظروف التطور التى مرت بها البلاد ، فلم تعد قيادة الحركة النسائية فى مصر قيادة أرستقراطية بطبيعة تكوينها أو بطبيعة أهدافها.. كلا ولكنها كانت قيادة شعبية بتكوينها وأهدافها فى وقت معا !

لقد تمخضت الأحداث عن ميلاد « بنت النيل » لتؤلف — لأول مرة — حركة نسائية لا تقتصر على سيدات كبار الملاك وفتياتهم بل تشمل نساء مصر من جميع الطبقات .. حركة تجمع بين خريجة الجامعة والمعلمة الالزامية..بين الطبيبةوالمحامية والمهندسة وبين العاملة فى المصنع والزارعة فى الحقل .. ربات البيوتات الكبيرة ولابسات « الملاية اللف » !

وقد جاءت حركة بنت النيل بالتالى لتعبر عن مطالب المرأة المصرية ككل .. لم تقم « لتعطف » على الفقيرات منهن أو تشملهن « برعايتها » ! ولم تقم لتطالب لهن ببعض « الكماليات » .. بل قامت لتبحث أساس العبودية .. لترفع عنهن هذا الظلم وذلك الظلام .

وقد يقول البعض ان المحاولات التى سبقت ظهور « بنت النيل »

ارتفعت من بينها أصوات تطالب بحقوق المرأة السياسية .. وليس من طبعى أن أنكر الحقائق أو أجحد فضل أصحابها فأنا أسلم بهذا الذى حدث ولكن رغبتى الصادقة فى وضع كل شىء فى نصابه تجعلنى أسجل أيضا ان اتحاد بنت النيل لم يقف جهده عند حد اعلان مطالب المرأة أو المناداة بها بين أغراض أو تسجيلها فى برنامجه ولكنه خاض المعركة بطريقة ايجابية عملية فنزل الى الميدان السياسى فعلا دون أن ينتظر اذنا أو يتلقى تصريحا أو يجلس مكتوف اليدين فى ارتقاب صدور تشريع يسمح للمرأة المصرية بأن تزاول نشاطها السياسى !!

وسيجد القارىء تفصيل ذلك فى فصولنا القادمة .. وسيلمس من جهود « بنت النيل » فى خلال السنوات الماضية ما يؤكد ايماننا بأنها كانت قيادة سياسية ارتفع صوتها فى ظروف كانت تحتم بمطالب المرأة السياسية.

اتحاد بنت النيل

والآن كيف تألف « اتحاد بنت النيل » ؟

اننى أمر سريعا على الجهود الشخصية التى قمت بها فى الدعوة له بين مختلف العناصر النسائية البارزة فى المجتمع المصرى وأترك لجريدة « الأهرام » الغراء مهمة الحديث عن بنت النيل . واليك ما نشرته بالحرف الواحد صباح يوم ٢٨ ابريل سنة ١٩٤٩ قالت الجريدة الكبيرة :

اجتمعت بدار « بنت النيل » ٤٨ شارع قصر النيل أمس الأول ، اللجنة التأسيسية للاتحاد المكونة من حضرات صاحبات العصمة : الدكتورة درية شفيق ، حرم الأستاذ على « بك » محمود ، حرم حسين عنان « باشا » رئيسة مبرة الأميرة فريال بمصر الجديدة ، السيدة وصفية

شكرى ، حرم حسن « باشا » فائق ، الأستاذة زينب لبيب المحامية ، السيدة أسماء فهمى عميدة معهد البنات العالى ، حرم حفنى « باشا » محمود ، السيدة نظلة الحكيم مراقبة التعليم بوزارة المعارف العمومية ، حرم الدكتور محمود « بك » على السيد كريمة المغفور له الدكتور احمد « باشا » ماهر ، حرم سليمان « بك » محمود ، السيدة فتحية سليمان وكيلة معهد التربية العالى للبنات ، السيدة أمينة رشاد رئيسة جمعية طفل المعادى ، السيدة احسان عابد المفتشة بوزارة المعارف ، حرم الدكتور فايد « بك » يسرى ، حرم على « بك » صبور ، حرم متولى « بك » نور ، السيدة حكمت صبح المفتشة بوزارة المعارف ، الدكتورة تحية فهمى الطبيبة بمستشفى قصر العينى ، السيدة فاطمة أتربى أبو العز ، حرم يوسف « بك » سميكة ، حرم حلمى « بك » مكرم ، حرم الدكتور حسام الدين « بك » ، حرم يوسف « بك » الريدى ، حرم الدكتور مصطفى « بك » الديوانى ، حرم محمد « بك » رجائى ، حرم عبد المنعم « بك » عزمى ، حرم اسماعيل « بك » بدوى ، حرم ثريا التركى ، حرم سعد الدين « بك » العجيزى ، السيدة منيرة حسنى ، الآنسة احسان عسكر خريجة الآداب وصحفية ، الآنسة ايزيس فهمى ، السيدة رينيه عريف ، الآنسة كاميليا يوسف صالح خريجة السوربون ، الآنسة ايفون صالح خريجة الآداب ، الآنسة مارى عبد الشهيد ، الآنسة سعاد فريد عميدة كلية البنات وبعض سيدات المجتمع .

وتلى القانون الأساسى للاتحاد فوافقن عليه وقررن تسجيله بوزارة الشئون الاجتماعية كما تم اختيار أعضاء مجلس الادارة المكون من حضرات صاحبات العصمة :

الدكتورة درية شفيق رئيسة ، وحرم حسين عنان « باشا » نائبة رئيسة للاتصالات الخارجية وحرم على « بك » محمود رئيسة للأشراف على تنفيذ البرامج ، والسيدة أسماء فهمى نائبة رئيسة للاشراف على وضع

البرامج ، والسيدة وصفية شكرى ، وحرم حسين « باشا » فائق أمينة للصندوق ، والأستاذة زينب لبيب أمينة عامة ، والسيدة احسان عابد والسيدة نظلة الحكيم وحرم متولى « بك » نور وحرم على « بك » صبور وحرم حفنى « باشا » محمود وحرم عبد المنعم « بك » رشاد والسيدة فاطمة أتربى أبو العز والآنسة سعاد فريد أعضاء .

ونقف هنا .. عند هذا الحد الذى سجلت فيه الأهرام أول وثيقة عن تأليف « اتحاد بنت النيل » بعد أن ظلت لجنته التحضيرية تعمل فى صمت طوال بضعة شهور ، حاولت خلالها قدر المستطاع — ان تجمع شمل النساء المصريات جميعا وتحشدهن فى جبهة واحدة ..

* * *

وهنا أشيد بزميلاتى السيدات الفضليات اللواتى أسسن معى اتحاد بنت النيل وأخذن على عاتقهن معى بذل الجهود العديدة فى سبيل استخلاص حقوق المرأة المصرية كاملة غير منقوصة : —

السيدة وصفية شكرى : « رئيسة جمعية رعاية الأحداث والآن رئيسة نادى اتحاد بنت النيل » .

أتحدث أول ما أتحدث عن السيدة وصفية شكرى ، وهى هذه السيدة التى أجدها دائما الى جوارى فى الشدائد والصعاب ، ولقد لمست فيها التفانى والتضحية يوم أن عرضت لى فكرة تأسيس اتحاد بنت النيل للمطالبة بحقوق المرأة الدستورية — وكان أى تفكير بحقوق المرأة السياسية فى ذلك الحين يقابل بهجوم عنيف وعاصفة من الشتائم — ولكن ما كدت أثير هذا ذات يوم فى مجلس ادارة جمعية المرأة الجديدة التى كنت عضوا فيه حتى أيدت السيدة وصفية شكرى فكرتى وتحمست بكل قواها لتأييدها وكانت أول من انضم الى فى تأسيس

اتحادنا وما زالت الى الآن أول من يتقدم فى كل ظرف أو مناسبة فيها كفاح وتضحية فى نصرة قضية المرأة السياسية .

الأستاذة زينب لبيب المحامية : « وكيلة اتحاد بنت النيل وعضو مجلس ادارة بعض الجمعيات الأخرى » .

والأستاذة زينب لبيب أيضا فى مقدمة السيدات اللائى أسسن معى اتحاد بنت النيل ، ولمعت منذ نشأتها الأولى بالاشتغال بالمسائل الاجتماعية وكانت قدوتها فى ذلك السيدة والدتها « السيدة عزيزة الغـازى » التى كانت فى مقدمة سيدات مصر اللائى اشتغلن بالحركة الوطنية والنسائية منذ سنة ١٩ » .

وقامت الأستاذة زينب لبيب بوضع القانون الأساسى لاتحاد بنت النيل ، كما انها كانت فى مقدمة السيدات اللائى اقتحمن البرلمان معى سنة ١٩٥١ .

السيدة سنيه عنان : رئيسة جمعية التحرير ووكيلة اتحاد بنت النيل لقد عرفت السيدة بمجهوداتها فى الحقل الاجتماعى كما أشرنا الى ذلك من قبل، وهى أيضا من أوائل السيدات اللواتى شجعننى على تأسيس اتحاد بنت النيل وعاونتنى فى هذا التأسيس معاونة صادقة فعالة .

السيدة أسماء فهمى : « عميدة معهد التربية العالى للبنات ووكيلة اتحاد بنت النيل » .

لقد برزت السيدة أسماء فهمى فى ميادين التعليم وكانت القدوة الأولى للسيدات فى هذا الميدان ، ونذكر بالفخر أنها وصلت الى أعلى الدرجات فى المناصب الحكومية وبرهنت بذلك على قدرة المرأة المصرية وكفاءتها عندما تتاح لها الفرصة ويفسح أمامها المجال ، وكان لهذه السيدة الجليلة دور كبير فى تأسيس اتحاد بنت النيل ولها فضل عظيم فى تجارب بنت النيل لمكافحة الأمية بين النساء .

السيدة نادر صبور : «الأمينة العامة لاتحاد بنت النيل وعضو مجلس ادارة بعض الجمعيات الأخرى » .

وتمتاز السيدة نادر صبور بنشاط اجتماعى خارق للعادة ومجهودات جبارة فى جمعيات عديدة تعمل على رفع مستوى المرأة المصرية .

وانتخبت السيدة نادر صبور الأم المثالية فى مصر لعام ١٩٥٥ .

السيدة زينب نور : « أمينة صندوق اتحاد بنت النيل » .

مثل أعلى للسيدة التى تعمل فى صمت وتضحى تضحيات كبيرة فى سبيل خدمة المرأة المصرية ورفع مستواها وهى قدوة للمرأة المصرية فى أخلاقها وطباعها .

السيدة عزيزة رضوان : « أمينة الصندوق المساعدة لاتحاد بنت النيـــل » .

وهى تكافح أيضا ليل نهار فى صمت ومثابرة ولا تدخر وسعا فى تحقيق أهداف قضية المرأة المصرية .

السيدة سميحة ماهر : « الأمينة العامة المساعدة لاتحاد بنت النيل » .

دفعها الايمان بحقوق المرأة الى النزول فى المعترك السياسى يوم أن فجعت بخبر مصرع والدها المغفور له أحمد ماهر رئيس الوزراء السابق فانضمت لنا لتواصل رسالة والدها الراحل .

الأهـــداف

ويعمل الاتحاد على تحقيق الأهداف الآتية :

١ — السعى لتقرير حقوق المرأة الدستورية والنيابة عن الأمـة لتمكنها من الدفاع عن التشريع الذى يكفل هذه الحقوق .

٢ — الدعوة الى نشر الخدمات الثقافية والصحية والاجتماعية بين الأسر المصرية الفقيرة والمحرومة والمساهمة فيها والى نشر الصناعات الصغيرة بين الأسر الفقيرة لزيادة دخلها .

٣ — الدعوة عن طريق المجلات والصحف والمحاضرات والاذاعة الى العناية بشئون الأسرة وعلى الأخص الأمومة والطفولة واتخاذ جميع الوسائل التى تحقق حمايتها وعونها .

مطالب المرأة
على كل لسان

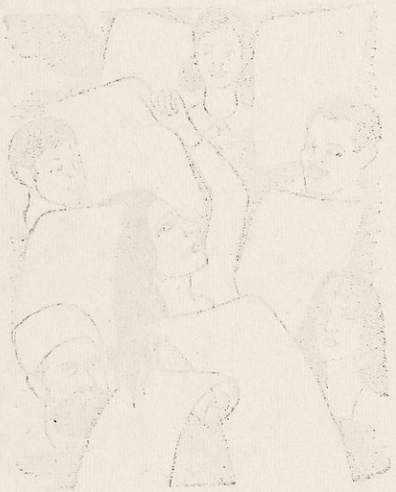

وكان طبيعيا أن تبدأ القيادة الجديدة للحركة النسائية نشاطها بتنظيم « القاعدة » التى ترتكز عليها فى المطالبة بحقوق المرأة السياسية ، فمضى « اتحاد بنت النيل » ينشر دعوته بين السيدات المصريات من جميع الطبقات ، فأخذن فى الانضمام اليه ، وبدأت شعبه الفرعية تتألف هنا وهناك ، وكانت فى مقدمتها بالطبع شعبة الاسكندرية برئاسة الزميلة ألفت السلانكلى .

فلم تمض سنة واحدة حتى أصبح اتحادنا قوة شعبية يعمل لها ألف حساب ، وشهد ذلك العام — عام ١٩٤٩ — أكبر حملة للمناداة بحقوق المرأة السياسية .. لقد اتصل الاتحاد بكل الكتاب الأحرار الذين يناصرون قضية المرأة ، وحشد جميع الكفايات فى هذه الحملة ، ونظم فى الصحف ذلك الاستفتاء الكبير فى قضيتها بين جميع قادة الفكر فى البلاد ، وفى طليعتهم الدكتور على ماهر ، والسادة لطفى السيد ، وعلوبة وغيرهم من الفقهاء والعلماء والساسة ، وأصبحت « مطالب المرأة » هى موضوع الساعة بالنسبة لكل الصحف والمجلات . المصور توفد النجمة السينمائية راقية ابراهيم فى ٢٨ ابريل لتسأل الأستاذ الدكتور طه حسين عن رأيه فى هذه المطالب .. ومجلة الاثنين تتطلع الى المستقبل فتؤلف وزارة من النساء فى عددها الصادر فى ٢٣ مايو فترشح حرم بهى الدين بركات للمالية ، ومنيرة صبرى للداخلية . وانصاف سرى للمعارف وسنية عنان للخارجية ، وحرم عبد الحميد سليمان للدفاع ، ودرية شفيق للدعاية . (بالنسبة لنجاح دعايتها فى قضية المرأة !.) والحاج بابا سرى شيخ تكية المغاورى يتحدث الى بعض الصحف فلا ينسى أن يسجل تأييده لحقوق المرأة السياسية تدليلا على عدم تعصبه أو تزمته أو ضيق

أفقه .. والأساتذة سلامة موسى يكتب ، وزكى عبد القادر يكتب .. وفكرى أباظه مع أسما فهمى يناظران عبد الله أباظه والدكتور محمد عوض محمد فى الاتحاد الثقافى فى موضوع مطالب المرأة ! .. ويصرح رئيس وزراء سابق يوم ٢٥ أغسطس فيقول « باعطاء المرأة حق الانتخاب للنساء لأن نصف الأمة لا يزال مشلولا — معطلا عن أداء هـذا الواجب الوطنى » .

ويتردد صدى هذه الحملة الواسعة فى خارج مصر أيضا فترسل خمس من الأمريكيات المشتغلات بالمسائل العامة هن مسز سـامبسون مندوبة اتحاد الزنجيات ، ومسز داى ، ومسز ستراوس ورئيسة جمعية الناخبات ، ومسز والترهوايت ومس ساديا ستوفسكى عن رابطـة الجامعيات بأمريكا .. يرسلن تأييدا حارا لقضية المرأة المصرية فينشر فى مصر يوم ١١ أغسطس وتكتب مندوبة البورص اجيبسيان مقالا لمجلة الحياة فى بيروت فتقول « لقد أعلنت درية شفيق حربا صاعقة على الأمية بين النساء ، وكانت نتيجة هذه الحرب أن تقرر فتح ثمانى عشرة مدرسة حرة ومجانية فى جميع أنحاء مصر لتعليم النساء القراءة والكتابة وسيتم التعليم فى مدة ثلاثة أشهر بفضل طريقة جديدة ، وفى هذا قالت لنا درية شفيق « فى كل مكان كنت أسمع معزوفة واحدة مؤداها أن نساء الطبقة العامة فى مصر لسن متعلمات كفاية ليدركن قيمة الحقوق السياسية وأخيرا ضاق ذرعى بهذه الحجة فقررت أن أعمل لازالتها » .

هكذا مضى عام ١٩٤٩ كله ، والناس لا يتحدثون الا عن مطالب المرأة المصرية وحقوقها ، حتى أن الصحف كانت تنشر آراء المعارضين والمؤيدين صباح مساء ، مما جعل الأستاذ عباس محمود العقاد يتساءل فى مقال له نشر يوم ٢٨ مارس : لا أدرى ما هى المناسبة التى دعت الى نشاط حركة المطالبة باعطاء المرأة حقوق الانتخاب والنيابة ؟..

وينسى الأستاذ المناسبة وهى ظهور قيادة الحركة النسائية الجديدة .. تأليف اتحاد بنت النيل ، وما بدأ يقوم به من نشاط مباشر وغير مباشر ..

على المسرح أو من وراء الستار ، لقد كان هدفه السريع أن يبدأ نشاطه بحملة ، بأكبر حملة للدعاية لمطالب المرأة السياسية .. حق الانتخاب ، وحق الترشيح ، وحق تولى جميع الوظائف ، وجميع المناصب ، ليشتركن فى تقرير مصائرهن ومصائر بلادهن ، باعتبارهن نصف هذا الشعب ، بل أكثر من نصفه !

وبدأت جميع الهيئات فى الداخل والخارج تعترف بالقيادة الجديدة ، فمن حسن الحظ أننا حرصنا على تسجيل « اتحاد بنت النيل » فى يونيه ١٩٤٨ فى المجلس النسائى الدولى ، وفى ديسمبر حضرت مندوبة عنه فى مؤتمر باريس الخاص بدراسات الأمية ، واستطاع أن يثبت وجوده فى مجال العمل على مكافحة الأمية .. ثم مضى الاتحاد ينضم الى كثير من الهيئات النسائية الدولية ، فى مختلف التيارات التى تمثلها أو تسيطر عليها ، اذ كان هدفه الأكبر من ذلك أن يربط كفاح نساء مصر بكفاح نساء العالم أجمع ، وكان لهذا الموقف الحيادى الذى أبداه اتحادنا ازاء تلك المنظمات النسائية الدولية كلها أثره البعيد فى اهتمام العالم بأسره بقضية المرأة المصرية ، ومنحها رعاية خاصة فى الجهود النبيلة التى تبذل لمساعدتنا فى كل المحافل ، والمؤتمرات ، والصحف الحرة فى كل أنحاء العالم ، وهو ما سأعود اليه بالتفصيل ..

وبعد فقد استطاع « اتحاد بنت النيل » وحده فى عام ١٩٤٩ أن يقيم الدنيا ويقعدها حول حقوق المرأة المصرية التى طال عليها الأمد ولكنه لم يشأ أن يبدأ بأية خطوة سياسية ايجابية قبل أن يستكمل هذه الحملة ، وقبل أن يستلفت اليه الأنظار بوصفه القيادة الجديدة للنساء المصريات ، وكانت الجهود الايجابية التى بدأها فى ذلك العام لا تتصل بالسياسة اتصالا مباشرا ، وأعنى بها مكاتب مكافحة الأمية التى انتظمت فيها مئات بل آلاف المصريات الشعبيات اللاتى أصبحن بعد تخرجهن جنود الصف الأول فى جيش التحرير النسائى فى مصر .

اقتحمنا البرلمان

ولم نعبأ بالرصاص

كان ذلك بعد ظهر يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٥١ .

وكانت السيارة قد أخذتنى من البيت لتوصلنى الى مكتبى فى ادارة بنت النيل ، ولكننى قلت للسائق ونحن فى منتصف الطريق :

— اذهب بنا الى دار البرلمان ..

ولم تمض سوى لحظات حتى كنت هناك ، وسألنى السائق : هل نقف هنا ؟

قلت له : بل لف حوله أولا ...

ودهش السائق ، ولكنه ظل يطوف حول دار البرلمان ، وانا أعيد عليه الطلب ، ثم دخلت من الباب الخلفى — باب الشيوخ ، وعاينت المبنى تماما ، ودرست جميع أبوابه ومسالكه ... وكل هذا والسائق يعبر عن دهشته بعينيه ويخجل أن يسألنى عن السبب ، ولعله ظل اذ ذاك لا يفهم شيئا أكثر من أننى أتفرج على البرلمان لا أكثر ولا أقل .

لم يعرف السائق اننى كنت أقوم بعملية استكشاف تاريخية ، قبل أن ننفذ الخطة التى عرضتها على مجلس ادارة « اتحاد بنت النيل » قبل ذلك بثلاثة أو أربعة أيام ، وظفرت فيها بالموافقة ... ولم تكن تلك الخطوة شيئا سهلا فقد أخرجت المصحف وقلت لزميلاتى : لنقسم على هذا الكتاب الشريف أولا ... ان يظل ما يدور بيننا الليلة سرا لا تبوح به احدانا لأحد ، مهما كان عزيزا عليها ... حتى لو كان زوجها أو والدها أو أمها .. فلنثبت ان السيدات لسن أقل من الرجال حتى فى كتمان السر!!

وأقسمت الزميلات على المصحف ... وبدأت اشرح خطتى فى ضرورة

اقتحام دار البرلمان بجيش من النساء يعتصمن فيه ويرفضن الخروج قبل الاعتراف لهن بحق الاشتراك فيه ، ليكون برلمانا شرعيا يمثل الشعب كله — بجنسيه — تمثيلا حقيقيا سليما ...

وقلت ان الخطة التى أراها هى ان نعقد مؤتمرا نسائيا فى قاعة ايورت — لقربها الشديد من دار البرلمان — ولكن دون ان نذكر شيئا عما نعتزم القيام به ، ويكفى ان نعلن فقط انه مؤتمر لمناقشة مطالب المرأة ...

وقلت ان هذا الموقف التاريخى ينبغى الا ننفرد بشرف تنفيذه ، ولكن اخلاصنا لفكرتنا يحتم علينا أن ندعو الى هذا المؤتمر جميع الهيئات النسائية الأخرى ، مهما كان موقفها منا ، أو ماضيها معنا ... يجب أن ننسى كل خلافاتنا فى هذه المناسبة الخالدة ، لنكون صفا واحدا وكلما أحس الرأى العام باتحادنا وتضامننا ، كلما كان أكثر احتراما وتقديرا لنا ... وكان بالتالى ، أكثر استجابة لمطالبنا !

ولم يكن الأمر يحتاج الى وقت طويل ، فالمؤتمر المذكور كانت فكرته موجودة ، وكانت الدعاية له تقوم على قدم وساق منذ أكثر من شهر .. وكل المطلوب هو أن يتحول من مؤتمر لبحث مشاكل المرأة ، الى نقطة تجمع لبدء الزحف النسائى لاستخلاص مطالب المرأة !

وخرجت أعضاء مجلس الادارة من الاجتماع ، وقد بلغت حماستهن للفكرة وايمانهن بها درجة الغليان فانطلقت كل منهن تدعو صديقاتها وزميلاتها الى حضور مؤتمر مشاكل المرأة فى قاعة يورت فى تمام الساعة الرابعة من مساء يوم الاثنين ١٩ فبراير . لمعرفتنا أن الجلسات البرلمانية تنعقد فى الساعة الخامسة مساء من كل يوم اثنين .

وبقيت طوال ذلك الأسبوع بين الخوف من تسرب هذا السر ، أو من فشل المؤتمر .. وبالتالى من فشل الخطة كلها ، وبين الأمل فى الانتصار والحق ان كفة التفاؤل كانت هى الارجح فى نفسى ، وكان ايمانى العميق بزميلاتى وبنفسى وبعدالة قضيتنا ... كان ذلك يرفعنى الى العمل بمنتهى النشاط لهذه الساعة المرتقبة ...

وجمعت فى الليلة السابقة للمؤتمر بعض فتيات الاتحاد الفنانات ، وكلفتهن بكتابة لافتات ضخمة تحمل بعض الشعارات ... المرأة نصف المجتمع ... لا برلمان بلا نساء ! يسقط البرلمان بدون نساء !

وكلفت احدى الأعضاء التى تنتسب الى أسرة برلمانية عريقة باحضار ٢٠ تذكرة لحضور جلسة البرلمان فى اليوم التالى — يوم المؤتمر — وهو فى نفس الوقت يوم الاثنين الذى يعقد فيه البرلمان جلساته كل اسبوع !

وجاء اليوم المحدد ... وحانت ساعة العمل ، فما كادت الساعة تدق الرابعة مساء حتى غصت قاعة يورت بأكثر من ألف سيدة ومئات من انصار المرأة من الرجال الاحرار والصحفيين ... ولم يكن بين الجميع من يعرف شيئا عن خطتنا سوى اعضاء مجلس ادارة الاتحاد ، اللاتى حفظن السر فلم يتسرب الخبر الى البوليس ، أو الصحف أو جمعية « شباب محمد » مثلا التى كانت تهاجمنا ليل نهار !!

وبدأ المؤتمر وصعدت الى المنبر ، وأنا أشعر باندفاع وقوة هائلة تهزنى من أعماقى ... لعلها القوة التى كنت استمدها من حماسة تلك الجموع الحاشدة لأقدم وأوضح قضية .. قضية الحرية والمساواة لنصف الشعب .

أول برلمان نسائى

وألقيت الكلمة التالية ، أسجلها هنا بالنص :

إن هذا المؤتمر الوطنى الذى يضمنا الآن — نحن نساء الشعب .. نحن اللاتى نشارك حقيقة وفعلا آباءنا ، وأزواجنا ، واخوتنا ، وأبناءنا ، الجهاد اليومى فى الحياة .. .

« نحن اللائى ساهم الرعيل الأول منا ، فى شجاعة وايمان وتضحية ، مع الرجال ، فى حركات التحرير ضد الاستعمار فأيدن مصطفى كامل ،

ومحمد فريد ، وساهمن فى عام ١٩١٩ ، بزعامة سعد زغلول فى كفاح شعبى من أجل الحرية والاستقلال والدستور ، واختلط دم الشهداء الرجال بدم الشهيدات من النساء .

« نحن اللائى نريد أن ننطلق ، فى تعاون واخلاص ، مع المواطنين الرجال ، فنكافح على نفس الطريق من أجل استكمال حرياتنا وسعادتنا واستقلالنا وسلامتنا جميعا .

« نحن نصف الأمة — نصف القوة .. نصف الحياة .. ولقد بلغنا من الوعى القومى ما يجعلنا نعتبر اقصاءنا عن الاشتراك فى أجهزة السلطات الثلاث ، حرمانا لبلادنا من نصف طاقتها الحيوية الانتاجية ..

« نحن نريد حرية لنا وللجميع ..

« نحن نريد سعادة لنا وللجميع ..

« نحن نريد سلاما لنا وللجميع ..

« نحن نريد عدلا لنا وللجميع ..

« نحن نريد عملا لنا وللجميع ..

« نحن نريد مسئولية لنا وللجميع ..

« نحن نريد مساواة لنا وللجميع ..

ومن مجموع هذه الارادات أقترح أن تكون ، قراراتنا اليوم كما يأتى :

« أولا — العمل فورا على تعديل قانون الانتخاب على وجه يحقق حصول المرأة المصرية على كامل حقوقها السياسية التى كفلها لها الدستور ...

« ثانيا — العمل فورا ، على اصدار التشريعات اللازمة ؛ لحماية الأم والزوجة ، وضمان استقرار الحياة العائلية ، خصوصا ما تعلق منها بتقييد حق الرجل فى الطلاق وتعدد الزوجات ..

« ثالثا — تقرير المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة فيما يتصل بحرية العمل وظروفه وخصوصا فيما يتعلق بالمساواة فى الأجر ..

سيداتى ، آنساتى :

« ان هذا المؤتمر هو برلماننا الأول .. برلمان نصف الأمة ، ومن حسن الحظ ، انه ينعقد فى نفس الوقت والجهة التى ينعقد فيها برلمان النصف الآخر .. فهيا نذهب بجموعنا الفتية لنعلن اليهم فى عزم وقوة وتصميم ، ان تمثيلهم للشعب ، تمثيل ناقص مبتور ، ان لم ينضم اليهم ، ممثلات لنا ، فيكون التعبير عن مصالح الشعب وآلامه وآماله تعبيرا صادقا أمينا ..

« فالى هناك .. الى الأمام ..! »

إلى الأمام ... إلى الأمام ..

وكأننى ألقيت قنبلة ، فما كدت أفرغ من القاء تلك الكلمة حتى انفجرت حماسة المدعوات وانطلق الانفجار على ألسنتهن هتافات مدوية بعدالة قضية المرأة ، ولكننى كنت حريصة على أن نوفر هتافاتنا حتى نصل الى باب البرلمان بالفعل .. وخرجت الجموع الحاشدة لتفاجأ بالأعلام التى أعددناها سرا قد رفعت ، واللافتات التى كتبناها فى الليلة الماضية قد حملت ..

واتجهنا الى دار البرلمان ومعى زميلاتى أعضاء بنت النيل أذكر من بينهن : السيدة وصفية شكرى والسيدة أسماء فهمى والسيدة نادر صبور والسيدة سنية عنان والسيدة زينب لبيب والسيدة زينب نور والسيدة هيام الشريف والسيدة سميحة ماهر والسيدة عزيزة رضوان والسيدة ليزا ميلاد والآنسة روحية القلليني والسيدة درية جمعة والسيدة أمينة رشاد ..

الأمر باطلاق النار

وسار الزحف النسائى الى البرلمان ..

وهناك عند الباب الرئيسى للدخول كانت احدى الزميلات قد وقفت لتنفذ التعليمات التى صدرت اليها ، وهى اعطاؤنا الاشارة اذا فتح الباب. ولم يكن الباب يفتح الا عند حضور أحد النواب أو الشيوخ ، ولا يكاد يفتح حتى يغلق من جديد ، ومن هنا أصبح المطلوب هو انتهاز هذه اللحظة الخاطفة لنهجم !

وفى نفس الوقت كان ثمة فريق آخر من زميلاتنا قد سبقننا فحملن تصريحات الدخول واحتللن شرفات الزائرات لالقاء ما أعددناه من المنشورات على حضرات النواب المحترمين .!

ووقفنا بجموعنا وأعلامنا عند منحنى الطريق فى صمت ، فما كاد النائب المحترم الأستاذ فريد زعلوك يقترب بسيارته حتى فتح الباب ، وفى نفس اللحظة لوحت لنا الزميلة باشارة الهجوم فقطعنا المسافة عدوا ، وألقينا بأجسامنا على سيارة النائب المذكور ، وارتبك الحراس الواقفون .. وانطلقت صفاراتهم طلبا للنجدة ، وأقبل قائد الحرس يهدد ، وصوبت البنادق الى صدورنا ، وحذرنا من اقتحام الباب بالقوة والا فان الرصاص سوف يصرعنا جميعا ..

وصرخت فى قائد الحرس : اذا أطلقت رصاصة واحدة فانك ستحكم على نفسك بالاعدام ..

ولا أدرى كيف ولماذا قلتها ، ومع ذلك فقد فزع الرجل وتراجع ، بينما اندفعنا نحن الى الداخل فاستطاع نصفنا أن يتسرب الى الفناء الداخلى ، بينما بقى النصف الآخر يتجمع وراء الأسوار ..

وانطلقت الهتافات من الداخل والخارج فى وقت واحد وبدأ الاجراء الثانى للقوة الغاشمة فأغلقت الأبواب الداخلية فى وجوهنا ولكن

الزميلات المتحمسات أخذن فى دقها بقوة ، وانطلقت بعض الاقتراحات العنيفة بتحطيمها وبتمزيق اطارات مئات السيارات المحتشدة فى الفناء ولكنى أمهلتهن ريثما نتفاوض مع رئيس الحرس بالتى هى أحسن !

وأسفرت المفاوضات عن السماح لوفد منا بالدخول لصعوبة وخطورة هجوم الخمسمائة سيدة على القاعات الداخلية ، فدخل ثلاثة منا هن .. السيدتان سيزا نبراوى وزينب لبيب وأنا ، وطلبنا مقابلة رئيس مجلس النواب ، فاستقبلنا وكيل المجلس — الأستاذ جميل سراج الدين فى مكتبه معتذرا بعدم وجود الرئيس ، ولعله آثر الهروب من مظاهرتنا فقصدنا الى مكتب رئيس الشيوخ ، وطلبنا مقابلته ، ولم يكن موجودا هو الآخر لمرضه ، فاتصلت به تليفونيا فى منزله وقلت له .. اننى أتحدث اليك من مكتبك بمجلس الشيوخ ، وتوجد هناك ألف سيدة يعتصمن بالبرلمان ويرفضن الخروج منه ، قبل أن يأخذن وعدا قاطعا صريحا بالاعتراف بحقوقهن الانتخابية كسائر المواطنين ..

وأذهلت المفاجأة الرئيس الدكتور على زكى العرابى وناشدنى العمل على تهدئة الحالة ودعوة المعتصمات الى الانصراف ، بعد أن أعطى كلمة شرف بأنه سيبذل المستحيل فى سبيل تحقيق هذه المطالب العادلة ، وقال انه شخصيا أول المؤمنين بها ، وان من رأيه ان الدستور يبيح للمرأة حقى الانتخاب والترشيح وان له مذكرة فى هذا المعنى ، ولكنه سيجدد محاولته ، فاذا كنا نثق فى شرفه فعلينا أن نعتمد عليه وننصرف ، فقلت له : اذن فلتكن حركة اليوم انذارا فاذا لم تحققوا وعودكم لنا فان لنا عودة الى العمل الايجابى ، وبأسلوب قد يكون أكثر قوة من هذا الأسلوب .

فخرجت أعلن للزميلات نص هذا الحديث .. وتعالت الهتافات مرة أخرى ، وعادت المتظاهرات حوالى الساعة العاشرة مساء الى دار اتحاد بنت النيل يتبادلن التهانى والقبلات بما أحرزناه من نصر .. ولم يكن

النصر الذى نعنيه هو الوعد الذى قطعه رئيس الشيوخ على نفسه . كلا ، بل هو النصر الذى تجلى فى نجاح خطتنا .. فى تحقيق أول هجوم نسائى .. أول حركة ايجابية تشترك فيها جميع الهيئات التى تمثل نساء مصر على اختلاف ميولهن وآرائهن ..

وفى اليوم التالى ، كانت صحف مصر ... بل كانت صحف العالم أجمع تروى قصة هذا الزحف النسائى الأول من نوعه .

وكيل النيابة

يشيد بالمتهمة

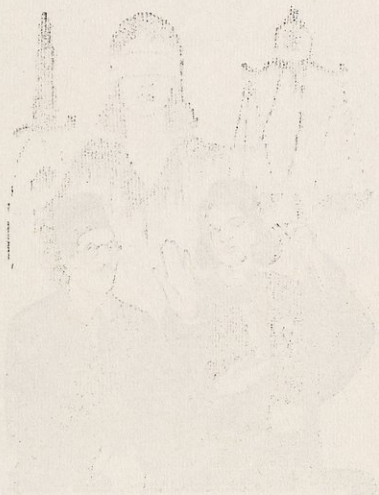

وفى اليوم التالى لانتصارنا فى اقتحام البرلمان بجموع النساء المصريات اللائى يمثلن جميع الهيئات والمنظمات النسائية .. وبينما صحف العالم كله تتحدث عن ذلك الحدث التاريخى ، وتقول انه كان مفاجأة أذهلت الجميع ، وأثارت عطف الكثيرين .

فى ذلك اليوم فوجئت باخطار من نيابة عابدين ، تدعونى فيه لحضور التحقيق الذى سيجرى معى !

وفى النيابة عرفت ان التحقيق يدور حول المظاهرة التى توليت قيادتها بالأمس .

وسئل السيد (سقراط ينى) الموظف المشرف على قاعة « يورت » أولا : كيف سمح لنا بعقد اجتماع دون تصريح من الجهات المختصة .. وقال الموظف — كما ذكرت جريدة آخر لحظة فى عددها الصادر يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٥١ — انه رأى صورة كبيرة للمغفور لها هدى هانم شعراوى فى صدر القاعة فظن أن المقصود هو اقامة حفل تأبين لها !

ثم دعيت لاستجوابى فقررت اننى المسئولة الوحيدة عن كل ما حدث وان المظاهرة قد دبرت قبل دخولنا القاعة ونفذت بعد خروجنا منها فلا مسئولية مطلقا على ذلك الموظف ولا على أصحاب القاعة ، وسألنى المحقق وكيف أعقد اجتماعا بدون تصريح ؟ فقلت انه اجتماع خاص بالهيئات النسائية ، وهو غير الاجتماعات العامة التى نص القانون على ضرورة اخطار السلطات بها !

ثم سألنى — وكيف أنظم مظاهرة بدون اخطار مع تعارض هذا مع القانون ..؟ فقلت انها لم تكن مظاهرة بالمعنى الذى قصده القانون ، بل

كانت وفدا يمثل نصف الأمة ، وقد ذهب يرفع صوته لمثلى النصف الآخر .. أعضاء البرلمان !

ولم يقتنع وكيل النيابة المحقق بهذا المنطق وقرر تقديمى فورا الى محكمة جنح عابدين بتهمتين — التظاهر وعقد اجتماع بدون ترخيص .. وجاءنى اعلان بالجلسة فرفضت استلامه لوصوله بعد الموعد القانونى الذى يحتم اخطارى بموعد الجلسة قبلها بثلاثة أيام على الأقل ، وعلى ذلك قررت المحكمة — فى غيابى — تأجيل نظر القضية من يوم ٥ مارس الى يوم ١٠ ابريل .

وفى ذلك اليوم احتشدت محكمة عابدين بمئات السيدات اللائى حضرن قضية تعتبرها كل واحدة منهن قضيتها الخاصة .

وكان عشرات المحامين والمحاميات قد أبدوا تطوعهم للدفاع عنى ، وقد حضر عدد كبير أذكر منهم المحاميات الأستاذة مفيدة عبد الرحمن والآنسات ليلى تكلا وكوكب الياس ونرجس نصيف .

وعقدت الجلسة فأعلن الرئيس فى بدايتها ان قضيتى رقم ٣١ ستنظر فى الساعة الثانية عشرة تماما ، ولذلك يطلب الى السيدات الحاضرات الانصراف حتى يحين موعدها .

وفى الموعد المحدد أراد القاضى أن ينظر القضية فى جو هادىء فأرسل يطلب « المتهمة » والمحامين فى حجرة المداولة ، ولكن السيدات ما كدن يعرفن ذلك حتى اقتحمن حجرة المداولة أيضا وملأنها عن آخرها ..

ووقف الأستاذ يحيى راشد ممثل الاتهام وقال بالحرف الواحد : « ان النيابة العمومية تطلب تأجيل الدعوى الى أجل غير مسمى ، حيث يعتقد ان الدكتورة درية شفيق وهى عضو عامل فى الهيئة الاجتماعية لن تعود الى ارتكاب ما يؤخذ عليها قانونا » .

وصفق البعض للمفاجأة ، ولكن زميلتى الأستاذة مفيدة عبد الرحمن المحامية وقفت ترفض «عفو» النيابة قائلة : ان طلب النيابة تأجيل الدعوى لأجل غير مسمى ظاهره فى مصلحة الدكتورة درية شفيق ، ولكن الذى

يهمنا هو الحصول على شهادة لتبرئتها لأن التهمة غير ثابتة فقد قامت الدكتورة درية شفيق بالابلاغ عن اجتماعها بدليل أن الصاغ نجيب بسيونى حضره وأحاط المكان بجنوده ، ومعنى هذا انه كان يعلم كل شىء عن هذا الاجتماع .

وعادت مفيدة تقول — « ان الدكتورة درية شفيق يهمها أن تتم هذه المحاكمة وفورا حتى تثبت للعالم كله براءتها من تهمة الخروج على القانون»

وهنا قرر الرئيس رفع الجلسة على أن يصدر الحكم فى طلب التأجيل بعد المداولة .. ولما عادت الجلسة للانعقاد نطق سيادته بالحكم وهو يقضى بتأجيل القضية الى أجل غير مسمى .. »

وهنا خرجت السيدات فى « مظاهرة » جديدة لم أكن أنا الداعية اليها فى هذه المرة . خرجن فى مظاهرة دعتهن اليها حماستهن وفرحتهن بهذا الانتصار .. نعم فقد اعتبر موقف النيابة مشاركة جديدة فى العطف على الحركة النسائية !

وقصدت المظاهرة الى دار اتحاد بنت النيل ، حيث أخذت الزميلة زينب لبيب توزع « الشربات » عليهن ابتهاجا بهذا النصر الذى جعل النيابة — لأول مرة — تشيد بالمتهم .!

ولا أريد أن أتحدث هنا عن صدى هذه المحاكمة ، بعد صدى المظاهرة نفسها ، وحسبى ما قالته مجلة آخر ساعة فى ذلك الوقت من انها انتهزت هذه المناسبة وسألت عددا من رجالات مصر فقال مكرم عبيد بالحرف الواحد (قلت دائما ولسوف أقول دائما اننى فى صف المرأة المصرية .. ولماذا نعطى الرجل الجاهل حق التصويت ولا نعطيه للمرأة ؟ ولماذا تصبح المرأة فى الهند سفيرة ووزيرة ولا نسمح لها فى مصر بهذا الحق .. ان ما فعلته المرأة اليوم هو الكفاح .. وما أنجح الكفاح ! »

وقال المرحوم « محمد محمود خليل » كيف توجهون سؤالا كهذا .. ان ما فعلته المرأة شىء طبيعى أنا موافق عليه ألف مرة ، فأنا لست انسانا

بدائيا — ثم ان الدستور لا يمنع ولا يفرق ونحن لم نعد فى عصر تهمل فيه المرأة وكل ما أستطيع أن أقوله هو ان المرأة لم تعد تطيق حرمانها من حقوقها فانفجرت ، وهكذا يفعل الجائع عندما يمر على مخبز ، انه يحطم الباب ليحصل على رغيف الخبز « وقال السيد أحمد علوبة » لقد تقدمت بمشروع لمنح المرأة المتعلمة حق التصويت ، وما زال المشروع فى مجلس الشيوخ لم يبت فيه حتى الآن ، وتقدمت بمشروع لتقييد حق الطلاق رفضته لجنة العدل فى الشيوخ ، وما زال أيضا معلقا الى هذه اللحظة » !

وقد ختمت المجلة تحقيقها الصحفى بهذا الخبر ، قالت :

وفى صباح اليوم التالى فتحت درية شفيق عينيها على خطاب من قرينة سفير الهند فى القاهرة كانت السيدة تعتذر عن عدم حضورها لمرضها ، وقالت — وكل ما أستطيع أن أقوله هو « برافو » .. ان الله يساعد الذين يساعدون أنفسهم » !

المصريات

يحملن البنادق

فى سبتمبر سنة ١٩٥١ قررنا أن نثبت حقيقة هامة تلك هى اننا لا نطلب حقوقا متساوية فى مقابل لا شىء .. كلا ، بل اننا ندعو لمساواة عادلة ، تقوم على أساس المساواة فى الواجبات أيضا !

أردنا أن نؤكد ان المرأة لا تتردد فى القيام بكل ما يلتزم به المواطنون من الرجال .. اننا ندفع الضرائب كما يدفعونها ، ونعمل كما يعملون — فى شتى الميادين — فلماذا لا نساهم أيضا فى الدفاع عن أرض الوطن ..؟

ان قانون التجنيد يحرمنا من شرف الجندية ، ويعزلنا عن جيش البلاد ، ولكن ما الذى يمنعنا من أن نؤلف الكتائب التى تقوم بواجبها الوطنى فى حرب العصابات التى تدور رحاها هناك .. فى منطقة القنال ؟

صحيح ان الذين يشرفون على تأليف الكتائب لم يوجهوا الينا الدعوة ، ولم يفكروا أبدا فى اشراك النساء معهم فى هذا الشرف ، مع ما تستطيع أن تؤديه المرأة فى مثل تلك الحروب العصابية بالذات .. ومع ذلك فلماذا لا نبدأ نحن ؟ لماذا لا نفرض أنفسنا أيضا على هذا الميدان النضالى ، كما فرضناه على ميادين العلم ، والعمل ، والخدمة الاجتماعية .. وكما فرضنا أنفسنا وأثبتنا وجودنا فى الحركة الوطنية من أيام مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ؟

ان المرأة المصرية يجب ألا تنتظر بعد اليوم ، بل عليها أن تحتل مكانها فى كل ميدان معتمدة على نفسها ، وعلى ايمانها بحقها .. لا أكثر ولا أقل !

ولهذا يجب أن نشرع فى تأليف كتائب النساء لتنافس كتائب الرجال فى أشرف وأنبل وأعظم سباق .. سباق الموت من أجل الحرية .

ولم أكد أوجه الدعوة ، حتى تألفت الكتيبة الأولى — كتيبة بنت النيل — من مائتى متطوعة ، أكثرهن من فتيات اتحاد بنت النيل ، وقد اخترن لهن زيا للتدريب والميدان ، وآخر للاستعراضات الوطنية التى قصدنا بها رفع معنوية الشعب ، والهاب شعوره الوطنى ..

وبدأت فتيات الكتائب تدريباتهن فى المعسكر الخاص الذى أقيم فى العباسية ، وكان الضباط الذين يمرنونهن على اطلاق النار ، وعلى فنون الحرب فى الشوارع وفى الصحارى ، يشيدون ببراعتهن ووطنيتهن واستعدادهن الجاد للتضحية بأرواحهن فى سبيل الوطن ..

ولم يلبث أن أصبح لدينا بعد شهور قليلة جيش احتياطى من بنات النيل الباسلات العظيمات .. وما كان أروع هذا الجيش النسائى وهو يتصدر المظاهرات الوطنية ، ويتصدر حركات المقاطعة الاقتصادية ، وأخيرا وهو يسافر الى القنال ليؤدى واجبه ، حتى لا ينفرد الرجال بشرف الكفاح ، وفخر الاستشهاد !

عشرة آلاف مصرية

فى جنازة الشهداء

وجاء شهر نوفمبر من ذلك العام المبارك — ١٩٥١ — والهيئات السياسية جميعا تتأهب للاحتشاد فى مظاهرة صامتة تعبر بها عن احتجاجها على الاعتداءات البريطانية فى منطقة القنال .. مظاهرة صامتة نعلن فيها الحداد على ذكرى الشهداء الأبرار الذين جندلهم رصاص الانجليز فى الاسماعيلية والسويس .

ومرة أخرى وجدت القوم يتجاهلون المرأة المصرية .. تلك الأخت التى لم تترك فرصة تمر دون أن تعبر لهم عن استعدادها لمشاركتهم البذل والتضحية من أجل الوطن الحبيب .

وتجاهلت التجاهل فى هذه المرة أيضا ، وقررت أن أتحرك لدعوة كل مصرية الى الاحتشاد فى مظاهرة واحدة تمثل النساء المصريات على اختلاف هيئاتهن ومنظماتهن .

وبدأت فأخطرت المسئولين رسميا بهذا الذى نعتزمه ، فلم يكن الأمر يحتاج الى تكتم بل كان الكل يتعاونون — حكومة وشعبا — لتنظيم الصفوف وحشدها فى تلك المظاهرة ، أو فى تلك الجنازة الصامتة كما كانوا يسمونها !

ورأيت لأهمية المناسبة ، ألا نكتفى بنداء نوجهه على صفحات الصحف ، قد يتوه فى زحمة عشرات النداءات الأخرى التى تزخر بها أعمدة الجرائد من شتى الطوائف والهيئات أن مظاهرتنا يجب أن تكون من الضخامة والنظام والروعة بحيث تكون عنوانا على نساء مصر، وتعبيرا دقيقا عن قوتنا وتنظيمنا ووعينا الجديد ، وعلى ذلك طبعنا اعلانات حائط من الحجم الكبير ، وأعددنا أربع لافتات كبرى تحمل عبارة واحدة

(أيتها المصرية انضمى الى مظاهرة النساء المصريات) هذا الى جانب ما رسمته فنانات اتحاد بنت النيل من لوحات لصور الشهيدات ..

وحددنا مكانا تتجمع عنده .. وهل هناك أنسب من شارع ضريح سعد حيث وقفت أول مظاهرة نسائية منذ أكثر من ثلاثين عاما ، تهتف بحق مصر فى الحرية والاستقلال ؟

فليكن لقاؤنا اذن هناك عند ضريح سعد .. عند النقطة التى انتهت عندها مظاهرة الرائدات العظيمات اللائى سبقننا سنة ١٩١٩ ، ولنثبت هناك — من جديد — ان نساء مصر يتطورن دائما الى الأمام ..!

ومنذ الصباح ، بدأت المصريات الوطنيات .. من السيدات والآنسات .. من المثقفات والعاملات ، من الزوجات والموظفات .. بدأت تفد الى المكان الذى حددناه عند ضريح سعد فما كاد جمعهن يلتئم حتى وقفن فى صفوف منظمة ، تتقدمهن فرقة من كتائب بنت النيل بثيابهن الخاصة وبأعلامهن ..

وكانت الترتيبات التى أعددناها تقضى بألا تزيد المسافة بين كل سيدة وأخرى عن نصف متر خوفا من أن تتفرق بين مليون من المتظاهرين خرجوا فى ذلك اليوم الخالد يحيون ذكرى شهدائهم ، ويعبرون عن تصميمهم على مواصلة نضالهم الباسل المجيد .

وتحرك موكب النساء المصريات يشترك فى الجنازة الوطنية الكبرى وكانت فرقة من الكتائب التى ألفتها قبل ذلك فى طليعة الموكب تتصدره فتستقبل بتصفيق لم أسمع له مثيلا فى حياتى كلها .. انها فرحة مصر — رجالها قبل النساء — بنهضة المرأة المصرية ، هذا العملاق الذى حطم غطاء القمقم بنفسه ، ليفاجىء المستعمرين والرجعيين بأن عدد الأبطال الذين يكافحونهم قد أصبح ضعف العدد الذى كان يكافحهم من قبل ..

واخترقنا بموكبنا الحافل الرهيب شارع قصر العينى .. ثم شوارع مجلس النواب فالفلكى فعدلى .. حتى وصلنا الى منتصف ميدان الأوبرا

حيث تتجمع الطوائف كلها عقب انتهاء طوافهم .. وكانت مئات بعد مئات يظهرن فجأة ويتسللن حتى يصلن الى موكبنا للانضمام اليه ، حتى لقد قدر عدد المشتركات فى تلك المظاهرة بأكثر من عشرة آلاف سيدة وآنسة.

وكان لابد — فى غمرة هذا الانتصار — من حادث يسلى عن نفوسنا اذ ذاك ، ولم يكن ذلك الحادث سوى انسحاب الجمعية التى تسمى نفسها « شباب محمد » وعدم اشتراكها فى مظاهرة الوطن الكبرى .. انسحبت حرصا منها على الدين ومكارم الأخلاق ، كأن الدين ومكارم الأخلاق يمنعان الناس من أن يكونوا وطنيين ، وأن يعبروا بكل وسائل التعبير — عن تضامنهم فى الكفاح !!

المرأة
والتحرّر الاقتصادى

كانت المتطوعات فى كتائب بنت النيل يلتهبن حماسة ، ولكن كثيرا من الأسر رفضت أن تسافر بناتهم الى جبهات المقاومة فى القنال ، وخشيت أن تندفع بعضهن فى تيار حماستها فتسافر على غير ارادة ذويها ، وتضاف الى قائمة الاتهامات التى توجهها الى العناصر الرجعية تهمة تحريض الفتاة المصرية على التمرد على أسرتها !

وخشيت أكثر من هذا أن تتبدد هذه الحماسة وتنطفىء شعلتها ، فيكون فى ذلك خسارة كبرى على وطن هو أحوج ما يكون الى أن تبقى جذوة الوطنية فى قلوب بنيه حية ومتوهجة ، ففكرت فى فتح جبهة ثانية للمعركة الوطنية .. هنا فى القاهرة !

ولم لا ؟.. آن قصر المعركة على مدن القنال لا معنى له ، وفى وسعنا أن نضاعف من ارتباك المستعمرين اذا عرفنا كيف ننقض عليهم ونطبق من جميع الجهات ، وما دامت « بنت النيل » تدعو لمقاطعة البضائع الانجليزية فلماذا لا نشرف على تنفيذ هذا المقاطعة بأسلوب الكتائب ..؟ لماذا لا ننفذ المقاومة السلبية ولكن بطريقة ايجابية .. ثورية ؟..

ولم أضيع الوقت فانتهزت فرصة وجود أغلب أعضاء اتحاد بنت النيل فى احدى محاضراتنا ، ودعوتهن الى جلسة غير عادية ، شرحت لهن خلالها فكرتى ، واقترحت عليهن أن نعهد بتنفيذها الى لفيف من الفدائيات المتطوعات فى الكتائب ، على أن أكون معهن .

وقررنا فى هذه المرة أيضا اعتبار الخطة سرا لا يجوز لاحدانا أن تذيعه حتى لا يتخذ القوم احتياطهم .. وكانت هذه الخطة التى اقترحتها

للتعبير عن مقاطعتنا الاقتصادية للمستعمرين، هى محاصرة « بنك باركليز » ومنع التعامل معه لمدة ٢٤ ساعة !

وبرهنت السيدات المصريات من جديد على انهن يحفظن السر !!

وفى ذلك اليوم — يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٥٢ — رابطنا — زميلاتى الفدائيات وأنا — أمام بنك باركليز بشارع قصر النيل .. فى نفس الدقيقة التى فتح فيها البنك أبوابه ليستقبل العملاء .

لقد منعنا دخول العملاء البنك ولكننا حرصنا على تسهيل الخروج لمن يريد الخروج بترك البنك .

ولم تمض لحظات حتى اكتظ الشارع حولنا بالجماهير المتحمسة .. وكان العملاء يعودون أدراجهم بمجرد أن نصدر اليهم الأمر بعدم الدخول .. بعضهم عن وطنية واقتناع ، وبعضهم عن تسليم بالأمر الواقع وخوفا من الجماهير التى تجمعت لتعلن تضامنها مع كتيبتنا فى هذه الحركة الوطنية ...

فى ساعة واحدة تكهرب الجو ، وبلغ من حماسة بعض الشبان الوطنيين أن أحضروا الميكرفونات ليشرحوا فكرة المقاطعة الاقتصادية للمارة الذين كانوا يسألون عن هذا التجمهر .. وحاول محضر محكمة عابدين أن يدخل ليوقع حجزا فرفضت ، ولما قال ان المسئولية ستقع عليه اذا لم ينفذ هذا الواجب فقلت له سجل فى محضرك اننى منعتك من التنفيذ بالقوة ، وأنا أوقع لك على هذا المحضر !

وكانت تطورات الموقف تبلغ لوزير الداخلية أولا بأول ..

وجاءنى مأمور قسم عابدين ، وحاول أن يقتحم الحصار فقلت له قف مكانك ولا تتقدم خطوة واحدة أكثر من ذلك !

ودهش الرجل وسألنى : كيف ذلك وهو ممثل السلطة التنفيذية جاء يتفاهم معى بالحسنى لفك هذا الحصار الذى يعطل حركة البنك ، ويوشك أن يصبح شرارة لاضطراب الأمن فى العاصمة كلها .

وأخيرا قلت للمأمور فى لهجة حاسمة : عد من فضلك ولا تجعلنى ألجأ الى القوة .. ستكون أنت المسئول اذا اضطرب الأمن .

وعاد المأمور يقول : ولكن الأمن مسئول منى لا منك .. هـذه وظيفتى أنا .. !

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف وصلت الى المأمور نجدة من بلوكات النظام .. لقد أرسلت اليه الحكمدارية أربعة لوريات تحمل نحو مائتى جندى ببنادقهم وهراواتهم .. وهنا قال المأمور — سوف نقبض عليكن اذا لم تنصرفن فورا .

قلت له : اعتقلنا .. افعل ما تشاء وما تستطيع ولكنا لن نفك الحصار.

وهنا أصدر الرجل الأمر الى جنوده بالقبض علينا فأودعنا أحد اللوريات ثم أصدر أمرا آخر بالقبض على ٢٥ شابا من المتجمهرين حاولوا التصدى لمنع اعتقالنا .. وكانت الساعة قد بلغت منتصف الثانية عشرة ظهرا ، وكنا قد تمكنا فى خلال تلك الفترة من منع عمليات قدرت بـ ٣٤ ألفا من الجنيهات !

وأودعنا جميعا قسم عابدين ، ريثما يقرر وزير الداخلية ما يراه بالنسبة الينا ، ولما كان الوزير لا يستطيع أن يتصرف قبل معرفة رأى البوليس السياسى فقد بقينا هناك الى قبيل الغروب ، وكانوا فى خلال ذلك يعرضون علينا تسليم اللافتات التى كنا قد أعددناها بشعارات المقاطعة ولكن الفدائيات رفضن تسليمها !

وأخيرا .. بعد مفاوضات ومشاورات، اشترك فيها الوزير مع حكمدار العاصمة — اللواء مراد الخولى وقتذاك — مع رجال البوليس السياسى صدر الأمر باطلاق سراحنا ..

وصدرت الصحف فى اليوم التالى تتحدث عن الحركة التى قامت بها كتائب بنت النيل للتعبير عن دعوتها الى المقاطعة .

ان الفكرة فى حصار كتائب بنت النيل لبنك باركليز كانت رمزية لا أكثر ولا أقل ، هدفها الأول كان التعبير عن حماسة المرأة المصرية للدفاع عن حرية البلاد سواء كانت حرية سياسية أو حرية اجتماعية أو حرية اقتصادية ..!

نزلنا

إلى الميدان الانتخابى

وكان لذلك الاشتراك الفعلى الذى ساهمنا به فى ميدان النضال الوطنى أثره العميق فى تحريك وجدان الشعب بعدالة قضيتنا ، وأصبح الاحساس العام فى البلاد ان المرأة ستظفر بقضيتها وكان هذا الاحساس واضحا الى الحد الذى جعل الشيخ السابق محمد خطاب يعلن فى محاضرة له ألقاها يوم ١٧ مارس « انه يراهن من يشاء على ما يشاء ، ان المرأة المصرية ستعطى صوتها فى الانتخابات القادمة » وكانت الانتخابات القادمة بعد أسابيع !

ولم لا ؟ ان الاجماع يكاد ينعقد على عدالة هذا المطلب القانونى البديهى الطبيعى ، وهو مساواة المواطنين جميعا أمام صندوق الانتخاب .. أمام حقهم المقدس فى تقرير مصيرهم ، وها هو ذا الدكتور سيد صبرى أستاذ القانون الدستورى بجامعة القاهرة يخطب فى نقابة الصحفيين فيقول ان الدستور يبيح للمرأة حق الانتخاب ، وان اللجنة الدستورية التى حرمتها هذا الحق قد ناقضت نفسها .. وها هم أقطاب اللجنة الدستورية فى الشيوخ (زكى العرابى ومحمد على علوبة واحمد رمزى) يقدمون مذكرة جديدة يؤيدون مذكرة العرابى فى ضرورة منح المرأة المصرية حق الانتخاب بعد أن وقعت مصر على ميثاق هيئة الأمم المتحدة الذى يحتم على كل بلد موقع عليه بعدم التفرقة بين الجنسين فى الحقوق السياسية .

ولكن وزارة الهلالى قررت الدعوة لاجراء الانتخابات وفتحت جداول القيد ، وسئل ذلك المصدر الرسمى الذى طالما تكلم باسم تلك الوزارة فأكد ان المرأة المصرية ستعطى حق الانتخاب والترشيح .. سئل ذلك المصدر الرسمى فى هذه المرة فلاذ بالصمت !

ثم فتح باب الترشيح ، وأهملت المرأة وتجاهل المسئولون مطالبها بعد أن ظلوا يتصايحون بحقها فى الانتخاب والتصويت .. وكنت اذ ذاك أقيم فى مستشفى الدكتور مورو لاجراء جراحة فأعجب من هذه السياسة الملتوية ، ذات الوجهين ..

وفى المستشفى حضرت بعض أعضاء مجلس ادارة اتحاد بنت النيل لزيارتى فقلت لهن :

ما رأيكن فى حركة نعبر بها عن تصميمنا على خوض المعركة الانتخابية .. ما رأيكن فى ترشيح عدد منا فى بعض الدوائر الانتخابية ، وتتقدم لدفع التأمينات بالفعل ؟

وسألت احداهن — واذا رفض المسئولون استلام هذه التأمينات ؟

قلت — لماذا نسبق الحوادث ؟ سنرى .. وسنعرف على الأقل منطقهم فى هذا الرفض كما نعرف ويعرف العالم أجمع كيف يقابل الرأى العام موقفنا وموقفهم .

وتحمست الزميلات فقررن الذهاب فى اليوم التالى لدفع التأمينات فى خزينة محافظة مصر ، وخزائن المديريات الأخرى التى تقرر الترشيح فيها ، وكانت القائمة التى أعددناها تتضمن أسماء عشر من السيدات عن دوائر المعادى وفم الخليج ومصر الجديدة وعابدين بالقاهرة والرمل والعطارين والمنشية بالاسكندرية ومحلة روح ودسوق .

وقد ذهبت الزميلات لدفع تأميناتهن ظهر يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٥٢ فرفض الموظفون المختصون استلامها بحجة ان قانون الانتخاب لا يسمح بالترشيح لغير الرجال !

وكنت لمرضى لم أستطع الذهاب بنفسى فأرسلت حوالة بريدية بقيمة تأمين ترشيحى عن دائرة عابدين مع خطاب بهذا المعنى الى محافظ العاصمة — وكان الأستاذ كامل القاويش فى ذلك الوقت — فلم يشأ أن يعيده الى الا يوم ١٥ مارس أى بعد موعد قفل باب الترشيحات بثلاثة أيام وذلك تفاديا من القضية المستعجلة التى عرفت وزارة الداخلية

اننا سنرفعها فى مجلس الدولة للمطالبة بوقف تنفيذ قرار الرفض لتعارضه مع الدستور .. وهى المعركة التى حرصت الحكومة على أن تهرب منها ، ولا تلتقى فيها معنا أمام هيئة قضائية محايدة كمجلس الدولة !

لقد أعاد الى الأستاذ كامل القاويش قيمة التأمين مع خطاب يقول فيه ان المرشح لا بد أن يكون مقيدا فى جداول الانتخاب — وما دمنا غير مقيدات فى تلك الجداول فان قبول أوراقنا يصبح باطلا من الناحية القانونية .. أو هكذا قال !

ولكن هل قنعنا من الغنيمة بالاياب .. كلا ، فقد بادرنا برفع قضية مستعجلة أمام محكمة القضاء الادارى حددت لها جلسة يوم ١٠ أبريل ، لولا أن تأجلت الانتخابات كلها أو عدل عنها حتى يتم تعديل قانون الانتخاب .. واستبشرنا خيرا ، اذ حسبنا ان هذه الفرصة لن تفلت من المرأة المصرية ، فان التعديل سوف يشمل قطعا الاعتراف بما للمواطن من حقوق ، وقال أحد الوزراء مداعبا — يوم أجلت الانتخابات — لا تغضبى اذا كانت الحكومة لم تساويكن بالرجال .. فقد ساوت الرجال بكن .

اشارة من (معاليه) بتأجيل الانتخابات !!

وقال لى وزير آخر وهو يسخر من الأحزاب الأخرى .. ان الحزب الوحيد الذى نجح فى هذه الانتخابات التى لم تتم هو حزب بنت النيل !

ومع ذلك فقد كسبت (بنت النيل) المعركة فعلا ، وهى حقيقة يلمسها كل الذين يذكرون تلك الضجة التى أحدثتها حركتنا ، لقد كان لها دويها الهائل فى مصر .. عندما وجدت مئات من المناضلات الشعبيات صاحبات الملايات السوداء .. زوجات وبنات وشقيقات أصحاب الجلاليب الزرقاء الذين أيدوا سعد زغلول ، عندما وجدت هؤلاء المكافحات الباسلات يحضرن فيما يشبه المظاهرات ليعبرن عن تأييدهن لنا فى هذه الحركة الجديدة ، وتقترح بعضهن ، أن يذهبن الى اللجان الانتخابية ويقتحمنها بالقوة ، لتدلى كل منهن بصوتها ، وتفرضه كما نفرض نحن ترشيحنا فرضـا !!

خطابان للتاريخ

وأحب قبل أن أختم هذا الفصل تسجيل وثيقتين هامتين عن ذلك الحدث الضخم فى تاريخ الكفاح النسائى المصرى ، وأولها خطاب أرسلته الى رئيس الوزراء فى يوم ٥ من ابريل ونشرته أخبار اليوم بنصه وهو :

من مرشحة دائرة عابدين الى رئيس الوزراء !

بعثت الى محافظة العاصمة تأمين الترشيح لعضوية مجلس النواب ، وقد تسلمته المحافظة منذ أسبوع ، بكتاب مسجل ولم ترده الىّ .

وأفهم من ذلك يا دولة الرئيس ان محافظة القاهرة قد ردت الأمور الى نصابها واقتنعت آخر الأمر بأن المرأة المصرية يجب ألا تتخلف عن زميلاتها فى العالم المتحضر ، وهذه علامة طيبة على تطور أمور المشرفين على الانتخاب .

واننى لسعيدة أن أشعر اليوم ، ان تأمين الترشيح قد قبل ، وسوف أبدأ وزميلاتى الفضليات الدعاية الانتخابية فورا ، وأملى أن يستمر المسئولون عند موقفهم ، مؤمنين حقا ، بأن الدستور قد سوى فى الحقوق الدستورية جميعا ، بين الرجال والنساء على السواء .

درية شفيق
رئيسة اتحاد بنت النيل

والوثيقة الثانية هى نص الخطاب الذى أرسله الى مصحوبا بنفس الحوالة البريدية التى سبق أن بعثتها اليه بقيمة التأمين !

حضرة المحترمة الدكتورة درية شفيق

تلقينا كتابك الوارد الينا فى ٣٠ مارس الماضى ومعه حوالتا بريد رقم ١٨٠٨٧ بمبلغ مائة وخمسين جنيها قيمة التأمين لعضوية مجلس النواب عن دائرة عابدين .

ونعيد مع هذا الحوالتين لأن حق الانتخاب مقصور على الذكور دون الأناث عملا بنص المادة الأولى من قانون الانتخاب الصادر بالمرسوم

رقم ١٤٨ لسنة ١٩٢٥ ، كما ان حق الترشيح لعضوية مجلس النواب مقصور كذلك على الذكور عملا بنص المادة ٢٣ من القانون السالف الذكر والتى اشترطت أن يكون اسم المرشح مدرجا بأحد جداول الانتخاب ، أى أن يكون المرشح ذكرا متمتعا بحق الانتخاب .

ولهذا نأسف لعدم امكان قبول تأمين الترشيح المقدم من حضرتك أو ادراج أسماء فى كشف المرشحين .

وتفضلى بقبول وافر التحية .

محافظ القاهرة
محمد كامل القاويش

وبالرغم من ان خطاب المحافظ كان مؤرخا بـ ٩ من ابريل الا انه لم يسلم الىّ فعلا الافى يوم ١٥ .. بعد قفل باب الترشيح بثلاثة أيام كما قلت وهو ما يؤيد انها كانت مناورة لتفويت فرصة الالتجاء الى القضاء المستعجل على المرأة المصرية !

الملك يقاوم

الحركة النسائية

وبدأت الصحف والناس تتحدث عن تعديل قانون الانتخاب ، وكان أهم ما يشغل الصحف والناس هو موضوع الاعتراف بحقوق النساء فى هذا التعديل !

وكان هناك شبه تسليم من الجميع بهذه الحقيقة وخاصة بعد ان نشرت الصحف (مانشيتات) ضخمة عن القضية التى قررت رفعها أمام مجلس الدولة ، ووكلت فيها الأساتذة محمد على علوبة وفكرى أباظه وزهير جرانة والسيد صبرى و « المرحوم » عزيز فهمى ونور الدين رجائى واحمد الخادم .. وعادت جريدة الأهرام فأثارت الموضوع حين سألت الدكتور زكى العرابى عن رأيه فيما يقال من ان منح المرأة حق الانتخاب يتطلب حتما ادخال تعديلات كبيرة على الدستور نظرا لأن مواده منصبة على الذكور دون الأناث فقال سيادته بأن « مثل هـذا القول بعيد جدا عن الحق والصواب فان الدستور وضع للمصريين جميعا نساء ورجالا ، ولهذا قرر فى بحثه الدستورى ان قانون الانتخاب مخالف للدستور اذ ورد فى المادة الأولى منه :

« لكل مصرى من الذكور حق انتخاب أعضاء مجلس النواب الخ ..

وقالت الأهـرام اذ ذاك « وقد سـبق لسعادته ان اقترح بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩٤٧ مشروع قانون أساسه ان الدستور خول حق الانتخاب للرجال والنساء على قدم المساواة بنص صريح ، وحينئذ فالمرأة ليست فى حاجة الى أن يصدر قانون جديد يمنحها هذا الحق ، وانما قانون الانتخاب قد جاء مخالفا للدستور بأن سلب من المرأة حق الانتخاب المخول لها بمقتضى المادة ٣ من الدستور واقترح سعادته بناء على ذلك

تعديل المادة الأولى من قانون الانتخاب بالنص على أن يكون للمصريين من ذكور وأناث حق الانتخاب حتى لا تظل هذه المادة غير دستورية وتصحيحها على هذا الوجه يستوجبه الدستور » .

وصرح أحد كبار رجال الدين لمندوب الأهرام بأنه وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تنصب على المؤمنين كافة — نساء ورجالا على السواء — مثل الآية الكريمة « انما المؤمنون أخوة » ..

وظلت الصحف جميعا تؤكد ان النية تتجه الى منح المرأة حق الانتخاب ، وفيما يلى بعض عناوين الأهرام — وصلتها بالدوائر الحكومية معروفة : —

(أبحاث لجعل الانتخاب اجباريا واباحته للمرأة الخ) ١٢ ابريل سنة ١٩٥٢ .

(رجحان كفة منح المرأة حقوقها الانتخابية بشروط فى التعديل الجديد) ١٤ ابريل سنة ١٩٥٤ .

(الدستور يسوى بين الرجال والنساء الخ ..) ١٧ ابريل سنة ١٩٥٢.

وهكذا كانت الصحافة كلها تجمع على ان المسئولين قد سلموا بمساواة المرأة فى الحقوق البرلمانية .. وفجأة .. فجأة تغيرت لهجة الصحف ولهجة المصدر الرسمى الذى يتكلم باسم الحكومة !

وصرح الأستاذ فريد زعلوك وزير الدولة اذ ذاك بأن موضوع منح المرأة حقوقها السياسية « لم يبحث بعد » !

ونشرت جريدة النداء خبرا خطيرا — بل هو بالغ الخطورة — ففى يوم ٢٢ من ذلك الشهر نفسه — ابريل — قالت فى مكان بارز وبطريقة واضحة هذه السطور القليلة التالية : —

« أبدت احدى الشخصيات الكبيرة رأيا خاصا فى موضوع منح المرأة حق الانتخاب ويدرس هذا الرأى الآن بعناية كبيرة » .

وقرأ الأحرار مما بين السطور ، وفهموا كل شيء ، وأدركوا ان الرجعية قد وجدت حليفا للاتحاد معها فى جبهة واحدة ضد قضية المرأة .. قضية نصف الشعب الذى يناصبهم ، ويناصبونه العداء !

ولم يكن ذلك الحليف — كما أدرك الأذكياء جميعا — سوى فاروق واتصل بى شخص معروف من بطانة ذلك الملك الذى أسقطته ارادة الشعب .. اننى أنصحك بحل هذا الاتحاد أو تحويله الى جمعية خيرية مثلا ، فان المرأة لن تصل الى حقوقها الآن !

قلت له — أهذا هو رأيك ؟

فأجاب فى لهجة حاسمة ، ليس هذا رأيى ، ولكن هذه هى السياسة التى وضعت نهائيا !

قلت له — ولكن البرلمان لم يضع مطلقا أية سياسة من هذا النوع ، وهو مع ذلك لم يجتمع منذ بضعة شهور .. فمن الذى وضع هذه السياسة ؟

فأجاب وهو يضع السماعة :

— انت تعرفين كل شيء !.

وفى بادىء الأمر كنت أحسب ان صاحبنا يداعب أو « يهوش » ولكنى لم ألبث ان وجدت حملة مفاجئة .. حملة واسعة ضخمة على حقوق المرأة بلا مناسبة وبلا مقدمات ..

وافتتح تلك الحملة الشيخ حسنين مخلوف وكان يشغل منصبا دينيا خطيرا هو « مفتى الديار المصرية » !

افتتح الحملة باصدار بيان فى ٦ مايو سنة ١٩٥٢ أفتى فيه — دون أن يطلب اليه أحد ! — بأن الدين الاسلامى يتعارض مع منح النساء حق الانتخاب ، ولم يكن ذلك هو كل ما تجلى فى موقف صاحب الفضيلة بل العجب حقا ان « يتبرع » بفتواه هذه فى الوقت الذى كان اثنان من أكبر علماء الاسلام فى العالم يدفعان عن الاسلام وصمة الوقوف فى وجه التحرر والتطور .

وفى نفس الوقت كان مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف بالهند وناقل القرآن الكريم من اللغة العربيـــة الى الأوردية يلقى تصريحـا قاطعا يقول فيه بالحرف الواحد « ان الاسلام منذ نشأته أنكر التفريق بين الرجال والنساء فى الحياة السياسية والعامة ، وقد تبين ذلك بجلاء من النضال الذى تلا استشهاد عثمان ثالث الخلفاء الراشدين فان الصحابة الذين كانوا أحبابا وأولياء انقسموا واختلفوا ، وبلغ الخلاف أشـده بينهم حتى قامت موقعة الجمل التى كانت أول نزاع مسلح بين المسلمين ، وكان الامام على رابع الخلفاء يتولى خلال هذا الخلاف قيادة أحـد الفريقين بينما تتولى السيدة عائشة رضى الله عنها قيادة الفريق الآخر ، وأخذ أنصار الامام على يوجهون النقد اللاذع لخصومهم ، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على انكار حق السيدة عائشة فى القيادة لمجرد انها امرأة »

وفى نفس الوقت كذلك كانت سكرتيرة المؤتمر النسائى «الاسلامى» فى لاهور — كانت تذيع القرارات التى أصدرها فى ٢٩ مارس وفى مقدمتها النص على رد الحقوق السياسية المغتصبة من النساء والمسلمات..

بل فى نفس الوقت الذى كان عشرات من أفاضل العلماء المسلمين فى مصر يكتبون فى مختلف الصحف مؤيدين هذه الحقوق مؤكدين انها لا تتعارض مطلقا مع الاسلام ، بل ان حرمان النساء فيها هو الذى يتعارض مع الاسلام آخر الأديان ، وأكثرها تطورا وتحررا ، وكان من هؤلاء العلماء الذين تحفظهم ذاكرتى الى اليوم فضيلة الشيخ دسوقى على دسوقى ، وفضيلة الشيخ منصور رجب الأستاذ بكلية أصـول الدين وقد كتب فى أهرام ٣١ مايو يقول فيها على التوالى : —

« أصابت امرأة وأخطأ عمر .. » هو الديمقراطية عينها بكل ما تحمله من مدلول .. »

والأخبـار متواترة ان كبار الصـحابة كانوا يسألون عائشة عن الفرائض حتى قال عطاء بن رباح : كانت عائشة من أفقه الناس ، وأحسن الناس رأيا فى اصابة ..

« وكان يجاز للمسلمة بالتدريس والافتاء .. »

بل فى نفس الوقت الذى كان زعماء المسلمين — فوق علمائهم — يقولون فيه ما هو أقطع وأصرح فيدلى السيد عبد الرحمن عزام بحديث الى مندوب روزاليوسف يقول فيه بالنص : —

« لم أكن أجد حرجا — خلال رحلتى الأخيرة فى أوربا — الا عندما كنت أسأل عن المرأة فى مصر وأسباب حرمانها من حقوقها السياسية وأؤكد لك ان مصر ستظل أضحوكة العالم ما دامت تنفرد بمناهضة المرأة هذه المناهضة الشديدة » .

كلا .. كلا ، بل أكثر من ذلك كله أن تجىء فتوى فضيلة الشيخ مخلوف متعارضة ومتناقضة تماما مع فتوى فى نفس الموضوع أدلى بها سلفه العظيم الشيخ علام نصار ، قبل تصريح الشيخ مخلوف ببضعة شهور فقط ، وقطع فيها بأن الاسلام يمنح المرأة تلك الحقوق ولا يسلبها منها .. فكان تناقض الشيخ مخلوف لسلفه الجليل هو مظهر التناقض الأكبر فى الفتوى المخلوفية !

ولحسن الحظ ، لم يغفل الرأى العام الواعى عن تلك المعانى كلها فانبرى المستنيرون والعلماء لمهاجمة تلك الفتوى وتفنيدها ، ومن أولئك الذين تصدوا للشيخ المذكور ، سيادة الدكتور أحمد زكى الوزير السابق والأستاذ توفيق دياب ، وعشرات من أساتذة المعاهد الدينية وعلماء الأزهر ، وشعر الجميع ، وفى مقدمتهم طبعا أولئك الذين كانوا يحركون الحملة ضد المرأة من وراء ستار .. أحس الجميع ان الفتوى المخلوفية قد « تخلخلت » وانها تنهار فوق رؤوسهم ، وكأنهم أرادوا عمل اسعاف سريع لها فصدر بيان جديد بتأييد وجهة نظر الشيخ مخلوف ، وكان البيان بتوقيع عدد من العلماء بوصف انهم « جبهة علماء الأزهر » .

ولقد سألتنى آخر ساعة فى عدد ١٨ يونيه عن رأيى فى ذلك المؤتمر الذى نشرت عنه تحقيقا كاملا بعنوان (امرأة واحدة أمام الطوفان) فقلت باختصار : —

ونحن نطالبهم بأن يؤدوا واجبهم نحو الدين الذى يزعمون انهم حملة رايته .. هذا الدين الذى لا يتمشى فى روحه وتصريحاتهم .

وبعد أن أدليت فى الصحف بتصريحات كافية لاطفاء هذه النار التى حاول الرجعيون أن يشعلوها ضد المرأة ، مع ذلك فقد رأيت أن أصدر كتابا أبيض « ضد هذه الحملة الرجعية التى تضع على وجهها قناعا زائفا ، حتى يكون ذلك الكتاب مرجعا لكل من ينشد الحقيقة عن هذا الموضوع ، وقد ضمنته كل الوثائق والتصريحات والأحاديث الشريفة والآيات القرآنية ، والفتاوى التى صدرت لوجه الله .

ولا يكاد يوجد اليوم فى مصر ، رجل واحد يحترم نفسه ويحترم عقلية الشعب فى نفس الوقت ، يجرؤ على اقحام الدين فى هذه المسألة ، أو يلصق بديننا الحنيف تهمة الدعوة لاستعباد المرأة أو اعتبارها جارية ومحظية ، لا أكثر ولا أقل !

وقد سقط فاروق من تلك الحملة الزائفة ، كما نكثت الحكومة بوعودها استجابة لضغطه فسحبت تصريحاتها السابقة عن حق المرأة فى الانتخاب والتصويت، وكلفت مندوبها فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى بهيئة الأمم المتحدة أن يمتنع عن التصويت عند أخذ الرأى فى الزام الدول الأعضاء باعطاء المرأة حقوقها السياسية ، فلم يسعه الا أن ينفذ ذلك فى جلسة ٢٧ مايو سنة ١٩٥٢ وسجل على حكومة مصر ، أنها لا تزال تعتبر نصف الشعب منبوذات لا حق لهن فى الحياة المتحررة الكريمة ..

انتهى أولئك وهؤلاء وبقيت قضية المرأة المصرية تتقدم كل يوم خطوة جديدة نحو النصر ..

بنت النيل

مع بنات العرب

واذا كانت المرأة المصرية قد أدركت — خلال تجاربها الطويلة فى الذود عن حقوقها — أهمية ربط كفاحها بكفاح نساء العالم أجمع فلم يقنع اتحاد بنت النيل بالانتساب الى منظمة واحدة من سائر المنظمات النسائية الدولية بل ظفر بعضويتها جميعا على مختلف ألوانها وطوائفها ومهما كانت التيارات التى تتجاذبها من اليمين أو من اليسار .. فعن طريق التكتل مع كل هذه الجبهات العالمية ومن نوافذ مؤتمراتها السنوية استطاعت المرأة المصرية أن تكسب الرأى العام الى جانبها فى كل مكان ..

وبهذا الفهم العميق نفسه كنت أجدنى مدفوعة بوحى من نسائنا المناضلات الى العمل السريع لتوثيق الروابط بين نساء العرب بصفة خاصة لمختلف الصلات التى تربطنا بهن .. صلات اللغة والدين والعادات والجوار وقبل ذلك كله صلة الآلام الواحدة والآمال الواحدة ..

وكما كنت أستوحى فكرة ربط الكفاح النسائى العربى من مصر كنت أستوحيه كذلك من رسائل قارئات « بنت النيل » فى مختلف بلاد العرب .. ان أصوات الأردنيات والعراقيات واللبنانيات والسوريات والفلسطينيات كانت تهمس فى أذنى من خلال مكاتباتهن بضرورة العمل على توحيد نضالنا المشترك فى سبيل الهدف المشترك . ومن هنا انتهزت فرصة الدعوة التى وجهتها الى صديقتى الدكتورة زاهية قدورة زعيمة الجامعيات اللبنانيات .. انتهزت فرصة الدعوة التى وجهتها الى بالقاء بعض المحاضرات فى بيروت حتى هرعت الى هناك بالطائرة فى صباح ٢٧ يناير سنة ١٩٥٤ ومن اللحظة الأولى لوصولى الى المطار أحسست مدى التجاوب العميق لحركتنا النسائية فى القطر الشقيق من ذلك

الاستقبال الضخم وتلك الحفاوة البالغة التى كنت أعرف انها ليست موجهه الى بل هى موجهة الى المصريات المناضلات جميعا فى شخص واحدة منهن لا أكثر ولا أقل ..

ومن خلال المحاضرات التى ألقيتها فى العاصمة اللبنانية والمقابلات التى سعدت بها لأقطابها من النساء والرجال على السواء والمؤتمرات التى تحدثت فيها الى صحافتها .. من خلال ذلك كله خرجت بفكرة واحدة ان الكلام عن حقوق المرأة العربية لم يعد هو الموضوع الذى يحتاج الى جهد أو تكرار فقد أصبحت قضيتها فوق الجدل والمناقشة ولم تعد هناك عقبة حقيقية فى سبيل حريتها سوى الاستعمار .. عدو الحريات جميعا بلا تفرقة ولا استثناء !

ومن هنا فقد تحولت دعايتى بسرعة من دعوة الى جمع صفوف النساء العربيات الى الدعوة لجميع صفوف العرب أجمعين .. نساء ورجالا ولم يكن لى أى فضل فى هذا الاتجاه فقد وجدتنى استوحى فكرة « جامعة الشعوب العربية » التى ناديت بها فى تلك الرحلة .. وجدتنى استوحيها فجأة من هتافات الجماهير العربية وأسئلتها وايمانها العميق بضرورة التكتل فى جبهة واحدة لاستخلاص حريتنا .

وقد غادرت بيروت لألبى دعوة نساء الأردن بل دعوة رجالها أيضا فوصلت الى عمان مع بعض زميلاتى فى ضيافة الآنسة اميلى بشارات .. وهناك لم تتركنا جماعة من الجماعات الا بعد أن تأخذ وعدا بقبول ما تقيمه لنا من المؤتمرات أو حفلات التكريم فظللنا بضعة أيام نطوف القدس ورام الله وبيت لحم .. حيث أدعى فى كل منها للخطابة والتحدث لا باسم المصريات فحسب ، بل باسم العروبة كلها وهو ينطوى على معان هائلة بالغة الدلالة على أن المجتمع العربى بدأ ينظر الى نسائه من زاوية جديدة .. بدأ يعاملهن فعلا على أساس المساواة والمشاركة الوجدانية فى الشعور بالمسئولية السياسية ازاء ما يتهدد أوطان العرب من الأخطار !

اننى أعترف هنا بلا تحرج اننى كنت أتوقع كثيرا من السخرية بنا كنساء يتصدين للعمل السياسى .. كنت أتوقع أن تنظر لنا بعض الجماهير

كمخلوقات غريبة يمكن التفرج عليها لا أكثر ولا أقل بل كنت أتوقع أن نقابل بالهجوم لدخولنا فى الميدان السياسى الذى احتكر الرجال النزول اليه عبر السنين والأجيال !

ولكنى على العكس من ذلك تماما رأيت جماهير عربية واعية ناضجة مستنيرة لا تسلم بحقوقها وحرياتها فحسب بل تؤمن بأن اشتراك العربيات فى حلبات النضال سوف يحل كثيرا من المشاكل ويذلل كثيرا من العقبات وكان هناك أكثر من ذلك من ينظر الينا نحن النساء العربيات على أننا المنقذات تحركنا فى اللحظة الأخيرة لنحرر بلادنا وننهض بها بعد كل الذى سجله زعماء العرب من الفشل المبين .

ولست أذهب بالطبع الى هذا المدى المتطرف من تفكير أصدقائنا والمتحمسين لقضيه تحررنا ولكنى أسوقها فى معرض التصوير الدقيق لما حققته رحلتنا من نجاح .

لقد قابلت فى رحلتى الى عمان وبيروت كثيرا من الحكام وقادة الرأى .. ابتداء من جلالة ملكة الأردن وفخامة السيد رئيس جمهورية لبنان ثم قابلت مئات من صميم أبناء الشعب ولمست ايمان الجميع — من السياسى الكبير الى رجل الشارع — بأن قضية الحرية واحدة لا تنفصل ولا تتجزأ .. وان الكل أيضا ينظر الى حرية المرأة العربية على هذا الأساس وهو انها جزء لا يتجزأ من حرية العالم العربى بكل حدوده وكل من فيه !

ولم يكن غريبا اذن أن أذهب الى لبنان والأردن وفلسطين لأدعو لجامعة نساء العرب .. لأدعو الى قيام جامعة الشعوب العربية وتبلغ بى الحماسة الى حد الشروع فى تنظيم هذه الدعوة وبدء الحملة لها باصدار كتابى الصغير عن تلك الفكرة فى أول مارس من ذلك العام .. أى بعد عودتى الى مصر ببضعة أسابيع !

نعم .. لقد عدت الى مصر وفى رأسى فكرة هى الدعوة الى عقد أول مؤتمر للشعوب العربية .. مؤتمر يلتقى فيه المناضلون اللبنانيون والسوريون .. الخ بالمناضلين المصريين والسعوديين والأردنيين واليمنيين ليرسموا معا خطط الكفاح لتحقيق أمانيهم وأهدافهم الوطنية .

ثمانية أيام
بلا طعام !!

وفى الوقت الذى كانت المرأة المصرية تتأهب فيه للمضى قدما فى سبيل تحقيق قيام « جامعة الشعوب العربية » فوجئت بصدمة جديدة لا أستطيع أن أتجاهلها !

كانت النية قد اتجهت الى قيام جمعية تأسيسية منتخبة لبحث مشروع الدستور الجديد وكان المفروض أن لا تتجاهل الحكومة حقنا المقدس فى الاشتراك فى تقرير المصير فاننا نمثل أكثر من نصف الشعب وليس من الطبيعى فى سنة ١٩٥٤ أن تقصى أغلبية الشعب عند التفكير فى وضع الخطوط الرئيسية لمستقبل ذلك الشعب !

ومع ذلك فقد حدث ذلك الذى أذهلنا جميعا وبدأ الاستعداد لانتخاب الجمعية التأسيسية على أساس قانون الانتخاب القديم .. القانون الذى يجعل التصويت والترشيح حكرا على الرجال وحدهم !

وقد سجلت فى البرقية التى بعثت بها عقب نشر ذلك القرار .. سجلت موقف المرأة المصرية من مثل هذه الجمعية وقلت اننا لا نعترف بأية جمعية تأسيسية لا تمثل كل الشعب برجاله ونسائه على قدم المساواة ، ولكن هذه البرقية لم تشف غليلى فقد كنت أعرف ان مصير مثل هذه البرقيات التى لا يعقبها عمل سريع هو سلة المهملات لا أكثر ولا أقل وان نشر هذه البرقية على صفحات الصحف قد يذكّر الرأى العام بقضيتنا ويثير عطف أصدقاء هذه القضية ولكن ذلك كله سيظل اجراء سلبيا ما لم تتخذ نحن النساء صاحبات الحق موقفا يعبر عن ارادتنا وتصميمنا على مزاولة حقوقنا الطبيعية الشرعية المقدسة .. ولكن ماذا نفعل ؟

لقد نظمنا قبل ذلك مظاهرات وعقدنا مؤتمرات ووزعنا منشورات

ودربنا كتائب واقتحمنا البرلمان ولم يبق الا أن تشتبك النساء مع الرجال فى حرب أهلية وهو ما لا يمكن أن يخطر على بالنا بطبيعة الحال فليس آباؤنا وأشقاؤنا وأزواجنا وأولادنا أعداء لنا مهما سلكوا ومهما بلغ بهم التمسك بالتقاليد البالية .

اذن لم يبق الا أن نضرب عن الطعام ولما كان من المستحيل بالطبع أن ينظم اضراب شامل تشترك فيه ١١ مليون نسمة من المصريات ولما كان الوقت ضيقا لا يسمح حتى بالدعوة الى تنظيم اضراب تشترك فيه ألف سيدة مثلا فقد رأيت فى لحظة انفعال أن أبدأ هذا الاضراب بنفسى .. وفى الحال !

ولكن المسألة كانت تحتاج الى ترتيب واعداد وتكتم شديد فقضيت طول الليل ساهرة أفكر دون أن أخطر أقرب الناس الى بما كنت أعتزمه فأنا أعرف ان أحدا منهم لن يشجعنى بالطبع على الانتحار .. سوف يحول خوفهم على دون اقتناعهم بالفكرة أو موافقتهم على تنفيذها وهم يعرفون ان ثمن هذا التنفيذ قد يكون حياتى !

وفى صباح اليوم التالى كنت أعد الترتيبات الأخيرة لاضرابى وقد اخترت الاعتصام فى نقابة الصحفيين طوال مدة الاعتصام لأسباب واعتبارات شتى فأنا من ناحية عضو فى نقابة الصحفيين وأنا من ناحية ثانية أضع نفسى خلال صيامى واعتصامى تحت رقابة الرأى العام كله ممثلا فى صحافته وأنا من ناحية أخرى لا أريد لاضرابى واعتصامى أن يكون دعاية لاتحاد بنت النيل فى الوقت الذى أقدم فيه على تضحيتى هذه باسم نساء مصر ولحساب قضيتهن جميعا ومن هنا فاننى آفضل الاعتصام فى مكان قومى عام لتتسم حركتى بهذه الصفة نفسها ولا تبقى محدودة باطار اتحاد بنت النيل وحده دون سائر الهيئات النسائية الأخرى ..

وحتى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة ١٢ مارس سنة ١٩٥٤ لم يكن هناك من يعرف هذا السر غيرى ولم يكن ثمة بد من أن يعرفه ثان ولم يكن ذلك الثانى سوى الشخص الذى عهدت اليه

باعداد عشر نسخ من البيان الذى قررت توزيعه على الصحف ووكالات الأنباء فى نفس الدقيقة التى أبدأ فيها اضرابى عن الطعام !

والحق ان سكرتير ادارة بنت النيل ظل محتفظا بهذا السر حتى أخذ طريقه الطبيعى الى الرأى العام عن طريق البيان فقد أغلق عليه الباب حتى أتم نسخ البيان على الآلة الكاتبة ثم خرج يشرف على توزيعه بنفسه !

وكان كل شىء يبدو هادئا وطبيعيا فى ادارة المجلة .. حتى هذا الخطاب المقفول الذى تسلمه الساعى لتوصيله الى ادارات الصحف لم يكن يثير فضول أحد ففى كل يوم تخرج أمثال هذه الخطابات تحوى نشرة عادية عن احدى المحاضرات أو الحفلات التى يقيمها الاتحاد من حين لآخر ..!

وعندما خرجت من ادارة المجلة فى الثانية عشرة والنصف ظهرا كان الكل يعتقد اننى فى طريقى الى المحطة لألحق قطار الاسكندرية فى مهمة تستغرق يوما أو يومين !

وما كدت أصل الى دار نقابة الصحفيين حتى طلبت الى السعاة أن يفتحوا لى مكتب النقيب ومن هذا المكتب طلبته تليفونيا وقلت له اننى قد اعتصمت منذ الآن فى مكتبك لأبدأ اضرابى عن الطعام حتى تظفر النساء المصريات بحقوقهن أو استشهد فى هذا السبيل ..

ولم تمض دقائق حتى كان الخبر قد أذيع فى جهات مختلفة من القاهرة وهرعت الى دار النقابة عشرات من المشتغلات بالحركة النسائية فأبت مروءتهن الا أن يعبرن عن تأييدهن لهذه الحركة بطريقة ايجابية هى الاشتراك فيها .. وفى الوقت الذى كان الناس فى مصر يطالعون فيه نبأ اضرابى عن الطعام بمفردى فى جريدة القاهرة كانت هناك ثمان من الزميلات يتأهبن للاعتصام معى لذات الهدف النبيل وبدأت أسماء السيدات والآنسات بهيجة البكرى ومنيرة ثابت وراجية حمزة ومنيرة حسنى وفتحية الفلكى والهام عبد العزيز وسعاد فهمى وأمانى فريد .

بدأت هذه الأسماء تأخذ طريقها الى أنحاء العالم بأسره باعتبارهن طليعة هذا الاضراب الأول من نوعه .

وفى اليوم التالى — وكانت الصحف قد أشارت الى حركتنا بعناوين ضخمة فى صفحتها الأولى امتلأت حجرات نادى الصحفيين وقاعاته وردهاته بمئات بل بآلاف الزوار وكانت أجراس التليفون لا تكف لحظة واحدة وكانت مصر من أقصاها الى أقصاها تتحدث عن المعتصمات وتسأل عما تطورت اليه حالتهن الصحية ساعة بعد أخرى !

ولست أنكر ان اضرابنا أثار أعداء المرأة كما أنه كان مادة سخية للمجلات تحاول بها اثارة انتباه القراء ولو بحملات مفتعلة وغير صحيحة فى جوهرها وتفصيلاتها .

ولكن هل ينكر أحد انها — الى جانب ذلك — أثارت عطف الرأى العام فى مجموعه على قضيتنا ؟

ان هذا المقياس وحده يكفى للتدليل على ان حركتنا نجحت فى كسب الرأى العام الى جانب قضية المرأة أكثر من أى وقت آخر وقد اشترك قادة الفكر جميعا فى تأييد مطالبنا العادلة بتلك المناسبة واذكر فى مقدمة هؤلاء الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور محمد صلاح الدين والدكتور على زكى العرابى والأستاذ فكرى أباظه .

ومنذ اليوم الثانى لاضرابنا وكبار المسئولين يفدون لاقناعنا بوقف هذا الاضراب على أساس أن نضع القضية فى أياديهم الأمينة .. واذكر ان الدكتور على ماهر رئيس لجنة الدستور ورئيس الوزراء السابق زارنى فى ذلك الصباح وطلب الى وقف اضرابنا واعدا بأن يتولى الدفاع عن قضيتنا بنفسه ! فقلت له اننا أقدر على الدفاع عن أنفسنا .. لا لأننا أعرف بالقانون ولا بفنون المنطق والبلاغة منك ، كلا بل لأننا نحن أصحاب القضية باعتبارنا نحن أكثر احساسا بما يقع علينا من ظلم واجحاف ! وقال لى الدكتور العرابى أعدك بأن .. وقبل أن يتم جملته قلت له :

لا تنس انك سبق أن وعدت ولا تنس انك حاولت أن تحقق وعدك لنا بالفعل ولكن السراى تدخلت فى اللحظة الأخيرة فهناك اذن قوى خفية قد تمنع أى مسئول من تحقيق وعده ولذلك فان ما نريده فى هذه المرة ليس وعدا بالعمل بل عملا بالفعل ! اننا على استعداد للافطار فورا اذا صدر تشريع يعدل مادة واحدة فى قانون الانتخاب وهى التى تجعل الحق النيابى حكرا على الرجال وحدهم !

وما كاد الزائران الكبيران يخرجان حتى كانت المضربات أكثر اقتناعا وأشد ايمانا بضرورة الاستمرار فى الاضراب عن الطعام حتى تجاب مطالبهن أو يستشهدن فى هذا السبيل فكتبن برقية الى مختلف الصحف والجهات الرسمية يجددن فيها هذا العهد .. وهذا العزم !

وقبل أن ينتهى اليوم كانت أسلاك التليفون تحمل الى نبأ انتصار جديد هو اضراب عدد من زميلاتنا أعضاء بنت النيل بالاسكندرية واعتصامهن فى نقابة الصحفيين أيضا بتلك المدينة وفى الصباح عرف قراء الصحف أسماء المضربات السكندريات .. أمينة شكرى وثريا العجيزى وأم هلال الخ تشجعهن على الاضراب رئيسة شعبة بنت النيل بالاسكندرية السيدة ألفت السلانكلى واتسع نطاق حركتنا وبدأت اذاعات العالم كله تتابع أنباءنا وكانت أول برقية وصلتنى من الخارج برقية السيدة كوربيت آشبى رئيسة الاتحاد النسائى الدولى « بارك الله شجاعتكن » وتلتها برقية وزيرة التأمين الاجتماعى فى بريطانيا السابقة « سمرسكيل » .

وأخيرا بعد اضراب دام ثمانية أيام كللت جهود المعتصمات بالنجاح وظفرت قضية المرأة المصرية بهذا الوعد التاريخى الذى أرسل به الينا المسئولون بأن دستور مصر الجديد سيشمل حقوق المرأة المصرية كاملة غير منقوصة ..

وفى الأيام التالية كان الساخرون من حركتنا قد خجلوا من أنفسهم فبدأوا يدخلون الشقوق مرة أخرى .. وكانت المنظمات النسائية كلها قد أجمعت على تأييد المعتصمات والالتفاف حول مطالبهن .. ولم تبق خارج

الصف سوى ثلاث أو أربع من اللائى أردن الانتفاع بالقانون المعروف « خالف تعرف » .. !

وبقيت نقابة الصحفيين طوال أسبوع كامل مقصد العاطفين على قضية المرأة من جميع الطبقات ومن النساء والرجال على حد سواء .. انها حلقة دائمة للمناقشة بل هو مؤتمر ضخم يشترك فى مداولاته مئات المتحدثين وآلاف المستمعين كل يوم .. ها هو السيد سليمان حافظ يخرج يائسا من اقناع المضربات بالعدول فيدخل السيد فكرى أباظة ليعيد المحاولة بطريقته وأسلوبه .. بل ها هى زميلتنا أسماء فهمى .. مديرة معهد التربية تحضر على رأس فرقة من طالباتها لتناشدنا الافطار خوفا علينا بعد أن أفاضت الصحف فى نشر تقارير الأطباء عن تدهور صحتنا وميلها الى الهبوط الخطير وها هن طالباتها النبيلات يعرضن استئناف الاضراب بالنيابة عنا بعد ما لمسنه على وجوهنا من آثار الضعف والهزال .

وكانت هذه المحاولات المستمرة أقسى علينا من الجوع وأشد ايلاما ولعل أخطر ما أذكره فى هذا الصدد ان ناظرة المدرسة التى تلتحق بها كريمتاى عزيزة وجيهان اتصلت بى تليفونيا وقالت : ان المدرسات والطالبات جميعا مشغولات على حياتى بعد ما أذاعته الصحف عن خطورة حالتى وانهن جميعا يرجوننى باسم عزيزة وجيهان — أن أقف اضرابى وذرفت عيناى بالدموع شفقة على الطفلتين الصغيرتين وخشيت أن تؤثر أخبار الصحف على أعصابهما المرهفة فطلبت أن أتحدث اليهما بنفسى ليطمئنا على صحتى ..

وقالت لى جيهان الصغيرة لماذا لا تأكلين يا ماما ؟

قلت لها : حاضر يا حبيبتى سوف آكل قريبا !

وأغلقت التليفون قبل أن أفشل فى تمالك أعصابى لأستقبل بعض السيدات من الجنوب ولأناقش عددا آخر من المشفقين علينا من لذعة الجوع وما قد يترتب عليه من نتائج خطيرة ..

وجاء اليوم الذى كان لابد فيه أن تنتقل بعضنا الى المستشفى لخطورة حالاتهن ورأيت أن ننتقل الى هناك بكامل هيئتنا ابقاء على مظهر تضامننا واشفاقا على زوارنا من التعب والارتباك والحيرة بين النقابة والقصر العينى .

وفى المستشفى رأت السلطات منع الاتصال بنا — لأسباب صحية ! — ومع ذلك فقد بقينا هناك محافظات على روحنا المعنوية وعلى ارادتنا الحديدية فى التصميم على الاضراب حتى النصر أو القبر ..

ومرت لحظات تخيلت فيها اننى قد أكون أول المستشهدات وخطر لى أن أكتب وصيتى ولكنى عدت فتذكرت ان استشهادى نفسه سيكون أعظم وصية عملية نقدمها الى مواطناتنا المضطهدات لتقتدى كل منهن — بنور تضحياتنا — فى طريق كفاحها لاستخلاص ما يبقى مسلوبا من حقوقها ..

ولكن هل كان وعد المسئولين هو كل ما أسفرت عنه حركة اضرابنا الذى استمر عشرة أيام كاملة ؟ اللهم لا بل كان النصر الأكبر لحركتنا فعلا — يوم خروجنا من المستشفى لنزور ضريح قاسم أمين — محرر المرأة فوجدنا وراءنا مئات من السيدات .. من مختلف الهيئات النسائية وقد اجتمعت ارادتهن فى ذلك اليوم على مواصلة الكفاح من أجل حقوق المرأة .

لقد أسفر اضرابنا عن الطعام عن نتيجة حساسة قد فاقت كل الوعود بأهميتها .. وهى الاتجاه الجديد الذى لمسناه فى الرأى العام .. فمنذ ذلك اليوم بدأ الرأى العام ينظر الى قضية المرأة بعين العطف وبدأ يدافع عن مطالبنا بحماسة لم نعرفها من قبل .

برقيات تأييد من أنحاء العالم

وقد تلقينا برقيات كثيرة من مختلف أنحاء العالم تؤيد مطالبنا من الهيئات والشخصيات التى تعطف على مطالب المرأة والتى تهدف الى تحريرها نذكر منها هذه البرقيات :

— الليدى كوربت آشبى الرئيسة الفخرية للاتحاد النسائى الدولى (من لندن) .

— السيدة جراف رئيسة الاتحاد النسائى الدولى (الدانمرك) .

— المجلس النسائى الدولى .

— السيدة أليس بول رئيسة المجلس النسائى العالمى (الولايات المتحـدة) .

— رئيسة الاتحاد النسائى الأندونيسى (أندونسيا) .

— رئيسة لجنة التنسيق النسائية ببومباى (الهند) .

— السيدة لوكنوك رئيسة المؤتمر النسائى الكندى (كندا) .

— السيدة كفينورس المعروفة بنشاطها النسائى استكهولم بالسويد.

— السيدة فرانسيس رئيسة هيئة السيدات المتزوجات بانجلترا .

— السيد تكهاليا رئيس الكونجرس الهندى بجنوب أفريقيا .

— السيدة مانيطا وامتبى رئيسة احدى الهيئات النسائية المعروفة بلنـدن .

— السيدة ماريابى عدنان رئيسة جمعية الشابات المسلمات بجاكرتا (أندونيسيا) .

— السيدة نادية سوقيه رئيسة جمعية التقدم الاسلامى (بجزيرة موريس) .

— السيدة كونكستن رئيسة الهيئات النسائية الايرلندية .

— السيد روجيه بلدوين رئيس لجنة حقوق الانسان بهيئة الأمم المتحـدة .

— الجبهة النسائية الديمقراطية .

— السيدة شانتوف رئيسة الحركة النسائية الجزائرية .

— السيدة جلاديث سميث رئيسة الهيئـة النسائية الديمقراطية بجنوب أفريقيا .

— رئيسة الحركة النسائية فى لبنان .

— رئيسة الحركة النسائية فى سوريا .

— رئيسة هيئة المطالبة بحقوق المرأة فى عمان (المملكة الأردنيـة الهاشـمية) .

السيدة سرى مانجون سوركورو رئيسة الحزب النسائى بجاكرتا (أندونيسيا) .

— السيدة كارولين هوسليت رئيسة الجبهة النسائية للسيدات العاملات بلندن .

— الهيئة النسائية للأخوات الفنلنديات (فنلندا) .

كما وصلت برقية من السيدة أديث سمرسكيل الوزيرة العمالية السابقة وعضو مجلس العموم البريطانى . ومئات البرقيات من شخصيات من جميع أنحاء العالم مما يدل على ما أحدثته هذه الحركة من دوى عالمى وتقدير لكفاح المرأة المصرية .

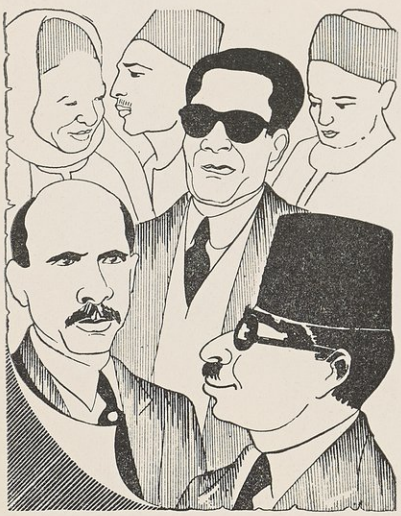

رجال
فى تاريخ المرأة

ويذكر فى تاريخ الحركة النسائية المصرية أعلام ، لهم فى هذا التاريخ نصيب عظيم ، فقد أفسح لطفى السيد وطه حسين وكامل مرسى صدورهم فى الجامعة واستطاعوا بالرغم من موقف الملك فؤاد أن يدخلوا الفتاة المصرية الجامعة ويسلكوها مع سائر الطلبة ويمكنوها من كل نواحى التعليم الجامعى .

ويذكر الدكتور محمد حسين هيكل فى ميادين الصحافة حيث استغل قلمه العظيم فى كل نواحى الحياة ونسجل للتاريخ أروع مواقفه حين هوجمنا من الناس عندما أضربنا عن الطعام للمطالبة بحقوقنا فكتب يدافع عنا ما يأتى : —

الأهرام ١٦/٣/١٩٥٤

تشغل السيدات المعتصمات بدار نقابة الصحفيين بالقاهرة والاسكندرية والمضربات عن الطعام حتى الموت ، تشغل بال الرأى العام فى مصر فالصحف كلها تتحدث عنهن كل يوم وتنقل أنباء اعتصامهن .

بل يظهر انهن قد بدأن يشغلن بال الرأى العام خارج مصر بدليل الرسالة التى بعثت بها اليهن مسز كوربيت آشبى رئيسة الاتحاد النسائى الدولى تشجيعا لهن فى موقفهن .

وسيزداد الرأى العام اهتماما بهن وحرصا على حياتهن كلما انقضى يوم من أيام اضرابهن عن الطعام .

ولست أريد أن أحبذ تصرفهن أو أنقده ولست أريد كذلك أن أبدى رأيا فى مطلبهن الخاص بالاشتراك فى الجمعية التأسيسية التى كثر

الحديث عنها فى هذه الأيام فقد انقضى العهد الذى كانت المرأة تلتمس فيه معونة الرجل لتحقيق مطالبها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية وأصبح للسيدات رأى خاص فى هذه المطالب ووسائل خاصة لتحقيقها .. لكننى مع ذلك لا أملك الا أن أبدى الدهشة مما هو حادث وان لم أتجاوز الدهشة الى ابداء الرآى .

فقد نشرت الصحف ان الرئيس الدكتور على ماهر بعث الى السيدة درية شفيق والى زميلاتها المعتصمات بنقابة الصحفيين بيانا ذكر فيه ان المرأة المصرية شاركت الرجل فى حركة سنة ١٩١٩ وانها « الآن تعمل معه جنبا الى جنب فى دواوين الحكومة وفى المهن والأعمال الحرة بل فى ميدان الأستاذية بالجامعات ولم يبق أمامها سوى استكمال حقوقها السياسية وقد أقرت لجنة مشروع الدستور بما يقرب من الاجماع مبدأ تمتعها بهذه الحقوق » وفى هذا البيان أبدى الرئيس على ماهر ثقته بأن تقرر الجمعية التأسيسية هذا المبدأ .

لم تكتف السيدات المضربات عن الطعام حتى الموت بهذا البيان فانهن يطالبن بأن يشتركن فى انتخابات الجمعية التأسيسية ناخبات ومرشحات كما يشترك الرجال ناخبين ومرشحين ولذلك قررن الاستمرار فى اضرابهن .

ومهمة لجنة الدستور لا تتجاوز وضع مشروع طلبت الهيئة الحاكمة اليوم اليها وضعه .

وقد نشرت الصحف ما يفيد أن قانون الجمعية التأسيسية الذى يتناول اختصاصها وقانون الانتخاب الذى يمهد لانشاء هذه الجمعية التأسيسية ليس من عمل لجنة الدستور بل تتولى الحكومة اليوم مناقشتهما ووضعهما ..

فهل تجارى الحكومة لجنة الدستور فتقرر مبدأ تمتع النساء بحقوقهن السياسية أم تترك ذلك للجمعية التأسيسية تفصل فيه بالرأى الذى تراه ؟

يخيل الى ان السيدات يرين ان اقرار الحكومة لحقهن فى الانتخابات للجمعية التأسيسية يشجع الجمعية المذكورة على اقرار ما ذكره الرئيس على ماهر من ان لجنة الدستور قررت تمتعهن بهذا الحق وان منع الحكومة لهن من دخول الجمعية التأسيسية يؤدى الى النتيجة العكسية ويشجع على رفض الجمعية اقرار حقوقهن السياسية ..

ولا أحسب السيدات المحترمات مع ذلك يقدرن انهن اذا دخلن انتخابات الجمعية التأسيسية سيفزن بعدد من المقاعد يؤثر فى أغلبية الجمعية ..

فقد اعترف للمرأة بحق الانتخاب فى انجلترا وفرنسا وأمريكا وغيرها من الدول ومع ذلك كان عدد النائبات قليلا فى هذه البلاد جميعا ولم يكن لهن أثر ظاهر فى ترجيح كفة على كفة أو فى تغيير الأغلبية ونقلها من جانب الى جانب آخر ..

أم ترى يقدر السيدات المحترمات ان أى عدد فاز منهن سيكون بقوة حجته وعظيم بلاغته دليلا ناهضا أمام الشعب كله على ان وجودهن فى الهيئة النيابية يحقق للبلاد خيرا كثيرا وانهن الى ذلك سيدافعن عن حق المرأة فى الانتخاب بما لا يدافع الرجال بمثله ؟

قد يكون هذا وذاك صحيحا . وقد يكون صحيحا أيضا ان دخولهن الجمعية التأسيسية سيصرف المتحمسين من الرجال لحق المرأة فى الانتخاب عن تأييد رأيهم اعتمادا على ان صاحبات الحق أولى بتأييده كما قد يدعو كثيرين من الرجال بدافع من التعصب للوقوف موقفا لا ترضاه السيدات المحترمات عند التصويت ..

هذه ومثيلاتها اعتبارات مرت بخاطرى حين تلوت فى الصحف رسالة الرئيس على ماهر الى السيدة درية شفيق وزميلاتها المضربات عن الطعام الى الموت .

وقد رأيت أن أعرضها على السيدات المحترمات وعلى من بيدهم مصير الأمور فى الوقت الحاضر يقدرونها حلا لمشكلة عويصة معقدة يبقى

حلها على أرواح عزيزة على مصر كلها ويجنب الرأى العام المصرى والرأى العام العالمى هزات عاطفية من الخير تجنبها ..

ولا يكون هذا الحل الا بتفاهم بين من بيدهم الأمر والسيدات المعتصمات بنقابة الصحفيين .

لقد أدى السيد رئيس لجنة الدستور واجبه وأصبح الأمر الآن بين الحكومة والسيدات المعتصمات .

فلعل الله يمنح الجميع من التوفيق ما تطمئن له النفوس ويستريح له الرأى العام فى مصر وفى أرجاء العالم كله .

ولن تنسى الحركة النسائيةمواقف السادة على ماهر ومحمد علىعلوبة ومحمد العشماوى وعشرات غيرهم فقد عاونونا وهم يلون مناصب الحكم فأتاحوا للمرأة التعليم والتوظيف ورعوا حقوقها كاملة وأنصفوها حين سووها بكل رجل فى الميادين التى زاملت المرأة فيها الرجال .

الجُندية المجهُولة

هذا هو كفاح المرأة المصرية فى مختلف الميادين ، فى العلم ، فى الثقافة فى السياسة ، فى العمل ، فى مقاومة المستعمر فى حرية بلادها ، فى السعى لاستقلالها فى الخدمة الاجتماعية ورفع شأنها صفحة مشرفة مشرقة .

ولكن هناك كفاح من لون آخر جدير بالتسجيل والتقدير وجدير بأن تحنى له الهامات وأن يذكر بكل فخر وافتخار ذلك الكفاح هو كفاح « الجندية المجهولة » ذلك الكفاح الصامت الذى تؤديه المرأة المصرية فى صمت وذلك الدور الخطير الذى تضطلع به « الجندية المجهولة » فى محيطها فتحترق كالشمعة لتضيىء النور فى جوانب المجتمع دون أن يدرك أحد ما تبذل من جهد وما تقدم من خدمات مشكورة لولاها لكانت الحال غير الحال والوضع غير الوضع .

فلدينا فى الريف المصرى على الأقل ٨ ملايين امرأة يحملن عبء الحياة كما يحمله الرجال ، بل لا أغالى اذا قلت ان عبئهن أثقل ومشقتهن أشد وأصعب فالرجل هناك يعمل فى الحقل وحده ولكن المرأة الريفية عندنا تعمل فى الحقل مع زوجها كما يعمل تشاطره كل صغيرة وكبيرة فى عمله وفوق ذلك المجهود المضنى الذى تنوء به كواهل الرجال ترعى منزلها ومطالب بيتها فهى ربة بيت تشقى فيه وحدها ثم الى جوار هذا الشقاء نراها تسابق زوجها فى العمل ولا تهدأ ولا تستريح حتى تؤدى واجبها كاملا فى الميدان .

وكثيرات غيرها فى ميادين أخرى يضطلعن بمثل مسئولياتها فيوزعن وقتهن بين مطالب بيوتهن وبين أعمالهن فى ميدان الحياة راضيات بهذا المجهود الضخم الذى ليس مجهودا فرديا ولكنه فى الواقع ونفس الأمر

مجهود من أجل الوطن فى مجموعه ، ومن أجل مجد الجميع واسعاد البلاد .

هؤلاء مثلهن تماما كالجندى فى ميدان الحرب ، فى ميدان الدفاع عن بلاده ومجدها .

وكما يموت الجندى فى الدفاع عن بلاده مجهولا ولا يدرى به أحد وكل الذى ندريه من أمره اننا نقدس تلك البطولة المجهولة ونحنى الرأس أمامها ونرمز لها بتمثال نحيى به ذكرى بطولته .

أقول كما يموت الجندى مجهولا فى سبيل الدفاع عن بلاده فان كثيرات من المصريات يمتن فى سبيل بلادهن وفى قيامهن بواجبهن اعياء وتعبا دون أن يدرى بهن أحد أو يذكرهن التاريخ .

هؤلاء المجهولات جديرات حقًا بأن نقدس كفاحهن وأن نذكر بطولتهن وأن نحنى الرأس أمام كفاحهن الصامت وبطولتهن المجهولة .

كلمتنا الأخيرة

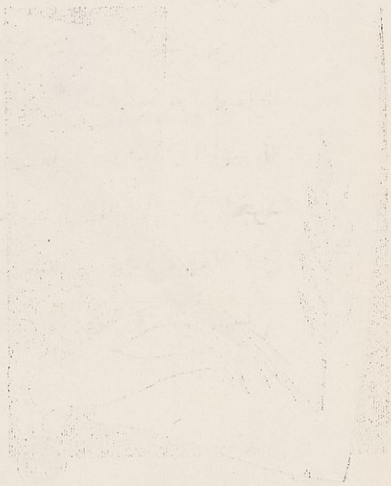

والآن ، وقد استعرضت فى ايجاز شديد ، كفاح المصرية على مر العصور والأجيال ، مبتدئة بعهد « جدتنا » الفرعونية ، منتقلة الى « أمنا » العربية ، منتهية الى عهدنا نحن .. عهد المصرية الحديثة ، بكل ما استكملت به عناصر شخصيتها الحالية من أخلاق موروثة ، وذكاء مفطور ، وثقافة مكتسبة ، وكفاح طويل متأصل ، له جذوره العميقة فى طموحها التاريخى البعيد ..

الآن وقد فرغت من رسم صورة واضحة للمرأة المصرية — وان أعوزتها التفاصيل التى لا تستوعبها صفحات هذا الكتاب — أرجو أن أكون قد وفقت الى اعداد مرجع لمن يريد من الأحرار والمستنيرين — أصدقاء المرأة — أن يجد سفرا يضم مجموعة الحقائق الخالدة عن نضالنا النسائى فى شتى الميادين ، ليقيم منه دليلا جديدا على ان المرأة المصرية يجب أن تظفر بحقوقها الطبيعية فى المساواة بسائر المواطنين ، لا لمجرد انه حق يفرضه المنطق والقانون والزمن ، بل لأنها أصبحت جديرة فعلا بأن تتساوى بالرجال فى الحقوق ، ما دامت قد تساوت بهم فى الواجبات والالتزامات ..

لقد ارتفع صوت المفكر الحر — قاسم أمين — منذ أكثر من نصف قرن ، ليعلن ان المرأة المصرية لا تقل عن الرجل ذكاء أو استعدادا للعمل أو للعلم .. كما ارتفع صوته يؤكد أن السفور والاختلاط لا يفسدان أخلاقها ولا ينتهيان بها الى التدهور والانحدار .. كما ارتفع صوته أخيرا ، ليؤكد ان تحرير المرأة لا يتعارض مع الدين ، ولا مع تقاليد الاسلام بالذات !

والحق ، ان مهمة قاسم أمين كانت صعبة فى ذلك الحين ، فقد كانت تلك التجربة جديدة على كثير من دول العالم المتحضرة ، ولم تكن مصر المتخلفة اذ ذاك — من جميع النواحى — لتقبل الاندفاع فى مثل تلك التجربة — تجربة المساواة التامة بين النساء والرجال — فلم يكن فى مصر من يفهمها أو يتخيلها .!

ولكن الزمن كان أكبر معلم وأكبر هاد لنا ، فقد ضرب بكل الصيحات الرجعية المرتعشة عرض الحائط ، ومد يده فرفع النقاب عن وجه المرأة المصرية ثم مد يده فرفع تلك الستائر المسدلة على نوافذ الحريم .. ثم مد يده فحطم ذلك الحريم تماما .. وساق النساء المصريات أمامه الى المدرسة والى المصنع ، والى النادى ، وشيئا فشيئا بدأ الآباء والأزواج والأشقاء والأبناء يحترمون ارادة الزمن ، وينحنون اجلالا لها .

كانت مهمة قاسم أمين صعبة منذ خمسين سنة ، ولم يكن أحد يصدق دعواه فى ان المرأة يمكن أن تعمل وتنتج — سواء بعقلها أو بيديها — وانها تخفف بذلك نصف العبء عن الرجال ، أوتضاعف ما تخرجه أيدى أولئك الرجال من انتاج ، فلا يظل نصف المجتمع عيالا على النصف الآخر .. يشترك فى الاستهلاك ، ولا يشترك فى الانتاج .

وكانت مهمة قاسم أمين صعبة ، ولم يكن أحد ليصدقه وهو يؤكد ان الفتاة المصرية لها من العقل والادراك ما تستطيع أن تفهم به دروس القانون ، والهندسة ، والفلسفة ، والطب ، والآداب ، وان فى وسعها أن تتخرج فى الجامعات وفى المعاهد العليا ، وأن تخرج من بين صفوفها دكتورات ، وطبيبات ، وعالمات ، وأديبات ، ومهندسات ، وصحفيات .

وكانت مهمة قاسم أمين صعبة ، ولم يكن أحد ليتخيل ان خروج المصرية وحدها الى الطريق يمكن أن يتم بدون كارثة ! ولم يكن أحد ليتخيل ان جلوسها الى جانب زميلها فى الجامعة أو المكتب أو المصنع يمكن أن يتم دون أن ينتهى بضياع شرفها وعفتها ..!

كانت مهمة قاسم أمين صعبة لأن الناس لم تكن قد رأت بعد هـذه التجربة ، ومن هنا فقد قوبل كتابه الخالد « تحرير المرأة » بعاصـفة من الاستنكار ، والاحتجاج ، والهجوم العنيف على دعوته التى وصفت اذ ذاك بالخطورة .. بل بالشذوذ .!

أما الآن ، فقد ثبت بالتجربة التى تقطع كل لسان يعترض ، ان الفتاة المصرية لا تقل عن الفتى استعدادا للعلم ، بل انها كثيرا ما تتفوق عليه ! وثبت بالتجربة ان المرأة المصرية لا تقل استعدادا عن الرجل فى ميدان العمل ، بل انها كثيرا ما تكون أشد جلدا منه . وثبت بالتجربة أخيرا ان السفور والاختـلاط لم يزيدا المصريات الا خلقا وان الثقة التى يمنحهـا المجتمع للمرأة ، هى أعظم ضمان لها ، وأكبر عاصم من التردى والانحراف .. وأستطيع أن أتحدى واثقة من هذا التحدى بأن أخلاق العاملات السافرات المتحررات ، امتن من أخلاق المتعطلات المحجبات ، المقيدات وراء النوافذ المغلقة ، والأبواب المحكمة !!

هذه حقائق يستطيع كل مواطن فى مصر أن يلمسها بلا تعب ولا ارهاق وهذا ما يجعل مهمتى اليوم أسهل ألف مرة من مهمة ذلك الرائد العظيم قاسم أمين ، فاذا كان هو قد تناول موضوع المرأة وحقوقها فى المساواة على أساس التحليل النظرى لامكانية هذه المساواة ، فقد جئت اليـوم لأتناول الموضوع بما يتفق والمراحل التى قطعتها المرأة المصرية فى طريق تحررها .. جئت اليوم لأعلن الكلمة الأخيرة الفاصلة فى هذه القضية ، على أساس ما حققته المرأة المصرية بالفعـل من المعجزات فى مختلف ميادين العلم ، والعمل ، والاجتماع ، والسياسة .

لقد انتصرت فى كل تلك الميادين وتفوقت ، واذا كانت حقوقهـا السياسية لم ترد اليها بعد من الناحية الشكلية ، فقد أوضحت كيف فرضت المرأة المصرية نفسها على ذلك الميدان فاشتغلت بالسياسة فعلا ، ولن يستطيع أحد أن يحرمها ذلك الحق بعد اليوم .

وبعد ، فلم يعد أمام بقايا الرجعية ما تتمحك به فى محاولة الوقوف

دون عجلة الزمن .. لم يعد أمامها سوى التمسح فى الدين ، وحسبى أن أرد على أولئك بكلمة واحدة هى اننا ننتظر أن يجمع السادة أصحاب الفضيلة — رجال الدين — أمرهم على رأى واحد فى قضية المرأة فهم حتى — كتابة هذه السطور — مختلفون لا يتفقون .. بعضهم يؤكد ان تحرير المرأة ومساواتها لا يتفق مع أصول الدين ، وبعضهم يؤكد ان الاسلام يمنح المرأة بعض هذه الحقوق دون البعض الآخر ، وفريق ثالث يقف الى جانب حرية المرأة ومساواتها على طول الخط .. ولا أريد حتى أن أسجل هنا ان الفريق الثالث هو الأكثر عددا ، والأوسع أفقا ، ولا أريد أن أتمسح أنا أيضا فى الدين ، وحسبى أن أطلب الى سادتنا العلماء أن يجمعوا أولا على رأى وأن يحاولوا أن يفسروا لنا الدين تفسيرا جديدا يتمشى وعجلة الزمن ، ويتمشى وروح ديننا السمح الكريم الذى سوى بين المسلمين أجمعين .

والى أن يتم هذا الاتفاق بينهم ، سنظل نحن عند موقفنا ، مؤمنات بأن الدين يسر لا عسر وأن الله يلهم الناس الحق دائما والصواب ، وقد قطعنا ما قطعنا من أشواط فى سبيل تحرير المرأة بذلك الوحى الالهى الذى يلهم أصحاب الحق وينير لهم الطريق وسط العوائق والظلمات ..

وبعد ، فهذا تاريخ كفاح المرأة المصرية ، لم أضمنه مناقشة نظرية ، أو أطرح فيه رأيا للبحث والمناظرة .. كلا ، بل أردت به أن أجمع الحقائق كلها لتكون تحت أنظار الذين يلتمسون الحقيقة ويبحثون عنها ، فمن شاء أن يناقشنا بعد اليوم على أسس موضوعية ، وفى ضوء هذه الحقائق التى بسطتها فليتفضل ، وأما الذين يريدون الرجوع بنا الى الوراء ، ليجادلونا فى بديهيات أو فى نظريات فليس لهم عندنا مكان ..

درية شفيق

إحصائيات

السكان فى تعدادات ١٨٨٢ — ١٩٤٧

والزيادة بين كل تعدادين متتاليين

سنة التعداد	عدد السكان	الزيادة العددية	الزيادة المئوية فى عشر سنين
١٨٨٢	٦٨٠٤٠٢١		
١٨٩٧	٩٧١٤٥٢٥	٢٩١٠٥٠٤	٢٨ر٦
١٩٠٧	١١٢٨٧٣٥٩	١٥٧٢٨٣٤	١٦ر٢
١٩١٧	١٢٧٥٠٩١٨	١٤٦٣٥٥٩	١٣ ر
١٩٢٧	١٤٢١٧٨٦٤	١٤٦٦٩٤٦	١١ر٥
١٩٣٧	١٥٩٣٢٦٩٤	١٧١٤٨٣٠	١٢ر١
١٩٤٧	١٩٠٢١٨٤٠	٣٠٨٩١٤٦	١٩ر٤

عدد السكان مقدرا فى أول يوليه من كل سنة

السنوات	ذكور	اناث	الجملة
١٩٤٧	٩٤٤٤٠٠٠	٩٦٢٤٠٠٠	١٩٠٦٨٠٠٠
١٩٤٨	٩٦٦٢٠٠٠	٩٨٣٢٠٠٠	١٩٤٩٤٠٠٠
١٩٤٩	٩٦٨٢٠٠٠	١٠٠٢٦٠٠٠	١٩٨٨٨٠٠٠
١٩٥٠	١٠١٢١٠٠٠	١٠٢٧٢٠٠٠	٢٠٣٩٣٠٠٠
١٩٥١	١٠٣٨٦٠٠٠	١٠٥٢٣٠٠٠	٢٠٩٠٩٠٠٠

توزيع السكان حسب الحالة الزوجية والنسبة المئوية لكل حالة الى الجمـــلة فى تعـــدادى

١٩٣٧ و ١٩٤٧

الحالة الزوجية	١٩٣٧				١٩٤٧			
	ذكور	النسبة	اناث	النسبة	ذكور	النسبة	اناث	النسبة
لم يتزوج أبداً ...	١٢٤٩٢٤٤	٢٧ر٤	٤٩٧٢٩٧	١٠ر٦	١٥١٤٣٢٠	٢٧ر٦	٦٦٢٥٣٣	١١ر٥
متزوج..	٣١٠٥١٤٦	٦٨ر٣	٣١٧٩٣٧١	٦٧ر٤	٣٦٥٢٦١١	٦٦ر٥	٣٧٦٦٧٥٩	٦٥ر٠
مطلق	٦٠٢٣٤	١ر٣	٩٧١٣٤	٢ر١	٦٩٦٢٠	١ر٣	١٢٧٦٠٩	٢ر٢
أرمل	١٢٩٦١٣	٢ر٨	٩٣٢٣٢١	١٩ر٨	١٣٨٤١١	٢ر٥	١١٣٤٩٧٤	١٩ر٦
غير مبين	١٠٦٨٠	٠ر٢	٦٥٦٤	٠ر١	١١٦٤٦٧	١ر٢	٩٥٢٦٢	١ر٧
الجملة	٤٥٥٤٩١٧	١٠٠	٤٧١٢٦٨٧	١٠٠	٥٤٩١٤٢٩	١٠٠	٥٧٨٧١٣٧	١٠٠

عقود الزواج واشهادات الطلاق حسب الديانة

السنوات	مسلمون		مسيحيون		إسرائيليون		عقائد أخرى		الجملة	
	زواج	طلاق	زواج	طلاق	زواج	طلاق	زواج	طلاق	زواج	طلاق
١٩٤٦	٢٨١١٤٩	٨٠٠٥١	٦٠٢٣	٣٠٣	٧٥٦	٦١	١	—	٢٨٧٩٢٩	٨٠٤١٥
١٩٤٧	٢٥٤٦٧٣	٧٥١٠٤	٥٢٧٣	٢١٧	٦٤٠	٨٣	—	—	٢٦٠٥٨٦	٧٥٤٠٤
١٩٤٨	٢٦١٣٢٧	٧٥٧٠٩	١٠٢٨٢	٣٨٣	٥١٨	٦٢	١	—	٢٧٢١٢٨	٧٦١٥٤
١٩٤٩	٢٦٨٨٥٤	٧٣٣٨١	١٠٩٢٨	٣٥٥	٦٨١	٩١	—	—	٢٨٠٤٦٣	٧٣٨٢٧
١٩٥٠	٢٦٣٠٣٣	٧٤٦١١	٩٥٤٥	٢٥٣	٢١٧	١٧	—	—	٢٧٢٧٩٥	٧٤٨٨١

عقود الزواج واشهادات الطلاق ونسبتها لكل ألف من السكان

السنوات	عقود الزواج		اشهادات الطلاق	
	العدد	النسبة فى الألف	العدد	النسبة
١٩٤٦	٢٨٧٩٢٩	٣١ر٧	٨٠٤١٥	٨ر٩
١٩٤٧	٢٦٠٥٨٦	٢٧ر٢	٧٥٤٠٤	٧ر٩
١٩٤٨	٢٧٢١٢٨	٢٨	٧٦١٥٤	٧ر٨
١٩٤٩	٢٨٠٤٦٣	٢٨	٧٣٨٢٧	٧ر٤
١٩٥٠	٢٧٢٧٩٥	٢٦ر٩	٧٤٨٨١	٧ر٤

المسلمون المتزوجون حسب عدد زوجاتهم والنسبة المئوية لكل فئة الى الجملة

فى تعدادى ١٩٣٧ — ١٩٤٧

عدد الزوجات	١٩٣٧		١٩٤٧	
	العدد	بنسبة	العدد	بنسبة
واحدة	٢٧٣٣٣٠٢	٩٦ر٨٦	٢٩٧١٧٩٥	٩٦ر١٤
اثنتان	٩١٧١٢	٢ر٩٥	١١١٧٤٦	٣ر٦٢
ثلاث	٥١٦٩	٠ر١٧	٦٥٧٣	٠ر٢١
أربع	٥٢٠	٠ر٠٢	٨٨٨	٠ر٠٣
الجملة	٢٨٣٠٧٠٣	١٠٠	٣٠٩١٠٠٢	١٠٠

الأزواج والزوجات

حسب حالتهم المدنية قبل زواجهم الأخير

الحالة المدنية		١٩٤٨	١٩٤٩	١٩٥٠
١ — الحالة المدنية للأزواج				
الذين لم يسبق زواجهم ..		١٨١٨٧٧	١٩٣٣٢١	١٨٧٦٧١
في عصمتهم	زوجة ...	٢٢٧٥٠	٢٢٦٢٨	٢٢٠٤٤
	زوجتان .	١٢٣٤	١٢٢٦	١١٦٩
	ثلاث ...	٩٢	٩٠	٨٢
مطلقون		٤٥٢٧١	٤٤٨٣٩	٤٤٥٨١
أرامل		٢٠٩٠٤	١٨٣٥٩	١٧٢٤٨
٢ — الحالة المدنية للزوجات				
اللاتى لم يسبق زواجهن ..		١٨٧١٢٥	١٩٧٢٩٠	١٩١٦٣٧
مطلقات		٦٦٠٩١	٦٥٧٥٨	٦٥١٤١
أرامل		١٨٩١٢	١٧٤١٥	١٦٠١٧
جملة الأزواج والزوجات		٤٤٢٥٦	٥٦٠٩٢٦	٥٤٥٥٩٠

عدد المشتغلين بالمهن الطبية فى آخر كل سنة

المهنة	١٩٤٩	١٩٥٠	١٩٥١
أطباء	٤٦١٢	٤٧٩٧	٥١٥١
« بيطريون	٥٩٦	٦٣٧	٩٦٠
جراحو أسنان	٥٨٤	٥٩١	٥٨٩
صيادلة	١٣٩١	١٤٨٧	١٥٥١
مساعدو صيادلة	٣٢٢	٣٢١	٣٢١
مولدات	٩٩٦	١٠٤٦	١١٩١

الطلبة والخريجون بجامعات القاهرة والاسكندرية وعين شمس

أسماء الكليات	نوع	١٩٤٩–٥٠		١٩٥٠–٥١		١٩٥١–٥٢	
		طلبة	خريجون	طلبة	خريجون	طلبة	خريجون
الحقوق ...	بنون	٣٩١٩	٣٨٨	٦٠٦٢	٣٩٦	٥٣٦٩	٧٥٩
	بنات	١٥٦		٢٧٣		١٧٩	
الآداب ...	بنون	٢٠٢٢	٤٠٥	٢٧٧٠	٣١١	٣١٨٨	٥١٦
	بنات	٦٠٥		٧٧٢		٩٤٣	
العلوم ...	بنون	١٢٧٩	١٩٠	١٩٠٨	١٢٩	٢١١٢	٣٨٣
	بنات	١٢٠		١٦٣		٢٣٣	
الطب ...	بنون	٤٢٦١	٣٠٣	٤٩٤٥	٣٢٦	٥١٧٧	٣٩١
	بنات	٣٥٧		٥٦٤		٥٦٢	
الصيدلة ...	بنون	٤٠٦	٣١	٤٥١	٥٥	٤٨٤	٧١
	بنات	٥١		٥٧		٦٥	
طب الأسنان	بنون	١٣٧	٥	١٧٩	٧	١٨٨	٥
	بنات	١٤		٢٢		٢١	
الهندسة ...	بنون	٢٥١٣	٣٥٥	٤١٧١	٢٦٣	٥٤١٣	٤٦٠
	بنات	٥		٧		١٢	
التجارة ...	بنون	٤٨٢٠	٤٧٨	٧١٥٤	٨٢٣	٧٨٤٠	١١٠٥
	بنات	١٧٣		٢٢٢		٢٦٦	
الزراعة ...	بنون	١٨١٩	٢٧٤	٢٠٧٥	٢٩٣	١٩٣٩	٤٥٤
	بنات	٧١		٧٤		٧٨	
الطب البيطرى	بنون	٣٦١	٤٣	٣٦٨	٣٠	٣٩٣	٥٥
	بنات	١٣		١٨		٢٢	
دار العلوم	بنون	٦٢٦	١٥٨	٦٠٥	١٨٧	٦٨٩	١٢٤
الجملة ..	بنون	٢٢١٦٣	٢٦٣٠	٣٠٦٨٨	٢٨٢٥	٣٢٧٩٢	٤٣٢٣
	بنات	١٥٦٥		٢١٧٢		٢٣٨١	

الأحداث فى جميع السجون

حسب الجريمة والنوع

		١٩٤٩	١٩٥٠	١٩٥١
مخالفات	ذكور ...	٦٨	٢١٨	٢١٤
	اناث ...	١١٢	٥٦	٤٨
	جملة	١٨٠	٢٧٤	٢٦٢
جنح	ذكور	٢٠٢٣	٢٢١٥	٢٦٣٧
	اناث.....	٣٢٩	١١٨	١٣١
	جملة	٢٣٥٢	٢٣٣٣	٢٧٦٨
جنايات	ذكور	—	٤٤	٨٩
	اناث.....	٢١	١	٢
	جملة	٢١	٤٥	٩١
جملة عمومية ...	ذكور	٣٩٧	٢٤٧٧	٢٩٤٠
	اناث.....	٢١٥٦	١٧٥	١٨١
	جملة	٢٥٥٣	٢٦٥٢	٣١٢١

وفيات الأطفال الذين عمرهم أقل من سنة

حسب أسباب الوفاة فى الجهات التى بها مكاتب صحة

سبب الوفاة	١٩٤٨	١٩٤٩	١٩٥٠
١ — التشوهات الخلقية ...	١٦٤	٦٤	١٢٢
٢ — الضعف الخلقى	٢١٣٤٤	٢٠٩٠٢	٢٢٧٧٩
٣ — الولادة قبل الأوان	١٥٢	١٦٨	٢٣٦
٤ — نتائج الوضع	١١٥	١٤٠	٢٠٧
٥ — قتل الأطفال دون السنة	٨٢	٦٠	٨٠
٦ — حوادث عارضة	٥٩	١٠٠	٨٣
٧ — أسباب أخرى	١٢٠٥	١١٣٧	١١٧٧
الجملة	٢٣١٢١	٢٢٥٧١	٢٤٦٨٤
النسبة فى الألف من المواليد الأحياء	١٧٥ر٤	١٧٤ر٧	١٧٠ر٩

المواليد والوفيات ووفيات الرضع

السنوات	النوع	مواليد أحياء		وفيات		وفيات الرضع		مواليد موتى	
		العدد	النسبة المئوية من السكان	العدد	النسبة فى الألف	العدد	النسبة فى الألف	العدد	النسبة فى الألف
١٩٤٨ ...	ذكور	٤٣٣٨٧٨		٢١٢٢١٨		٦١٤٧٩		٣٣٩١	
	اناث	٣٩٨٨٥٠		١٨٥٧٥٨		٥٣٩٤٣		٢٤٢٩	
	جملة	٨٣٢٧٢٨	٤٢ر٩	٣٩٧٩٧٦	٢٠ر٥	١١٥٤٢٢	١٣٨ر٦	٥٨٢٠	٦ر٩
١٩٤٩ ...	ذكور	٤٣٧١٨١		٢١٨١٠١		٥٩٧٣٤		٣٤٩٧	
	اناث	٣٩٩٣٣٥		١٩٢٤٢٣		٥٢٩٠٧		٢٤٧٧	
	جملة	٨٣٦٥١٦	٤٢ر١	٤١٠٥٢٤	٢٠ر٦	١١٢٦٤١	١٣٤ر٧	٥٩٧٤	٧ر١
١٩٥٠ ...	ذكور	٤٧٢١٧٧		٢٠٧١٦٤		٦٢٢٠٧		٢٦٨٢	
	اناث	٤٣٢٧٦٤	٤٤ر٤	١٨١٧٨٠		٥٥٠٧٦		٢٥٧٤	
	جملة	٩٠٤٩٤١		٣٨٨٩٤٤	٢٠ر٦	١١٧٢٨٣	١٢٩ر٦	٥٢٥٦	٦ر٩

الناشر
مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية

الغلاف واللوحات
عبد السلام الشريف

الثمن **٣٥** قرشا

893.797
R126

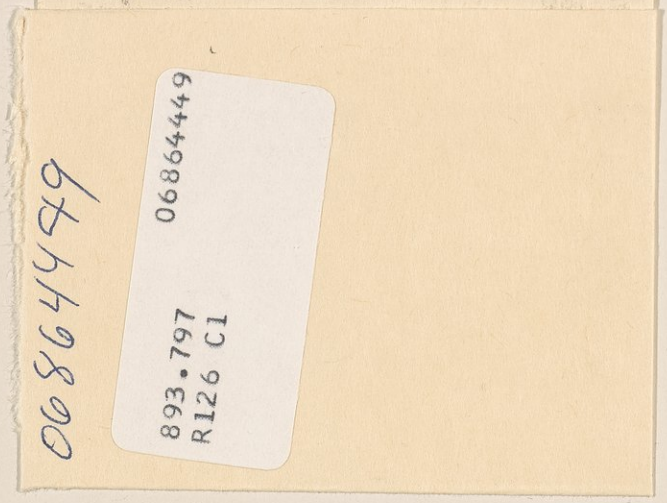

BOUND

MAR 28 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58837450
893.797 R126 Marah al-Misriyah mi

RECAP